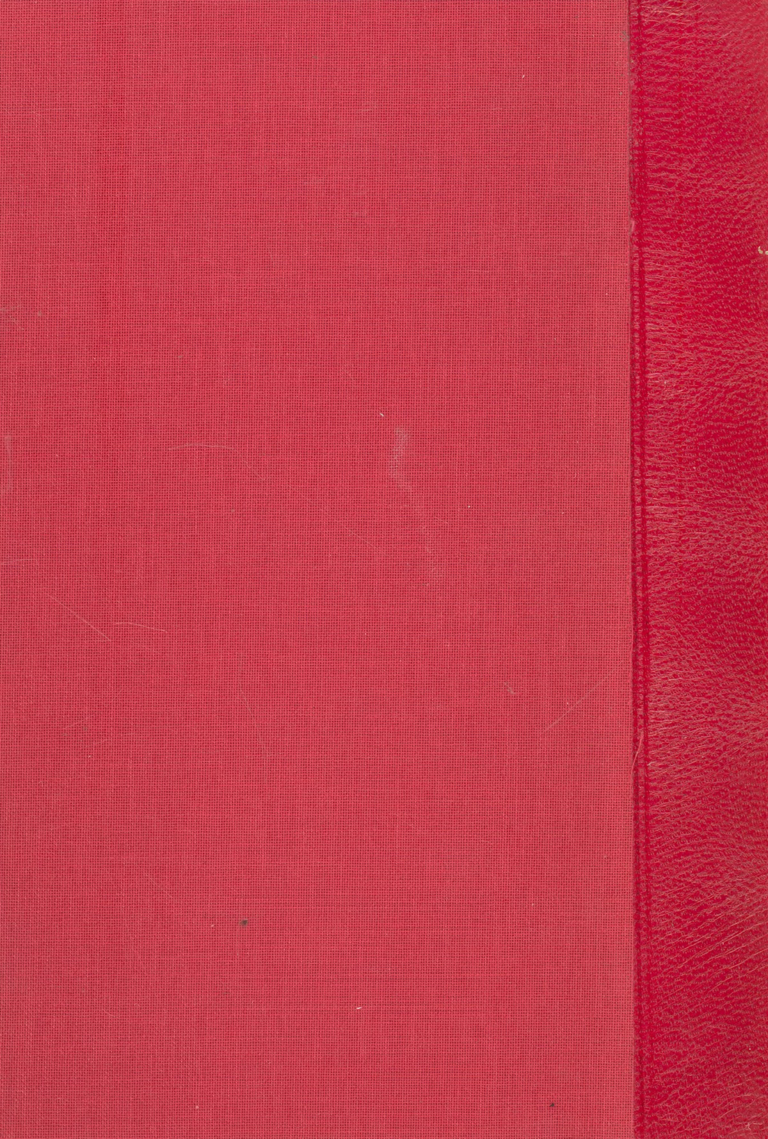
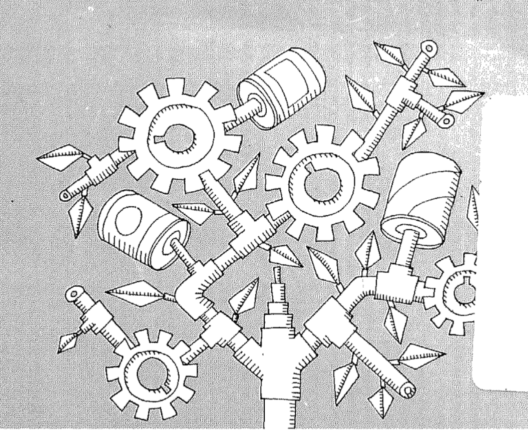


الفردوس الأرضي

دراسات وانطباعات عن الحضارة الأمريكية الحديثة

د. عبد الوهاب المسيري

المؤسسة
العربية
للدراسات
والنشر



د. عبد الوهاب المسيري

الفردوس الأرضي

دراسات وانطباعات عن الحضارة الأمريكية الحديثة

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون ـ ساقية الجنزير
ت : ٣١٢١٥٦ ـ برقياً « موكيالي » بيروت
ص . ب . ١١/٥٤٦٠ بيروت

الإهداء

ومن غيرك اهديها هذه الكلمات ؟

مقدمة

الفردوس والتاريخ

يعيش الانسان جزءا من الطبيعة شأنـه في هذا شأن الكائنات العضوية الاخرى : يولد ويموت ، ينطبـق عليه ما ينطبق عليها من قوانين طبيعية حتمية ، ان دخل النار احتـرق ، وان القى بنفسه من شاهق دقت عنقه ، وان تعرض للبرد هلك ، وحينما تفسد خلايا جسمه فهو يتحلل ويتحول الى تراب تذروه الرياح ٠

ولكنه الى جوار هـذا يعيش في بناء مستقل عن الطبيعة من صنع يديه ، هـذا البناء هو التاريخ ، ولـذا فالانسان لا يخضع لقوانين الطبيعة وحدها وانما يخضع لقوانين التاريخ ايضا ، وهي قوانين مغايرة لقوانين الطبيعة رغم ارتباطها بها ورغم اعتماد البيئة التاريخية على البيئة الطبيعية ٠ والتاريخ هو تراكم خبرات الانسان في مجابهته الطبيعة ، ولذا فهو يمنح الانسان من المعرفة والوعي ما يمكنه من التحكم في الطبيعة وتوظيفها لصالحه ٠ هذه الازدواجية هي ما يسمى الوجود الانساني : ان يعيش الانسان داخل جسده «الطبيعي» يحمل وعيه « التاريخي » ، والجسد والوعي رغم ارتباطهما منفصلان الواحد عن الآخر فبينما يؤكد الاول انتماءه لعالم الحيوان ، يؤكد الثاني انتماءه لما هو غير حيواني ٠ وبين هذا الشد والجذب يعيش الانسان ايامه الارضية لا مخرج له منهما كفرد او كجماعة ٠

وهذا الشد والجذب في نظري هو مصدر جدلية الوجود الانساني ، فالانسان قد ترك الطبيعة الدائرية وسقط في التاريخ وحدوده ولا يمكنه الا تقبل هذا الامر . ولكنه مع هذا قلما يقنع بما هو قائم وانما يثور ضده دائما ويحلم بما هو افضل خاصة حينما ينظر الى ذاته ، فيرى الامكانات الهائلة داخله وداخل وجوده الانساني . وحلم الانسان هذا هو يدفعه للثورة والتمرد . ولقد كان الحلم بالعصر الذهبي دائما استعارة لحالة من الكمال الانساني نطمح لها ونحاول تشييدها عالمين مسبقا بأن الكمال لا يمكن ان نصل اليه ، لان الكمال ليس من سمات الوجود الانساني الجدلي ، ولذا كان على الانسان على المستويين الفردي والجماعي ان ينشد الخلاص ، ولكنه خلاص داخل حدود ، اذ انه كان يفصل دائما بين النسبي والمطلق باحثا عن المطلق خارج التاريخ ، ويظل التاريخ هو مجال المحاولة والخطأ . والفكر الثوري يصدر عن رغبة او حلم في الحياة الافضل . ولكن الرؤية الثورية الحق تعترف بأهمية التاريخ وحدوده رغم محاولتها توسيع هذه الحدود . وهي تؤمن بأن الانسان لا يمكنه حل جميع التناقضات لان حل بعض التناقضات ينتج عنه تناقضات اخرى اي ان التاريخ لا نهاية له ، ولن نصل بتاتا الى لحظة السكون التي يتحقق فيها الفردوس الارضي والتي يلتفي فيها الجدل ويتداخل فيها المطلق والنسبي ويصبح التاريخ دائريا مثل الطبيعة . والرؤية الثورية الحق لا تريد « العودة » الى البراءة الاولى والى التكامل المطلق وانما تحاول الوصول اليها جزئيا وتدريجيا من خلال حدود التاريخ ودون اي محاولة لتدميره . وقد لخص ماركس لب الموقف بتعريفه للحرية على انها معرفة قانون الضرورة ، فالوصول للبراءة الاولى او الحرية المطلقة (الطبيعية) مستحيل باعتبار ان قوانين الضرورة الطبيعية تتحكم فينا . ولكن يظل الاقتراب الجزئي ممكنا عن طريق التحكم النسبي في هذه القوانين بوساطة الوعي والتاريخ الانساني ، ويظل الفردوس الذي لا حدود له حلما وليس كيانا ارضيا متحققا ساكنا ازليا صوفيا ، اذ انه لا حرية انسانية خارج القانون والحدود .

ولكن في العصر الحديث في الغـــرب ، وبانتشار الفلسفات البورجوازية بتقديسها للاشياء بدأ يظهـر نوع جديد من الحساسية اسمه « الحساسية الفردوسيـة » هي في صميمـه نوع من الغيبية العلمية • والغيبية العلمية لا تختلف كثيرا عن الغيبية التقليدية في ادعائها الاطلاق لنفسها وفي نفيها للجدل وفي محاولتهـا تصفيته • فالغيبية الدينية التقليدية كانت في جوهرها احتكارا للحقيقة المطلقة النهائية ولسبل الخلاص ، ولذا كان على المؤمن ان يتبع هذه الحقيقة حتى يصل الى الفردوس ، اما الذين كانوا يقاومون هذا الخلاص فقد كانت تفرض عليهم العقيدة فرضا عن طريق العنف • والغيبية العلمية الجديدة تدعي لنفسها احتكار الحقيقة المطلقة ، بل انها تنسب لنفسها القدرة عـــلى تحقيق الفردوس في الارض « الآن وهنا » باشباع كل رغبات البشر ، ذلك ان استسلم الناس لها واسلمـــوا لها القياد ، متبعين آخر الاساليب العلميـــة التي لا يعرفهـا بطبيعة الحال الا العلماء ، وذلك حتى يتسنى الوصول في اسرع وقت من خلال اقصر طريق الى الفردوس الموعود •

وهذا المنطق خطر للغايـــة ، فهو ثوري في مظهره رجعي في جوهره ، فهو في مظهره يحل النجاح العاجـــل في الدنيا محل اي نجاح آجل غيبي في الآخرة ، كما انه يؤكد اهمية السعادة الدنيوية المباشرة • ولكنـه في جوهـــره ينطوي عـــلى رفض للمواضعات الاجتماعية وللحدود التاريخية ، كما انه ينطوي عـــلى رفض لفكرة التناقض التي هي عماد اية رؤية ثورية تاريخية • فالايمان بالتناقض هو ايمان بحيوية الواقع وبمقدرة عقل الانسان الخلاق على التفاعل معه وتخطيه • ويسري هذا المنطق الفردوسي في كثيـــر من الرؤى البورجوازية الفلسفية وفي كل الرؤى العلميـــة الميكانيكية البسيطة التي تفترض ان الانسان كما محضا لا يختلف عن الكائنات الطبيعية الاخرى وانه يعكس بيئته بشكل مباشر وبسيط ، وهي بذلك تنكر ان الانسان كيف مركب فريد او انـه يصنع البيئة التاريخية التي تشكل وجدانه ، وانه بذلك يقف على طرف نقيض من الحيوانات التي تعيش في البيئة الطبيعية وحسب خاضعة لقوانينها الحتمية • والحساسية

الفردوسية تستند الى ميكانزمات الاقتصـــاد الصناعي الرأسمالي الذي يعتمد على فكرة التوازن الميكانيكي الدائم بين العرض والطلب، ولكن مما يسعر من حدتها في الوقت الحالي ظهور المرحلة الاستهلاكية في الرأسمالية التي تفترض وجود انسان بسيط غير مركب عنده كم بسيط من الرغبات يمكن اشباعها ، ولـــــذا بدلا من الحلم بالبراءة الاولى ومحاولة تنفيذها جزئيا في الواقـــع ظهرت الرغبة المجنونة في تحقيق الفردوس الارضي الآن وهنا ، وظهرت الدولة الاستهلاكية المنظمة التي تدعي انها ستحقق كـــل الرغبات وتقضي على كـــل التوترات ، واختفى مفهوم الممارسة الانسانية الجماعيـة المسترشدة بحكمة التاريخ الواعية والخاضعة لقوانين المحاولة والخطأ ٠

واعتقد ان ظهور العالم السوفييتي زخاروف يدل على ان التيار الفردوسي الرجعي ليس بمنأى عن الدولة الاشتراكية ، فهذا العالم السوفييتي يطالب بتخطي الخلافـات الايديولوجية وبتوحيد جهود علماء العالم لاسعاد البشر كما لو كان علماء العالم عندهم الصيغة السحرية الفردوسية القادرة على شفاء كـل الامراض متناسين ان العلماء قد يعالجون تفضيلات الوجود المادي (الطبيعي) للانسان ، اما وجوده التاريخي المرتبط بقوانيـــن التاريـــخ وبقضية العدالة والتنظيم الاجتماعي فهذا ما لا يمكن للعلم معالجته ٠ ان العلم يتعامل مع عالم الطبيعة وحسب ، وحينما يتعامل مع الانسان فانه يتعامل معه على انه كائن طبيعي ، اما الانسان ككيان تاريخي مركب فهذا هو مجال الفلسفة والايديولوجية ٠

وهذا التصور الفردوسي للانسان ليس حكـــرا على فلاسفة الرأسمالية والتكنولوجيا وانما هــو جزء من تصورات المواطنين في الحضارات الصناعية في الغرب ، وقد عبر هذا المفهوم عن نفسه في فكرة «التقدم» السريع والدائم نحـــو الفردوس العلمي المنظم الذي يعيش فيه الانسان كالاطفال في تناسق تام مع الطبيعـة وكأنه آدم قبل السقوط وقبل ان يكتسب معرفـة الخير والشر ٠ فالتقدم العلمي اصبح هدفا في حد ذاته بغض النظر عن العائد المعرفي او الانساني له وبغض النظر عن مقدار البؤس او السعادة التي يجلبها للبشر ،

واصبحت مضاعفة الانتاج امرا مرغوبا فيه دون اي اعتبار لحاجات الانسان الحقيقية (كما ظهرت عبـــر التاريخ) ودون اي احترام لامكانيات البيئة الطبيعيـــة ، اي ان هدف الانتاج لـــم يعد اشباع الرغبات الانسانية وانما اصبح هو ذاته الهدف والمثل الاعلى وهذا هو قمة الاغتراب· وتدور عجلة المصانع في سرعة خرافية لتنتجسلعا واشياء لا يريدها الانسان ولكنها في دورانها تلوث البيئة بالاحماض والعادم الصناعي فتدمر الانسان من الخارج ، ثـم تغرقه في السلع والتفاصيل وتدمره من الداخل ·

وقد كان منطق التقدم الدائم وبأي ثمن هو المنطق السائد حتى عهد قريب في العالم الغربي ، بل وفي العالم بأسره · ولكن يبدو ان مشكلة البيئة في المجتمعات الصناعية قد بدأت في التفاقم، ولذا لاول مرة في تاريخ التقدم في الغرب يدخـــل عنصر كيفـــي عليها وبدأ المفكرون بل والمواطنون العاديون يتحدثون عن « تكاليف » التقدم وعن تلوث البيئة ، وهل مجرد « انتاج » سلعـــة ما هو « تقدم » ، ام ان التقدم والتخلف يقاسان بمقاييس تقع خارج نطاق الاشياء والكم وانه لا يمكن استخلاص هذه المقاييس الا من ظاهـرة الانسان نفسه ومن بيئته التاريخية ذاتها ؟ واذا كان الحديث عن تلوث البيئة (الطبيعة الخارجية) اصبح امرا شائعا في الغـــرب ، فان الحديث عن تدمير الانسان (الطبيعة البشرية) سيصبح هو الآخـر امرا مطروحا عما قريب لا محالة ·

وفي اثناء اقامتي في الولايات المتحـدة (١٩٦٣ ـ ١٩٦٩ ثم ١٩٧١) لاحظت ان هـــذا التيـــار الفردوسي المعـــادي للتاريخ والايديولوجيا الملتزم بفكـرة التقـــدم العلمي بأي ثمن ، هو البناء الكامن وراء كثير من الافكار سواء بين اعضاء اليمين او اليسار · وقد وجدت انه قد يكون من المفيد اناسجل انطباعاتيواكتب دراساتي منطلقا من ايماني بالانسان على انه كائن طبيعي ـ تاريخي : كائن يحلم دائما بالفردوس لكنـــــه يعيش في التاريخ · وقد لاحظت ان الانسان في الولايات المتحدة يهرب من التاريخ ليعيش في الفردوس ، ولكن ـ وهذا هو ما خبرتـــه ـ من يهرب مـــن التاريخ ليعيش في

الفردوس ينتهي بـــه الامر الى الجحيـم ، فالانسان الذي يهرب من معرفة قانون الضرورة والذي يرفض فكرة الحدود التاريخية ليمرح في فردوس اللاحدود سينتهي به الامر في عالم الصدفة العبثي الذي لا يحكمه قانون ـ والجحيم هو الصدفة والعبث ـ تماما مثل انسان روسو القرح الذي يتحول بالضرورة الى انسان داروين الذي تأكله الذئاب من الحيوانات الطبيعية او من البشر الطبيعيين • ان الانسان وجود جدلي : جسد وروح « واعمل لدنياك (وجسدك) كأنك تعيش ابدا ، واعمل لآخرتك (وروحك) كأنك تمـــوت غدا » • والمجتمعات الاستهلاكية التي تظن انها قادرة على اشباع جميع رغبات الانسان والتي تعرف هذه الرغبات بشكل كمي ، مسقطة احتياجاته الروحية من الاعتبار ، اقول هذه المجتمعات تتجاهل ازدواجية الانسان وتسبب البؤس للبشر •

وقد كتبت هذه الدراسات وسجلت هذه الانطباعات حتى انقل تجربتي للقارىء العربي • ويلاحـــظ انني ركزت بعض الشيء على تشابه التجربة الامريكية بالتجربة الاسرائيلية ، كما تعرضت لتاريخ ووجود الاقلية اليهودية في الولايات المتحدة • وقد شرحت في عدة دراسات في هذا الكتاب اسباب تركيـــزي على هذا الموضوع لكنني يمكنني ان اضيف هنا ان الديانة اليهوديـــة ديانة حلولية تخلط بين المطلق والنسبي ولا تركز على فكرة البعث في عـــالم آخر ، وتزخر بأفكار مثل عودة الماشيح واخرة الايـــام ، وهـــي افكار تؤكد فكرة الفردوس الارضي ، اقول ان اليهودية بهـــذا تنمي في تابعيها هذه الحساسية وتجلعهم مؤهلين اكثر من غيرهم لان يتقبلوا قيم المجتمعات الاستهلاكية • وانا لم اعرض لهذا الجانب من بناء اليهودية الفكري في الدراسة الحالية لان هذا ليس مجاله ، واكتفيت بعرض نتائجه • (ويمكن للقارىء الذي يـــود الالمام بالموضوع ان يعود **لموسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية**) •

وارجـــو الا يفهم مـــــن دراستي انني انكر القيمة الانسانية والايجابية للحضارة الغربية فانا اول من يعترف بفضل هذه الحضارة على العالم ككـــل وعلي انا كفرد • ولكنني اجتزأت خاصية سلبية

اساسية في الحضارة الامريكية (والحضـــارة الاستهلاكية عامة) وهي معاداتها للتاريخ · وهذا الاجتزاء والتركيز على عنصر واحد دون سواه ضرورة دراسية وتكتيك منهجي مشروع ، خاصة اذا كان هذا العنصر له دلالة ومركزية بالنسبة للظاهرة ذاتها واذا كان له دلالة عميقة بالنسبة للدراسة في الوقت ذاته ·

ولقد قمت بمقارنة هـــذا العنصـــر في الحضارة الامريكية بنقيضة في الحضارة العربيــــة لا لافاضل بين الحضارتين وانما لاوضح للقارىء ما اعني ، وحتى تترسخ في وجدانـــه نقط الخلاف الرئيسية بين نمطنا الحضاري والنمط الحضاري السائد في الغرب · ولعل احساسنا بالاختلاف الذي قد يشعرنا بشيء من التفوق الانساني لا بد وان يشعرنا ايضا بكثير مـن النقص في حضارتنا التي يغلها التاريخ وتقيدها التقاليد، والتي هي احوج ما تكون للحلم بالفردوس وبالبراءة الاولى حتى يشعر الانسان بجسده بعض الشيء ويشعر بنفسه ككيان منفصل · فاذا كانت الحضارة الامريكية تحول الفرد الى جزيرة « فردوسية منغلقة على ذاتها ، فالحضارة العربية تحوله الى قطرة «تاريخية» في المجتمع ليس لها حدود على الاطلاق · وهذا ما يمكننا ان نتعلمه من امريكا شريطة الا نفقد هويتنا ·

وارجو الا يشتم من هذا الكتاب انني معاد للعلم والتكنولوجيا، فأنا لست بهذه السذاجة ، وأنا من المؤمنين انه لا يمكن ان تقوم قائمة لاي حضارة عربية معاصرة الا بأخذ مقولـــة العلم والتكنولوجيا في الاعتبار ، واي بناء فكري يتجاهل هذا العنصر هو بناء في سذاجة النسق الديني التقليدي الذي يحـــاول ان يتجاهل الجانب الطبيعي للانسان ، وهو ايضا في سذاجــــة النسق العلمي التجريبي الذي يحاول ان يتجاهل الجانب التاريخي او الروحي للبشر · ولذلك فأنا أرى انه لا بد من العلم ، ولكن في الوقت ذاته لا بـــد وان يقف العلم عند حدوده لا يدعي لنفسه مالا يملك · فزخاروف غير قادر على حل مشاكل مواجهة العالم الثالث للامبريالية عن طريق اختراع صنف جديد من الصابون او عن طريـــق ارسال انسان للقمر او عن طريق التوصل لاكثر المعادلات الرياضية تعقدا ، اي اننا يجب الا نفاضل بين العقل والبطن بل يجب الا نقارن بينهما فهما ينتميان الى مجالين

منفصلين رغم اتصالهما .

وقد يقال ان مثل هذه الدعوة في « المرحلة الراهنة » فيها خطورة لاننا في مجتمع متخلف احوج ما يكون للعلم والتكنولوجيا . وفي هذا المنطق شيء من الصدق ، ولكن مع هذا لا بد وان نستفيد من اخطاء الآخرين وقصورهم ، ونحن امامنا فرصة ذهبية في عالمنا العربي ولا داعي لتكرار اخطاء الآخرين ، فمن يرتكب خطأ ما فهو بطل مأسوي ، اما من يرتكب اخطاء الآخرين فهو مهرّج . لا داعي اذن للحديث عن العلم بشكل مجرد كما لو كان هو الذي سيحل مشاكلنا ، لانه لن يفعل ، وانما الذي سيحلها هو العثور على الصيغة الملائمة لنا ، والتي عن طريقها سندخل العلم والتكنولوجيا على العالم العربي بتراثه التاريخي الانساني الرائع ، دون ان نضحي بهذا التاريخ ونلقي به في البحر كما يطلب منا البعض .

بهذه الافكار عدت من الولايات المتحدة وكتبت هذه الانطباعات والدراسات .

---

* نشرت الثلاثة اجزاء الاولى من البابين الاول والثاني في جريدة الاهرام في صيف ١٩٧٣ ونشر الجزء الرابع من الباب الثاني في مجلة الطليعة المصرية . اما الجزء الثاني من الباب الثالث فقد نشر بالانجليزية في كتاب

Malcolm, The Man and His Work (New York, ed. Callier 1972) .

الباب الاول

البرجماتية الامريكية والبرجماتية التلمودية

١ ـ صهيون الجديدة في الولايات المتحدة واسرائيل

لا يملك الدارس للوجدان الامريكي والصهيوني الا ان يلاحظ التشابه والتطابق بينهما على الرغم مـــن ان الحضارة الامريكية لا يزيد عمرها على بضعـــــة قرون بينما تتباهى الحضارة اليهودية الاسرائيلية بتاريخ قديم قدم الانسان · ولعل اهم صفات التشابه بين الوجدانيين ان كليمها يرفض التاريخ بعناد واصرار،او على الاقل يحوله الى اسطورة متناهية في البساطة ·وقد بدأ التاريخ الامريكي حينما استقل البيوريتانيون سفنهم وهاجروا من اوروبا الى العالم الجديد او ارض الميعاد هربا من المشاكل التي اثارها « التاريخ الاوروبي »· والبيوريتانيون او المتطهرون هم لفيف من البروتستانت المتطرفين الذين وجدوا انه من العسير عليهم البقاء داخل الكنيسة الانكليزية لانها ــ حسب تصورهـــــم ــ لم تبتعد بمــــا فيه الكفاية عن النمط الكاثوليكي في العبادة بما فيه من طقوس وتماثيل وزخارف ، وطالبوا « بتطهير » العبادة المسيحية من كل هذه العناصـــر الدخيلة التي لم يأت لها ذكر في العهد القديم او الجــــديد · ان « العودة » للبساطة الاولى كانت الهدف الاسمى للمتطهرين الذين حاولوا تشييد مدينتهم الفاضلة (او صهيون الجديدة كمــــــا كانوا يسمونها) حسب المثل والقواعد التي وضعها وطبقها المسيحيون الاول (ولم لا ، اليسوا هم النخبة الصالحة التي ورثت رؤى العهد القديم والجديـــد ؟) · ولذا يمكننا القول ان الوجدان البيوريتاني يرفض التاريخ المسيحي كله ، بل يرفض اية رؤية تاريخية على الاطلاق لان العودة «للبساطة الاولى» (وهي نقطة سكون ميتافيزيقية غير متطـــورة او متغيرة) تصبح واجب كل فرد في كل زمان ومكان ·

ولا يزال اثر هذا التصور البيوريتاني واضحـــا على الوجدان الامريكي ، فالرفض الكامل للتاريخ يظهر بصورة متكررة في الاعمال الادبية والفنية الامريكية مثل قصائد اميلي ديكنسون واشعار والت ويتمان شاعر الديمقراطية الامريكية في القرن التاسع عشر الذي كان

يرى ان كل تاريخ العالم لم يكن سوى هراء ووهم وانه كان مجرد تمهيد لظهور امريكا ، وان كل مآسي التاريـــخ تكتسب معنى وبعدا جديدا وتصبح ذات دلالة حينما يصل تاريخ البشرية الى « نهايته » الامريكية السعيدة ، التي هي في الوقت ذاته نقطة البداية الحقيقية للحياة الفردوسية الامريكية ، ولهذا السبب يطلب ويتمان في شعره من المهاجرين الاوربيين او المواطنين الامريكيين الجدد ان يلقوا من على كاهلهم عبء الحضـارة الاوربيـــة ليبدأوا من جديد من نقطة الصفر ، في الارض العذراء الجديـدة ، وفي الفـــردوس الارضي الامريكي ·

وهذا التصور الفردوسي لامريكا ليس قاصرا على الادبـــاء والشعراء وحدهم ، بل انه فكرة لها فعاليتها في الحيـاة اليوميـــة الامريكية ، ففي برامـــج التلفيزيون الامريكي كثيـــرا ما نجد ان الشخصيات المركبة الشريرة تحمل اسما اوروبيا واضحا مثل فابريزي او بلجارد اما الشخصيات البريئة الطيبة فهي عادة تحمـل اسمـا انجلوساكسونيا مثل جون او سميث (وحبذا لو كان جون سميث) ·

والرفض البيوريتاني الامريكي للتاريخ الاوربي يقابله الرفض الصهيوني الاسرائيلي للتاريخ اليهودي في الدياسبورا (الشتات) · فالصهاينة يرون ان الوجود اليهودي في اي حضارة غير يهوديـــة ظاهرة شاذة وعلامة على المرض الروحي ، ولذلك فهم ايضا يعودون «للبساطة الاولى» ايام كان اليهود يعيشون ككيان قومي مستقل فريد لم تدخل عليه الشوائب (التاريخيـة) غيـر اليهوديـة المختلفـة · والصهاينة يرون ان التاريخ اليهودي يؤدي الى النهاية الاسرائيلية السعيدة ، وفي الفردوس اليهودي الجديد يحمل كل المواطنين اسماء عبرانية لها رنين خاص (على عكس يهود الحركة الاصلاحية في اوروبا الذين تخلوا عن اسمائهم العبرانية وسموا انفسهم باسماء اوروبية لا تميزهم عن الشعوب التي ينتمون اليها) · ان اسطورة العالم الجديد الذي يتحلى بالبساطة والبراءة والذي هـو اقـــرب الى الفردوس الارضي تسيطر على الوجدانين الامريكي والصهيوني ·

ولعل هذا يفسر نظرة كثير مـــن الصهاينة والاسرائيليين الى دولة اسرائيل عل ىانها كيان ميتافيزيقي يحقق نبوآت العهد القديم ،

وبالتالي فهي لا علاقة لها بالشرق الاوسط او الادنى او الاقصى ، وكما قال احد محرري **النيويورك تايمز** ان على الانسان ان يستوعب سفر اشعيا استيعابا كاملا ليفهم سياسة اسرائيل الخارجية! فمفهوم « ارتس اسرائيل » التوسعي او «اسرائيل العظمى» التي تضم الارض الواقعة بين نهر مصر والفرات هو مفهوم ديني (او قوس اذا شئت) لا علاقة له بالزمان او المكان ·

ولم يختلف فهم البيوريتان لمدينتهم الفاضلة كثيرا عن فهم الصهاينة لاسرائيل فهم كانوا مقتنعين تمام الاقتناع انهم انما هاجروا من اوربا للعالم الجديدلينشئوا«مدينة على التل» تنظر اليها كل الامم وتحاكي افعالها وبذا يعم الخيرويأتي الخلاص·وكان المفهوم البيوريتاني للتاريخ مفهوما دينيا ضيقا يرى في كل شيء علامة مرسلة من الله يستشهد بها على شيء ما ، وكما هو الحال مع الاسرائيليين نجد ان البيوريتانيين استخدموا هذه «العلامات» الربانية لتبرير كل اعمالهم العدوانية من ابادة للهنود الحمر واحتلال لاراضي الغير· وقد استمر هذا التزاوج بين الاحلام الدينية والاحلام القومية التوسعية حتى القرن التاسع عشر ، فوالت ويتمان كان يؤمن بالفتوحات التوسعية الامريكية (في المكسيك وغيرها) بنفس ايمان المسيحي « بالسر الالهي » على حد قوله ، كما كان يحلم بامريكا العظمى التي تمتد من كندا الى كوبا ومن القطب الى خط الاستواء ، وكان يسمي حلمه التوسعي هذا بانه « رؤيا عذبة » ، اما اوسوليفان المفكر الامريكي التوسعي فقد كان يسمي هذا التوسع بأنه « القدر الجلي » ، وهو قدر لانه مكتوب على الامريكيين ذوي الرسالة الخالدة وهو جلي لانه واضح للعيان ولا جدل فيه · بل انه حتى الان لا تعدم ان تجد من يستخدم هذه النغمة الدينية التبريرية مثل الكاردينال سبلمان الذي كان يسمي الجنود الامريكيين في فيتنام « جنود المسيح » ، ومثل الجنرال الامريكي الذي دمر قرية فيتنامية «كي ينقذها» · ان الجنرال الامريكي مثل الجنرال الاسرائيلي عنده احساس بانه صاحب رسالة خاصة وانه قد « اختير » لتنفيذها ، ولذلك فهو يقوم بالتخريب والتدمير والفتح والغزو والنهب في منتهى البراءة ودون ان يهتز له جفن ·

وعقلية الريادة تسيطر على كل من الصهاينـة والامريكيين ، فالبيوريتانيون « اكتشفوا » امريكا ثم انتشروا فيها عن طريق انشاء مستعمرات ذات طابع زراعي عسكري • والمستوطنون الصهاينة هم الاخرون « اكتشفوا » فلسطين واحتلوها بنفس الطريقة ، وعقليـــة الرائد عقلية عملية تفضل الفعل على الفكر ، والنتائج العملية علــى الاعتبارات الخلقية ، انها عقلية الكاوبوي (وهو شخصية تعشقهـا الجماهير الاسرائيلية التيتدمن الافلام السينمائية منجميع الانواع): الكاوبوي الذي ينتصر لانه يطلق مسدسه في الوقت المناسب وقبـل خصمه بثوان قليلة ، ثم يمسح فوهة مسدسه وهو يقبل عشيقته حتى لا يضيع وقته فيما لا يفيد ، وقمة الفعل هو دائما ذبح الخصم «انـا اذبح (خصومي) لا كروسي يهودي او فرنسي يهودي بـل كيهودي يهودي، هذا هو مناي» ، (كما يقول احد ابطال القصص الاسرائيلية) •

ولعل نقطة التشابه الاساسيـــة بيـــن الوجدانين الامريكي والصهيوني الاسرائيلي هو العنف العنصري ، فرفض التاريخ نتـج عنه تعام عن الواقع وتجاهل لكل تفاصيله ، ولذلك وقع البيوريتانيون والصهاينة في تناقضات رؤياهم المثالية القبيحة ، رؤيا عالم جديـد بريء بسيط لا يمكن ان يشيد الا عن طريق العنف والابادة « ابــادة الهنود الحمـر والفلسطينين » ، الفردوس والجحيم في آن واحد •

ولعل في هذه المقطوعة الوصفية مفتاح لفهم نقط التلاقي بين الوجدانين الصهيوني والامريكي • « كان الرجال يمسكون بالمحراث باحدى ايديهم والبندقية بالاخرى ، وكانوا يعدون من المحظوظين ان لم يتلف عدوهم المتوحش نتاج عملهم الشاق اما في الحقـول او في مخزن الغلال» •

في هذه المقطوعة تختلط الصور الفردوسية وصور الاخصاب بالصور الجهنمية وصور الدمار ، فالرجال يحرثون الحقول وينقلون نتاج عملهم الى مخازن الغلال ، ولكن عدوهم المتـوحش يقف لهــم بالمرصاد كأنه الثعبان في الجنة يدمر الثمار والحصاد لذا يمتـزج المحراث بالسيف والزراعة بالحـرب ، وهــذا يذكرنـا بالكيبـوتس وبمؤسسات اسرائيل الزراعية العسكرية • ولكن المقطوعة السابقة

ليست وصفا للكيبوتس بل هي مقتبسة من القصة المعنونة « دفن روجر ملفن» للكاتب الامريكي ناثانيل هورثون (من كتاب القرن التاسع عشر الامريكيين) وهي قصة تعالج حياة المستوطنين الامريكيين الاول. وليس من قبيل المصادفة ان شعار «ارض بلا شعب وشعب بلا ارض» قد تبناه كل من البيوريتانيين والصهاينة ، وليس من قبيل المصادفة ايضا ان المجتمعين الاسرائيلي والامريكي من اكثر المجتمعات عنصرية ان كان من ناحية الواقع الاقتصادي او البنية الحضارية . وقد يكون مما له دلالته وطرافته ، ان مؤسسي الجمهورية الامريكية بعد اعلان الاستقلال قد فكروا في جعل اللغة العبرية لغة الدولة الرسمية باعتبار ان الجمهورية الوليدة هي صهيون الجديدة، ولكن الاعتبارات العملية جعلتهم يعدلون عن تهيؤاتهم .

وقد يقول البعض ان مثل هذه المقارنة قد تكون طريفة ولكنها لا يمكن ان تؤخذ على محمل الجد وذلك بسبب الفروق الاقتصادية والجغرافية الواضحة بين البلدين ، وفي هذا الشيء من الصدق خاصة اذا حاولنا الوصول الى نتائج تفصيلية استنادا الى هذا التشابه الذي لاحظناه بين المجتمعين . ولكن في الوقت ذاته يجب الا نهمل الدروس العامة التي يمكن ان نستخلصها من دراستنا لتطور الحضارة الامريكية ، فمن المعروف ان هذه الحضارة لا تزال متأثرة الى حد ما بالاوهام والاساطير والرؤى البيوريتانية على الرغم من مرور عدة قرون وعلى الرغم من التحولات العديدة التي طرأت على بيئة المجتمع الاقتصادية . وهناك ما يشبه الاجماع بين مؤرخي الحضارة الامريكية ، ومن بينهم عميدهم بيري ميللر ، على ان دراسة الحضارة الامريكية دون استيعاب الوجدان البيوريتاني امر غير مجد ولا طائل من ورائه لانه لا يمكن الاحاطة احاطة كاملة بجوهر هذه الحضارة وروحها دون الرجوع للاطار الاول الذي صاغه البيوريتانيون . اذا كان الامر كذلك يمكننا ان نخلص الى ان الافكار الاسطورية الزائفة لها تأثير عميق على الوجدان الانساني وعلى سلوك البشر ، وان هذه الافكار رغم زيفها قد تعمر طويلا وقد تأخذ اشكالا عديدة مما يدعونا الى عدم التفاؤل بخصوص الجماهير الاسرائيلية ضحية الاساطير الصهيونية ، فهي ستبقى اسيرة هذه الاساطير

والرؤى بعض الوقت · ولذايجب الا نتوقع ان ازمة اقتصادية اواثنتين او ان انتصارا فدائيا او اثنين سيزلزلان كيانها ، بل ينبغي علينا ان نتوقع خوض حرب طويلة ومريرة عسكرية او حضارية وذلك قبل ان يتحرر الانسان الاسرائيلي من اوهامه الصهيونية الطوباوية وقبل ان يرضى بان يعيش في دولة علمانية غير عنصرية ·

وعلى المستوى الاعلامي يجب ان نضع في اعتبارنا انه من اليسير على الشعب الامريكي فهم العقلية الاسرائيلية والتعاطف مع الشعب الاسرائيلي وقيمه اللااخلاقية منعنصرية وعنفسنظرا للتشابه بين وجدان الشعبين · وهذه النتيجة ليست فيها اية دعوة لليأس ، وانما هي مجرد تعرف على عنصر موجود بالفعل ، ان لم نعترف به هزمنا وافشل خططنا اما اعترافنا به فيساعدنا على معرفة حدود ومدى اي حملة اعلامية نقوم بها · ان الشعب الامريكي وقادته الذين تسيطر عليهم عقلية الرائد والكابوي لا يفهمون سوى منطق القوة ولا يحسون الا بالنتائج العملية المباشرة ، ولذلك فالاعلام الذي لا تسنده قوة او وضع قائم بالفعل ما هو الا دعوة للاخلاق الحميدة لا ينصت لها الا ذوو النوايا الطيبة ، وحتى هؤلاء سينسونها وينسوننا بعد دقائق ·

اما انابيب البترول التي تحمل الارباح الطائلة لارض الميعاد الامريكية فهي لا تنسى ابدا في عالم الحق والبترول والفضيلة ·

٢ ـ فابريكة الانسان الجديد

من نقط التشابه الرئيسية بين المجتمعين الاسرائيلي والامريكي ان كليهما **مجتمع استيطاني** يتكون من المهاجرين الذين عليهم ان يطرحوا عن انفسهم هويتهم القديمة ليكتسبوا هوية قومية جديدة بمجرد وصولهم الى نيويورك او حيفا · واكتساب الهوية الجديدة هو مشكلة المشاكل بالنسبة لكل المجتمعات الاستيطانية الرافضة للتاريخ وللتراث والتي تفبرك « تراثا جديدا » يدور حول اسطورة بسيطة يؤمن بها « الانسان الجديد » · فأمريكا استحدثت اسطورة « آدم الجديد الديمقراطي » الذي يأتي الى الارض او الجنة العذراء ليقيم

فيها ويستلهم كل ما في التراث العالمي من ايجابيات وينفتح على كل الحضارات · والصهاينة فبركوا اسطورة « اليهـودي الخالص » المتفتح على الحضارة اليهودية الخالصة والذي يهاجـر الى ارض الميعاد اليهودية ليحارب في جيش يهودي ويزرع في حقل يهودي ويقرأ في كتاب يهودي (وربما يخب على الطريقة اليهودية ، ويقتل بالطريقة نفسها) ·

ولكن هل نجحت الفابريكـة الحضارية في كـل من اسرائيل وامريكا ؟ ومرة اخرى يمكننا ان نستخلص مـن دراستنـا للوضـع الحضاري في امريكا الدروس والعبر التي قـد تهـدي خطانـا في دراستنا للمجتمع الاسرائيلي · ونظرة واحدة على المشهد الامريكي وعلى اسطورة بوتقة الصهر الحضارية ، حيث ينصهر المهاجـرون الجدد في كل امريكي واحد جديد ، نظرة واحدة تبين ان البوتقة لـم تحقق المتوقع منها ·

وقد ظلت هذه الاسطورة مسيطرة على الوجدان الامريكي حتى عهد قريب طالما كانت السيادة « للواسب » (اختصار وايت انجلو ساكسون بروتستانت» اي بروتستانتي ابيض يتحدر من اصل انجلو ـ ساكسوني) ، ولكن حينما بدأت الاقليات الاخـرى في التملمـل انهارت الاسطورة كلية · ويمكن القول ان الاسطورة لم تكن ابـدا حقيقة اقتصادية اجتماعية ، وانما كانت مفهوما له فعالية عاطفيـة قوية ، ولكن حتى هذه الفعالية العاطفية قد تلاشت الى حد كبير في الآونة الاخيرة · وقد بدأت الاسطورة في التصدع العلني بظهور دولة اسرائيل وانحسار التيار اليهودي الاصلاحي في امريكا ، فحينمـا بدأت الحركة الصهيونية في اواخر القرن التاسع عشر لاقت مناوأة عنيفة من اليهود الامريكيين الذين كانت تسيطر عليهم آنئذ اليهودية الاصلاحية المطالبة بالفصل بين القومية والدين ، وبتحويل الـولاء اليهودي الى ولاء ديني خالص · ولكن بازدياد الهجرة من شـرق اوربا (وجماهير شرق اوربا اليهودية كانت ذات اصول بورجوازية صغيرة ونشأت في مجتمعات متخلفة حضاريا كما كانت تسيطـر عليها تيارات دينية رجعية محافظة) · بازدياد هذه الهجرة قويت

شوكة الصهيونية واشتد عودها ووجدت مرتعا خصبا لها بين صفوف تلك الجماهير ، ومن ثم بدأت محاصرتها للتيار الاصلاحي الذي انتهى به الامر الى تأييد ظهور اسرائيل تأييدا فاترا في بداية الامر ثم تأييدا مهووسا محموما على الطريقة الصهيونية التقليدية التي لا تعرف من الالوان الا الابيض والاسود ولا ترى اي ظلال او ابعاد خفية ·

وبعد سقوط الاقلية اليهودية الامريكية فيقبضة الفكر الصهيوني عزف اليهود الامريكيون نغمة جديدة تدور حول « فرادة الشخصية اليهودية » و «استقلالها» وحول وحدة الوجود اليهودي · واتضح هذا في التعليم اليهودي فأصبحت المناهج الدراسية تؤكد عزلة اليهود واضطهادهم وتبين عنصر الاستمرار في التاريخ اليهودي مما يحول الوجود اليهودي في «الدياسبورا» الى وجود هامشي ، كما بينت هذه المناهج اهمية « حلم العودة » باعتباره القوة الدافعة وراء التاريخ اليهودي كله وباعتبار اسرائيل تتويجا لهذا التاريخ ، اي ان التعليم اليهودي في امريكا كان يحاول تقوية الوعي اليهودي على حساب الوعي الامريكي ، بل ان ازدواج الولاء نفسه وجد من يدافع عنه بين الصهاينة على انه مسألة طبيعية ومنطقية للغاية (وبالطبع كان هناك دائما اصوات يهودية معارضة مثل الناقد الادبي ليونيل تريلنج والعالم النفسي الشهير اريك فروم والحاخام المر برجر ، ولكنها اصوات خافتة غير مسموعة ، تماما مثل اصوات المفكرين اليهود المنتمين لليسار الجديد والذين يعارضون الوجود الاسرائيلي) ·

وحينما ظهرت حركات السود التحررية في الخمسينات اخذت في بداية الامر خطا ليبراليا يتفق مع اسطورة البوتقة ، فطالب الزنوج بالمساواة الاقتصادية والسياسية كما حاولوا الاندماج في المجتمع الامريكي لان التصور السائد آنذاك انه « مجرد انسان جلده اسود ، لا يختلف في وعيه ولا في وجدانه عن «الواسب» ولكن في منتصف الستينات اعلنت جماعة سنك السوداء برنامجا ثوريا جديدا يرفض الاندماج كمثل اعلى ويطالب بالمساواة الاقتصادية والانفصال الروحي والحضاري في نفس الوقت ، وظهرت عبارات وشعارات

جديدة مثل «القوة السوداء» او «السواد جميل» واختفى مصطلح نجرو (زنجي) ليحل محله مصطلحات جديدة مثل الافروامريكان (الافريقي ـ الامريكي) او مجرد بلاك (اسود)، وهي مصطلحات تؤكد ازدواج الولاء ، وان انتماء السود الحضاري ليس انتماء امريكيا خالصا ·واخذت الامور في التطور واعيدت كتابة تاريخ امريكا من وجهة نظر «سوداء» ، وشاهدت الولايات المتحدة حركة لاحياء التراث الفكري والادبي لامريكا السوداء ولاكتشاف ابطال سود من المناهضين للاندماج · وهذا الضرب من التفكير ينحو منحى «قوميا» يذكرنا بالاتجاه الصهيوني ، فهو يدور حول فكرة ان الرجل الاسود رجل فريد له وعي مستقل كما انه يستند الى الايمان بوحدة الوجود الافريقي · ولكن يجب ان نتذكر ان «عودة» الافروامريكان عودة روحية وحسب لانه يتقبل وجوده كعضو في المجتمع الامريكي ويحاول ان ينمي ذاته الفريدة داخل هذا المجتمع وليس خارجه ، على عكس التصور الصهيوني الذي يرفض اي وجود يهودي خارج ارض الميعاد ·

ولان هذا التفكير الاسود الجديد ينحو منحى قوميا ، كان لا بد وان يصطدم بالفكر الصهيوني في الولايات المتحدة ، فالصهاينة يرون ان الفرادة حكر على اليهود دون الاغيار ، وان الاضطهاد الدائم والحقيقي موجه نحو اليهود وحدهم ، هذا على الرغم من النجاح العملي والحضاري المذهل الذي احرزته الاقلية اليهودية في الولايات المتحدة · وهذا يفسر لماذا تؤيد المنظمات الصهيونية واليهودية الجماعات الاندماجية بين السود،ولماذا تمدها بالمعونة المالية وتحجبها عن الجماعات الثورية الامر الذي يسعر العداوة بين اليهود والثوريين السود · اضف الى هذا ان مالكي المحلات والمنازل في الاحياء السوداء عادة ما يكونون من اليهود لان معظم هذه الاحياء كانت في الماضي «جيتو» يهودي للمهاجرين اليهود الفقراء الذين فتح الله عليهم في ارض الميعاد الامريكية الحقيقية ، فانتقلوا خارج الجيتو وان ظلوا محتفظين بمحالهم التجارية ومنازلهم الخربة البالية التي يستأجرها السود نظير اجور عالية لانه ليس من السهل عليهم السكنى في اي مكان اخر · ومما يساعد على تعميق هذا الاتجاه ان الرأسمال

اليهودي بتراثه الجيتوي الطويل ، واليهـود المعاصريـن بعقليتهم وخبرتهم الجيتوية ينجذبون الى الاعمال والاستثمارات الهامشية في المجتمع ، وهي على اية حال الاعمال والاستثمارات الوحيدة المتاحة امامهم في مجتمع مستقر ومتكامل اقتصاديا مثل المجتمع الامريكي٠

لكل هذه الاسباب اصبح اليهودي هو العدو المباشر المـرئي للجماهير السوداء المضطهدة فاضطرمت حدة الصراع بيـن اهـم اقليتين عنصريتين في الولايات المتحدة وزاد من وعيهما بذاتهمـا القومية ، الامر الذي نتج عنه التصدع الكامل للبوتقة اياها ومن هنا سرى الوعي العرقي بين الاقليات القومية الاخرى سريان النار في الهشيم فتجد الان جماعات للدفاع عن حقوق الايطاليين (ويـرأس الممثل فرانك سيناترا احداها) مهمتهـا الدفـاع عـن الامريكييـن المتحدرين من اصل ايطالي ومنع اي محاولة للتشهير بهم كجماعـة قومية او تشويه صورتهم ، وقد نجحت بالفعل هذه الجماعات في ان تضع حدا لتصوير المواطن الامريكي ـ الايطالي في التلفـزيـون الامريكي على انه شخص تافه لا ضمير له يهتم بمظهره اكثر مـن اللازم ، وينتمي عادة الى تنظيم المافيا الاجرامي ٠ والايرلنديون هم الاخرون بدأوا في تجميع قواهم لتأييد جيش التحرير الايرلندي ، وقد قابلت احد زملائي السابقين في الجامعة فوجدته متحمسا بشكـل مضحك لهذا الجيش يرسل بكل مدخراته لـه ، ويـدرس التـراث الايرلندي واللغة الايرلندية (الجاليك) بحماس يذكـرني بحمـاس الصهاينة تجاه كل ما هو يهودي ، ويتحدث باحتقار شديد عن الكتاب والشعراء الامريكيين ـ اقول بشكل مضحك لان صديقي هذا لم يكن عنده اي اهتمام سياسي منذ ثلاث سنوات ، كما انه لم يكـن حتـى يفكر في زيارة ارض ميعاده الايرلندية ٠

حينما ذهبت الى نيويورك عام ١٩٧١ لم اقابل بشرا او افرادا، كما لم اجد بوتقة او اتونا بـل قابلت جماعات قومية متنافرة او مواطنين حددت هويتهم بشكل قومي ضيق ـ فهم اما سود او يهود او ايرلنديون ، لقد قابلت افرادا يبذلون قصارى جهدهم في تحديـد ذاتهم خارج الدائرة الحضارية الامريكية ، ويرفضون فكرة بوتقـة

الصهر التي يجلس فيها الواسب وحيدا ولكنه مع ذلك يمسك بكل حبال الاقتصاد الامريكي يصفر في سعادة واضحة على الرغم من كل احزانه القومية والحضارية ، فهو لا يزال يمتلك كل الاحتكارات الامريكية الاساسية كما انه لا يزال المورد الرئيسي المعتمد لكل رؤساء الجمهورية ٠

وقد شاهدت عددا من الافلام الامريكية الجديدة التي تلاحظ فيها هذه العنصرية الواضحة والتي تؤكد انتماء شخصياتها القومي، فهناك بالطبع الافلام التي تؤكد فرادة اليهود مثل فيلم « عازف على السطوح » الذي يعالج الدائرتين : دائرة اليهود الصغيرة وهي هذه المرة جيتو ريفي في روسيا تحيطها الدائرة الواسعة ، دائرة الاغيار٠ واليهود داخل دائرتهم يعزفون الموسيقى ويتزوجون ويتناسلون في سعادة واضحة وان كان وجودهم المتناسق وجودا مهددا دائما بالانهيار ، ومن هنا كان العازف على السطوح هو رمز هذا الوجود٠ وحينما تظهر اول شخصية غير يهودية في صورة جندي روسي ، يقول نكتة معادية للسامية ، فاننا نعرف على التو لم لا يمكن ان يكتب للوجود اليهودي الثبات والدوام ٠ يرقص اليهود رقصات رومانتيكية انسانية ، اما الرقصات الروسية الشعبية فهي تبدو في هذا الفيلم وكأنها احدى رقصات الحرب ، واليهود يقفون وسط دائرة الراقصين لا حول لهم ولا قوة ، حتى قديسو الكنيسة الروسية ، ذوو الوجوه البيزنطية النحيفة المستطيلة ، هم ايضا عيونهم قاسية لا رحمة فيها لليهود ٠ ولكن الفيلم (عن عمد او عن غير عمد) يبين عنصرية اليهود الراسخة الجذور ، فبطل الفيلم بائع اللبن اليهودي يغفر لاثنتين من بناته تزوجت احداهما بخياط يهودي فقير مفضلة اياه على خطيبها الغني ، وتزوجت الاخرى بثوري يهودي بدون علم ابيها، يغفر لهما الاب لان الزوج في كلتا الحالتين يهودي يتحرك داخل الدائرة الصغيرة ، اما الثالثة فلا غفران لها ولا صفح لانها تزوجت من مسيحي ٠ ورغم ان هذا المسيحي يعلن عن استنكاره للعنف الموجه ضد اليهود الا ان هذا لا يغير من موقف الاب في شيء ، فالانتقال من الدائرة الصغيرة الى الدائرة الكبيرة هو الموت بعينه (وبالفعل تقوم

بعض العائلات اليهودية بمراسم الدفن لبناتها اللائي يتزوجن من فرد غير يهودي) ٠

ومن الافلام العنصرية الاخرى التي رأيتها فيلم «القط فريتز» وهو فيلم جميع شخصياته من الحيوانات ولكن من بين القطط التي تلعب الادوار الرئيسية يوجد قط بروتستانتي وقطة يهودية (كلمة قط في العامية الامريكية تعني ايضا رجل) ، وشاهدت ايضا فيلم «بتي سووب» الذي يروي قصة استيلاء الزنوج على شركة اعلانات امريكية والمفارقات التي تنتج عن ذلك ، اما فيلم «شيئا اللاتيني» فيحتفي بالاقلية البورتوريكية وتراثها الكاثوليكي اللاتين ـ امريكي، وفيلم «مارجو» يسخر من الكنائس البروتستانتينية فيجنوب الولايات المتحدة ٠ بل ان هذه العنصرية زحفت ايضا على افلام الجنس التي تحاول معالجة عالم الجنس منفصلا عن التاريخ والجغرافيا والتربية الوطنية ، ففيلم «فيكسن» الذي يروي قصة امرأة شبقة لا يسلم منها احد يظهر فيه زنجي ثوري وكندي ماركسي !

من كل ما تقدم يمكننا ان نخلص الى ان الكل الامريكي المتجانس لا وجود له، فهذا الانسان الجديد البريء من الشر والتاريخ والمعرفة لم يقدر له ان يخرج من البوتقة مبتسما كأنه في اعلان تلفزيوني ، وخرج بدلا منه الصهيوني مزدوج الولاء ، والافروامريكي حامل لواء قارته السوداء والمدفع الرشاش والايرلندي الكاثوليكي الذي يرفع علم بلاده الايرلندية ، ويحاول التفوه ببضعة حروف من لغة بلاده الاصلية وكأن كل حرف يحمل رسالة ذات مغزى عميق ٠

اذا كان هذا هو الحال مع الولايات المتحدة ، فما هو الحال مع صهيون الجديدة الاسرائيلية ، وهي صهيون لا يزيد عمرها الرسمي عن عشرين عاما تقريبا ولا يزيد وجودها التاريخي عن ذلك كثيرا ؟ من المعروف ان ظاهرة التفتت القومي (التي يواجهها المجتمع الامريكي الان بصورة مخففة) هي اخشى ما يخشاه حكام اسرائيل وهي ظاهرة تطل برأسها في فترات السلم النسبية التي تعيشها اسرائيل (مثل الفترة بين ٥٦ و١٩٦٧) وتعبر عن نفسها فيما يسمى بالامتين الاسرائيليتين : اسرائيل اليهود الشرقيين واسرائيل اليهود

الغربيين • ولكن داخل كل «اسرائيل» يوجد جماعات قومية صغيرة لا تزال الى حد ما مزدوجة الولاء، فالاسرائيليون المتحدرون من اصل الماني يكتشفون انهم المان والاسرائيليون الفرنسيون فرنسيون مما يدل على انهم لم يكتسبوا الهوية الاسرائيلية اليهودية الخالصة ، وهذا يذكرنا بالفشل الذي لاقته بوتقة الصهر الامريكية •

ولكن ثمة فروق اساسية بين البوتقتين ، فالحصار الحضاري العربي المستمر يساعد الجماهير اليهودية المهاجرة الى اسرائيل على الذوبان في فابريكة الصهر الاسرائيلية خاصة وان هذه الفابريكة ليست ديمقراطية او ليبرالية او تلقائية بل هي امريكية واعية بذاتها تعمل حسب خطة وبرنامج محدد ، كما ان عملية فبركة تراث يهودي خالص من تراث الدياسبورا المتنوع امر ايسر كثيرا من خلق التراث الامريكي من نقطة الصفر • ولعل بعث اللغة العبرية في العصر الحديث من اهم الادلة على ان بوتقة الصهر الاسرائيلية قد تصيب من النجاح ما لم تصبه اختها الامريكية • ولكن مع ذلك يبقى عديد من الاسئلة التي تحتاج الى اجابة : هل سيصاب المجتمع الاسرائيلي بمرض التفتت القومي ام انه سينجح في ان يظل جسما متماسكا رغم انه دخيل ؟ وما هو الدور الذي تلعبه طبقة «الواسب» اليهودية في اسرائيل ، يهود شرق اوربا الذين يشغلون معظم القيادات الفكرية والسياسية والحزبية ؟ هل سيندمجون في المجتمع الاسرائيلي حتى يصبح له حركته المستقلة عن اوربا والغرب ، ام ان بوتقة الصهر الاسرائيلي ستنتج مواطنين موزعي الولاء بين واقعهم الاسرائيلي ووطنهم الاصلي ؟ وما هي امكانيات الاستفادة من التناقض العرقي في اسرائيل وهو تناقض له فعالية تفوق احيانا فعالية التناقضات الاجتماعية والطبقية المختلفة ؟

هذه هي بعض التساؤلات التي اثارتها رؤيتي للتفتت العرقي في الولايات المتحدة ، وهي تساؤلات قد يكون من المفيد ان يحاول بعض باحثينا الاجابة عنها •

٣ ـ لغة التعامل مع الواقع

حينما يتناول المصري طعامه فهو يتناول وجبة ساهمت آلاف السنين من التاريخ المصري في طهوها ، ولهذا السبب نحن لا نقدم الكوسة المسلوقة (والعياذ بالله) الا للمرضى ، اما الاصحاء فهم يأكلونها اما بالبشملة ، او محشية بالارز او اللحمة المفرومة او كليهما ، او قد تقدم مطبوخة بالصلصة والسمن البلدي وهذا اضعف الايمان • على العكس من هذا حينما يقرر المواطن الامريكي تناول طعام العشاء (الوجبة الرئيسية في الولايات المتحدة) فزوجته عادة ما تقدم له كمية لا بأس بها من البطاطس المسلوقة او المقلية مع شريحة كبيرة من اللحم المشوي على الفحم (على طريقة آبائنا الاوائل) ، او المطبوخ على نيران البوتاجاز (دون الاخلال بالبنية البدائية لعملية الطهي) ، فاذا اراد الامريكي التنويع فانه قد يأكل الهامبورجر وهو نوع من اللحم المفروم المحمر والمخلوط بالحد الادنى من الخضراوات والتوابل وهو عادة يؤكل اما بالخبز او البطاطس الحتمية • وحينما يسأم الامريكي رتابة حياته الغذائية ويفكر في تناول طعام جيد له مذاق خاص فهو عادة يتناول وجبة اجنبية (صينية او فرنسية) نتاج تاريخ بلد آخر ، ولذلك فمن ايسر الامور تناول طعام اجنبي بل وشراء مواده الخام في اي مدينة امريكية •

وانا لا ابحث هنا عما اذا كان الاكل المصري افيد او اصح من الاكل الامريكي ام لا ، وانما اشير الى طريقة «صنع» هذا الاكل والى ان الطريقة المصرية في الطهو اكثر تركيبا من الطريقة الامريكية ، وهذا ينطبق حتى على الفول المدمس الشهير ، الذي يترك على نار دافئة طوال الليل حتى ينضج ثم يضاف له بعد ذلك الزيت والملح والليمون •

واذا ما نظرنا الى علاقة الرجل بالمرأة وبالاسرة في المجتمعين المصري والامريكي للاحظنا نفس الاختلاف ، فالرجل الامريكي حينما ينظر الى امرأة فانه يرى امرأة وحسب على قدر ما من الذكاء والحسن ، فاذا اراد التعرف عليها فلا داعي للمؤامرات والمناورات

والتلميحات ، واذا قرر الزواج منها فهو يتزوجها ـ ان هي وافقت ـ دون ضجيج او صخب (ويطلقها بنفس البساطة) • وهو عادة ما يذكر هذا الامر لاسرته (الاب والام والاخوة والاخوات فالأعمام والأخوال واولادهم ليسوا من الاسرة) • وقد يدعوهم لحفل زفافه ولكن هذا لا يتم الا منباب العلم بالشيء وحسب لانه لا يبغي رضاهم ولا يخشى سخطهم ، فعلاقته بأسرته قـد انقطعت بعد بلوغه السادسة عشرة واقتصرت على المقابلات في اعياد الكريسماس ثم تظل تضمر الى ان تظل قاصرة على تبادل بطاقات المعايدة الخاليـة من اي محتـوى انساني شخصي ، فالرسالة المكتوبة على البطاقة عادة ما تكـون مطبوعة ، بمعنى انها ليست رسالة شخصية تعبر عن علاقة خاصة وانما هي اقرب الى التقرير العائلي العاطفي • لقد اصبت بالغثيان حينما تسلمت تقريرا عاطفيا عائليا من هذا النوع ارسلـه لي احد اصدقائي يخبرني فيه (ويخبر مائة شخص اخر) انه وزوجته واولاده يرفلون في حلل السعادة وانهم يخصونني بالسـلام ! ان علاقـات الامريكي الاجتماعية من البساطة الى درجة انـه يمكنـه ان يكتفي بالتقرير بدلا من الخطاب الخاص التقليدي • وكم كنت اصاب بالذعر الشديد لرؤية هؤلاء الامريكان «المرنون» وهم يودعـون امهـاتهم وآبائهم في بيوت العجزة ، وهي بيوت شيدت لتسد حاجة نشأت في المجتمع الامريكي نتيجة لتفكك الاسرة الامريكية • فعندما تبلغ سن الخامسة والخمسين فأنت لا تقطن مع ابن من ابنائك ، كمـا انك لا يمكنك ان تعيش في منزل بمفردك لانه سيكون مكلفا وكبيرا ولذا تنتقل الى احد هذه المنازل المزودة بكل وسائل الراحة العصرية من سرائر نظيفة الى اجهزة تكييف هواء الى اسطوانات الى حجرات فسيحـة تجلس في احداها لتنظر الى التلفزيون بقية ايامك الارضيـة (لقـد تحقق الفردوس الذي هو في صميمه جهنم السوداء) •

اما المصري فانه حينما ينظر الى امرأة فهو يرى امرأة ويرى طبقة اجتماعية وتاريخا طويلا ، فاذا قرر التعرف على المرأة ـ الطبقة فيجب عليه ان يعـرف خلفيتهـا العائلية لان هذا سيحدد تكتيك واستراتيجية الهجوم ، وان قرر الزواج فالزواج لا يتم على سنة الله ورسوله وحسب بل حسب ما تقتضيه الطقوس الاجتماعية من شبكة

ومهر ومقابلات بين الاسر للتعـارف والتباهي • وهذا المصري بعد تزوجه يبقى على علاقته بأمه وأبيه واخيه وبأم زوجته وأبيها واخيها . وعلى الزوج والزوجة ان يقسما وقتيهما بالعدل والقسطاس في زيارة الاقارب ــ اقاربها واقاربه ، والويل كـــل الويل لمن لا يبقي الموازين الدولية الدقيقة • فان اراد المصـــري ان يطلق ــ لا قدر الله ــ فإنه يكتشف ان الطلاق هو أبغض حلال عند اللــه وان المجتمع لن يتركه وشأنه قبل او بعد الطلاق ، فرسل الصلح وفاعلو الخير ولله الحمد كثيرون ، وحينما تهرم الام او الاب فاننا لا نرسلهما الى اي فردوس ارضي (فهذه المؤسسة العلمية المعروفة باسم « بيوت العجزة » غير معروفة بعد في مجتمعنا المتخلف) ، بل على المصري ان يبقى على علاقته بأبويه ، يرسل لهما النقود ويحارب ضد زوجته التي ترى انه يبالغ بعض الشيء في كرمه ، كما تحارب هي ضده حتى تبقى على علاقتها الوثيقة مع أمها (اي حماته المصرية الشهيرة) التي تنغص عليه عيشته دائما • ان الفرد المصري لا وجود له خارج هذه الشبكة الهائلة من الطقوس الاجتماعية والقيـــم الدينية ، فوجوده وجود اجتماعي تاريخي بالدرجة الاولى ، ووجود فردي بالدرجة الثانية •

ولعل هذا البعد التاريخي للوعي المصري هو ما يفسر ظاهرة غرام السيدات المصريات الزائد بالماكياج (بغض النظر عن انتمائهن الطبقي) • فالماكياج هو محاولة للبعد عـــن البساطة الاولى ، انه ارتداء لقناع الفن فوق وجــــه الطبيعة وهـــو ضرب من الطقوس الاجتماعية التي تحول الظواهر البيولوجيـــة الى ظواهر اجتماعية وتاريخية وانسانية • اما السيدات الامريكيات فنادرا ما يضعن هذه العطور والمساحيق الساحرة بهذا السخاء ، وان وضعنها فذلك لا يتم الا في مناسبات خاصـــــة جدا (وليس لمجـــرد الذهـــاب لحضور المحاضرات في الجامعة مثلا) • ولاحظت في زيارتي الاخيرة ان ثمة ضيقا شديدا بالثياب من اي نوع ، ورأيت في الطرقات شبانا وشابات يرتدون بالفعل الحد الادنى من الملابس (الامر الـــذي يذكرنا مرة اخرى بآبائنا الاوائل) • فالتخفيـــف مـن الثياب في امريكا ليس الغرض منه اثارة الفتنة (كما هو الحال في بعض الحضارات !)

وانما الغرض منه هو التبسيط ، ولذلك فالمرء يفزع من منظر الفتيان والفتيات منكوشي الشعر المرتدين الهلاهيل والخرق ٠

وبحث المواطن الامريكي العادي عن البساطة الاولى الطبيعية قبل تحولنا الى مخلوقات اجتماعية تاريخية يتضح ايضا في كرهه العميق للمدينة وزحامها ٠ وحينما كنت اذكر لاصدقائي انني لا يمكنني ان احيا الا في مدينة مثل نيويورك او على الاقل بالقرب منها كانوا لا يفهمون ما إعني على درجة الدقة ، فالحياة المثلى بالنسبة للامريكي العادي هي الحياة بجوار الطبيعة او «في الريف» بهدوئه الفردوسي على حد قولهم : وعلى الرغم من ان هذا الإمريكي العادي يعيش عادة في منزل من دورين تحيطه حديقة صغيرة محاطة بالسياج والاشجار ، وعلى الرغم من ان مراكز الاستبضاع تبعد عادة عن مناطق السكنى بضعة كيلو مترات)وهذا هو المجنون بعينه في نظري) الا ان هذا الامريكي العادي دائم التململ والشكوى من الزحام ، لانه يود ان يحيا بمفرده ان استطاع ، مثل انسان روسو الذي يعيش على الفطرة والطبيعة دون ان تفسده الحضارة والمدنية ٠ وقد يقال ان الإمريكي العادي يود ان يحيا على الفطرة على ان تكون معه عربتان وثلاجة وغسالة اتوماتيكية وجهاز تسجيل وفتاحة علب كهربائية وفي هذا بعد عن الطبيعة ٠ ولكن دخول هذه الاشياء لا يفسد بساطة حياته ، فالتاريخ والمجتمع ، وليس الآلات ، هما اللذان يأتياننا بالخبرة التي تفسد علينا فردوس البراءة الاولى ٠

واذا قارنا سلوك الامريكي بسلوك المصري في هذا المضمار للاحظنا مرة اخرى الفروق الواضحة ، فطموح الانسان المصري يتلخص في ان يقطن بالقرب من اهله وعشيرته واسرته ، ويا حبذا لو كان الجميع في القاهرة في قلب العروبة النابض !

ولان الوجدان الامريكي يمرح في براءته الاولى غير مثقل بالتاريخ نجد ان الامريكي لا يؤمن بأية مقدسات او حرمات او طقوس، فكل شيء بالنسبة له خاضع للبحث بل والتجزؤ ، كأن الكل الحي يعادل جماع اجزائه الميتة ٠ بل ان التاريخ نفسه (او ما هو موجود منه) يتحول الى شيء او موضوع للتأمل او الى لحظات زمنية

متتالية وليس كيانا حيا مركبا يمتزج فيه الحاضر بالماضي بالمستقبل، ولعل هذا يفسر ولع الامريكيين بالتصنيف وتقسيم التاريخ الى مراحل متمايزة او خانات ضيقة • فالقرن العشرون يقسم الى اوائل القرن ثم العشرينات الرومانتيكية فالثلاثينات الثوريـــة فمرحلة الحرب العالمية الثانية فعصر ايزنهاور والمكارثية فعصـــر كاميلوت (بلاط الملك ارثر المشهور بجون كنيدي !) ، بـل انني فوجئت في زيارتي الاخيرة حينما شاهدت فيلم « القط فريتز » ان الفيلـــم يعالج اواخر الستينات وكأنها جزء من الماضي السحيق الذي انقطعت كل وشائج صلاته بالحاضر ، عصر كانت تعيش فيه شخصيـــات يفترض الفيلم انها مختلفة تمام الاختلاف عن شخصيات اوائـــل السبعينات ! ان الوجدان الامريكي هو حقا وجدان الرفض للتاريخ والتراث بل وأي فكر مسبق عن الواقع ، وجدان تسيطر عليه الفلسفة البرجماتية او الذرائعية سيطرة كاملة •

وتنطلق هذه الفلسفة من افتراض ان العالـــم ليس فيه نظام واضح، اذ انه شيء نسبي متغير (وهذهالفلسفة تذكرنا بالسفسطائي القديم الذي كان يعلم الناس نظير مبلغ يدفعونـــه ان العالم في حالة سيولة دائمة وانك لا تستطيع ان تستحم في نفس النهر مرتين) • هذه السيولة التامة جعلت من المجتمع الامريكي مجتمعا علمانيـا بمعنى الكلمة ، لا تسيطر عليه اية آراء كلية عـن طبيعة الانسان والكون • وعلمانية المجتمع الامريكي الكاملة وتحـــــرره من الوعي الاخلاقي التاريخي جعلت العقل الامريكي ديناميا ومتحررا الى اقصى الحدود، متطلعا الى معرفة كل شيء بغض النظر عـن الاعتبارات الخلقية او الجمالية او حتى النتائج العملية او الانسانية لهذه المعرفة • وعلى سبيل المثال كتب مؤلـــف امريكي دراسة عـن « حسابات » جورج واشنطن ، مؤسس الدولة الامريكية ليثبت انه كان مختلسا ، وكنت اعرف صديقا ماركسيا يكتب كتابا عن حياة فلاديمير اليتش الجنسية وصديقة تكتب بحثا عـن الشذوذ الجنسي بين البلاشفة ، وصديقا ثالثا يكتب عن عدد صور الدم في المسرحيات الشعرية الانجليزية في القرن السابع عشر • وقد يكون من المفيد ان نعرف ان كان واشنطن مختلسا ام لا ، وان كانت حياة فلاديمير اليتش الجنسية سوية ام لا ،

ومـدى شيوع الشذوذ الجنسي بيـن البلاشفة وصـور الدم في المسرحيات الشعرية الانجليزية في القرن السابـع عشر ، ولكن كل الاستنتاجات التي سنصل اليها ستظل مجرد تفاصيل مبعثرة ان لم توضع داخل اطار تاريخي فلسفي شامل ٠

ولكن الامريكي لا يشغل باله بهـذا الاطار لانه لا يحب ان يصدع رأسه بالتفكير في الحقيقة ، انما يحاول دائما ان يفعل مـا يريد وما تمليه عليه الاعتبارات النفسية الذاتية او العملية المباشرة («اعرف نفسك» كان هذا هو شعار سقراط والفلسفة القديمة ، اما امرسون الكاتب البورجوازي الامريكي وجري هوفمان زعيم الييبي فهما يناديان بأن تفعل الشيء الذي يرضيك ـ فتحقيق الذات وليس معرفة الذات هو الخير الاسمى) ٠

ان المجتمـع الامـريكي مجتمـع ذرائعـي لا يشغـل نفسـه بالحقيقـة النسبيـة التاريخيـة ولا يبحث الا عمـا يزيـد مـن راحتـه وهنـائه الماديين ، والبـاحث عـن الحقيقـة سيجدهـا في كـل مـا يزيـد الانتـاج ومـا يثبت كفاءتـه بغض النظـر عـن قيمته الانسانيـة ، وهذا تعريف كمي للحقيقـة يحولها الى حكم يمكن تجزئته وقياسه ، وهـو تعريف « ديمقراطي » لانه يساوي بين كل الاشياء وينفي كل تدرج في عالم المعرفة والقيمـة ، فليس هناك اعلى ولا اسفل ، ولا يمين ولا يسار ، والماديات تساوي المعنويات ، والروح تساوي الجسد ، والجميل لا يختلف عن القبيح ، والجاهل لا يختلف في عمله وحكمته عن العالم ، فالمعيـار الوحيد هو النجاح ٠ ويتغنى ويتمان شاعر الذات الامريكيـة الديموقراطية بهذه المساواة قائـلا :

انا شاعر الجسد وانا شاعر الروح ،

ملذات الفردوس معي وآلام الجحيم معي ٠

انه لا يفرق بين الموت او الحياة او حتى بين الانسان والحيوان لانه حينما ينظر الى الحيوانات فهو يرى ان نفس القانون يسري عليه وعليهم ، وهذا هو منتهى المساواة الكونية !

ولكن رغم كل هذه «الديمقراطية» فان الدارس للحياة السياسية الامريكية يلاحظ انها تسودها روح من المحافظة والرجعية ، فاليسار الامريكي ، رغم نشاطه لا يزال واقفا علـى الهامش سجين اسوار الجامعات ، اما الحياة السياسية الحقيقية فيسيطر عليها حزبان ليس لهما برنامج سياسي واضح ولا يختلف الواحد عن الآخر اختلافا ذا بال، هذا على عكس الحياة السياسية في البلاد الرأسمالية الغربية حيث تجد ان اليسار قوي نسبيا له وزنه الذي يحسب له حساب كما هو الحال في ايطاليا وفرنسا ، وهي بلاد تتسم بالتنوع الحزبي كما هو الحال في انجلترا والمانيا الغربية ٠

وتتضح رجعية الحياة الحضارية الامريكية في موقف الكنائس التي لا تزال مواقع ارتكاز لليمين الامريكي ، خاصة كنائس الجنوب، بينما نجد ان ثمة حوارا دائرا بين بعض الفرق المسيحية في اوروبا وبعض المفكرين الماركسيين ٠ وقبل الستينات كان من المستحيل تقريبا ان تجد استاذا جامعيا في امريكا يعتنق الفكر الماركسي علانية ، واذكر انه عام ١٩٦٤ حينما كنت ادرس للدكتوراه في جامعة رتجرز ان القى البروفسور جينوفيزي استاذ التاريخ الامريكي محاضرة استنكر فيها التدخل الامريكي في فيتنام ، فقطع برلمان الولاية كل المعونات المالية عن الجامعة التي اضطرت الى انهاء عقده على اثر ذلك (ولكن يجب ان اشير الى انني لاحظت في زيارتي الاخيرة ان عدد الاساتذة اليساريين الذين يشغلون وظائف دائمة قد زاد بشكل ملحوظ ، ولكن هذا لا يغير من الصورة العامة للمجتمع الامريكي) ٠

فما هو سر هذا التناقض بين العلمانية والديمقراطية من جهة، والرجعية والمحافظة من جهة اخرى؟ اعتقد انه من الممكن فهم هذا التناقض اذا ما تفحصنا الرؤية البرجماتية ذاتها ، فالرؤية البرجماتية بجعلها « النجاح » المعيار الوحيد للحكم على اي شيء وبالغائها التاريخ والتراث جعلت الحقيقة الوحيدة المقبولة الحقيقة السائدة او الحقيقة التي تسهل لنا التعامل مع الواقع كما هو وليس كما ينبغي ان يكون ، وهي لهذا رؤية محافظة مغالية في المحافظة ٠ اما الرؤية الثورية فهي على العكس من ذلك لا بد وان تطرح تصورا

جديدا للواقع مخالفا لما هو قائم ، والا فيم ثوريتها ؟ هذا التصور يستند الى تحليل علمي للواقع وللتاريخ ولكنه في الوقت ذاته يجب ان يتخطاهما ، لان الفكر الثوري يحاول ان يزود المجتمع باطار جديد يسمح للانسان بأن يحقق امكانياته بشكل افضل . فالمنطق الثوري يفترض دائما وجود تناقض جدلي بين ما هو كائن وما ينبغي ان يكون ، فالقديم يحتوي جرثومة فنائه التي هي نفسها بذرة الميلاد الجديد ، والعقل الانساني الواعي الخلاق يحتوي الواقع والاشياء ويتخطاهما . هذا الجدل قد صفي تماما في اطار الفكر البرجماتي وحل محله جدل دائري زائف تسيطر فيه الاشياء والماديات المصمته على عقل الانسان ، فالمطلوب في الاطارالبرجماتي الضيق ان يتعامل المرء بنجاح مع الواقع . ولكن التعامل مع الواقع المادي بالشروط التي يمليها هذا الواقع لا يؤدي الى تحولات راديكالية وانما ينجم عنه تقدم او تمدد افقي كمي دائري لا تختلف فيه نقطة البداية عن نقطة النهاية . ان البرجماتية رؤية مادية لا روح ولا حياة فيها ، فهي تفترض خضوع عقل الانسان للاشياء وحدودها ولا تسمح لهذا العقل بتخطيها وتفترض عدم وجود ذات انسانية مركبة تحمل عبء وعيها التاريخي في مقابل موضوع يكتسب فحواه ودلالته من الادراك الانساني المركب له ، وانما يوجد شيء يخشع امامه الانسان في صمت كأنه امام وثن او صنم .

ومن اصدق الادلة على فشل الرؤية البرجماتية ورجعيتها حرب فيتنام ، فرجال الحرب الامريكيين في البنتاجون عندهم ادق عقول الكترونية في العالم (او ادق آلات حسبة الكترونية لان العقل من هبات الله للانسان) ، كما ان لديهم تفاصيل تخص كل كبيرة وصغيرة في فيتنام وجنوب شرق آسيا . وهم يغذون الحاسب الالكتروني بهذه التفاصيل فليفظ لهم نتيجته العلمية الآلية بسرعة باهرة. استمروا في الحرب فاحتمالات النجاح اعلى من احتمالات الفشل . فتتحرك آلة الحرب الضخمة وتدك القرى الفيتنامية في دقة آلية متناهية وحماس برجماتي شديد ، ولكن الارنب لا يخرج من القبعة ولا يتحقق الفردوس ويظل النجاح في فيتنام حلما يعذب الوجدان الامريكي . ان ما ينقص

الكومبيوتر هو ما ينقص البرجماتيــة ، اعني الرؤيــة التاريخيــة الشاملــة ، وهي رؤيــة لا يمكــن الا للعقــل البشــري الواعي الخــلاق الوصــول اليهــا ، فهــو وحــده القــادر على ادراك الرؤى المركبــة والمختلفــة كيفيــا عمــا هــو كائــن ۰ هــذه الرؤى التي يسري فيها نبض التــاريخ والحياة تختلف اختلافــا جوهريا عن الاجزاء المفتتة الميتة التي يلتهمها الكومبيوتر في نهم وشراهة ، وهي رؤى تساعد الانسان على الانسلاخ عن واقعه المباشر المبعثر وعن الحركة الدائرة المتكررة التي لا معنى لها ، حركة عالم السلع والاصنام ۰

٤ ـ فلسفة الكاوبوي والحالوتس
دراسة في العنف البرجماتي

كان استاذي البروفسور دافيد وايمر يطلب مني دائما ان اقرأ اعمال الفيلسوف وليام جيمس ، فيلسوف البرجماتيــة الامريكية ۰ وحينما ذهبت في عام ١٩٧١ اعطاني مختارات من كتاباته كي اقرأها ۰ ولكنها كانت مفاجأة لي ان اجد ان العالم الذي انتقى المختارات وقدم لها هو هوارس مايركالن تلميذ وليم جيمس والمفكر الصهيوني مؤلف كتاب Utopians At Bay فقررت على التوان اقرأ كلا من المختارات والكتاب كي ادرس كيفيفكر البرجماتي ـ الصهيونيوكيف يدرك الواقع ۰ وتعاملي مع البرجماتية لم يبدأ من خــلال صفحات الكتب ، وانما في فناء جامعة كولومبيا عام ١٩٦٣ حينما كنت اجلس ذات مرة بمفردي امام المكتبة تحت تمثــال الالماماتر واذا بفتاة تأتي وتحييني وتسألني عن جنسيتي فأخبرتها عربي مصري ، فابتسمت وقالت انها خمنت ذلك من البداية ۰ فسألتها عن جنسيتها فأخبرتني انها يهودية ، ودهشت لانها اخبرتني عن دينها وليس عن جنسيتها ۰ ثم استمر الحديث الى ان وصلنا بطبيعة الحال للمسألة الفلسطينية واللاجئين ، وساعتها كان تحفظي ازاء اسرائيل ليس تحفظا سياسيا (باعتبار انها قاعدة للامبريالية) وانما اخلاقيا (باعتبار انها الدولة التي طردت الفلسطينيين) ولذا اخبرتها انه يمكن حل المشكلة باعادة اللاجئين لديارهم ، ففوجئت بثلما شنكل تتحدث عن تخلف العــرب

العلمي والتكنولوجي وانه لذلك لا احقية لهم في فلسطين · لقد سقط الحق التاريخي والانساني فجأة وحل محلهما فكرة السلاح والبقاء للاصلح · وبعدها اينما سرت واينما تحدثت عن فلسطين ، كان هذا الشعب الامريكي البرجماتي لا يتحدث الا عن فوهـــة المسدس ومن اسرع من من ؟ ومن قتل من قبل من ؟ حقا هذا زمن الحق الضائع كما يقول الشاعر المصري ·

لكل هذا ترتبط البرجماتية فيذهني بالعنف الذيلا عقل له، وحينما قرأت في كتاب المختارات ، تحققت كل قناعتي من ان فلسفة جيمس رغم غطائها الانساني المرن البراق تخفي الحد الاقصى من العنف · والفلسفة البرجماتية اشتقت اسمها من الكلمة الاغريقية « براجما » اي فعل ، فهي فلسفة تدعي انها تدرس السلوك الانساني دون أوهام نظرية عن التاريخ او الحقيقـــة وانها تشجع الفعل وتقلل من اهمية التنظير · ويبدأ هذا الفيلسوف الرقيق المؤمن بالفعــل بطرح التقاليد جانبا ـ التقاليد الخاصة بطرق التفكير وعادات الحياة ، وذلك حتى يؤكد استقلالية الفرد وحقه في ان يحـــرز النجـــاح ودرجة التميز والامتياز التي تقع داخل مجاله ، حسب تصوره ، وبالطريقة التي تناسبه ، وبجهوده الخاصة ، وحسب درجة المخاطرة الذي يخوضها اثناء صراعه الذي لا نهاية له في ان يعيش في هـــذا العالم المتغير الذي لم يخلق من اجلـــه ، هذا العـــالم الذي لا ضمـــان فيـــه لاي شيء · وكان جيمس يؤكدفي مذكراته واحاديثـــه انه سيقوم بأداء واجبه مؤملا ان الاشياء الخارجية هي الاخرى ستقوم باداء واجبها حتى يعم التناسق ، ولكـــن دون اي ضمان انها ستفعــل · وغياب الضمان ، حسب تصوره ، هو جوهر التجربة الانسانية الحقة ، اذ لا بد وان ينطوي مـــوقف الانسان في الحياة عـــلى عنصر من التوتر النشط ·

هذا عالم تحفه المخاطر اذن ، لا قوانين فيه ولا روابط ، وهنا تبرز اهمية الارادة الفرديـــة المتحررة من ايـــة قيود او اغلال · فالحقيقة هي ما تعرفه انت عـــن الواقع ، والحياة اليوميـــة نراها ونلمسها ونشمها ونتذوقها والتي نكافح ضدها ونعمل معها ليست

سوى تجربتنا لها . بل ان الامر لهو أعمق ذاتية من هذا ، فنحن ، حسب تصور جيمس ، لو آمنا بفكرة ما لاننا شئنا ذلك ، فهذا ليس بالضرورة خداعا » فالواقع هو رؤيتي وقناعتي (وتزعم البرجماتية انها فلسفة عملية واقعية) وما العالم سوى تيار من التغير الذي لا نهاية له ، ونحن الذين نقرر هذا او ذاك . والمعرفة ، كل المعرفة ، حسب هذه الفلسفة نسبية وذاتية لا وجود لها خارج اذهاننا ، والحقيقة ليست شيئا موجودا في الافكار والرؤى ذاتها وانما هو شيء يحدث لها اثناء استخدامنا اياها في المواقف العملية المختلفة ، وبذا يصبح الانسان حرا في ان يصدق او لا يصدق اي شيء طالما ان تصديقه او عدم تصديقه لا يتناقض مع تجربته ومعرفته العمليتين (وهما مختلفتان اختلافا بينا عن وعيه الاجتماعي التاريخي) .

أما القيم الانسانية العالمية الشاملة التي تتسم بشيء من الثبات فهي في الواقع قيم اتفقنا نحن وضعيا على انها عالمية وشاملة ، بينما هي في حقيقة الامر ليست كذلك ، فكل شيء نسبي متغير والشيء الحقيقي ليس هو الشيء العقلاني (المطلق) كما يقول هيجل ، وليس هو ما يتفق مع القيم الاخلاقية والدينية كما تقول معظم الاديان السماوية ، وليس هو ما تعبر عنه القوى الكامنة الوليدة داخل المجتمع الانساني كما ينادي ماركس وانما الحقيقي هو ما ينجح . ان اي شيء ينجح في ان يحرز مكانة خاصة به وفي ان يفرض نفسه على تيار التغير تصبح مكانته قائمة وثابتة ، فالطبيعة تلد كل شيء ولا تتحيز لاي شيء ، ولا يوجد اي شيء احق من اي شيء آخر او فضيلة اهم من فضيلة او رذيلة اخرى . كل شي لا يزال في دور التكوين ، والتغير والنمو هما سمة كل شيء سواء في حياة الانسان او في الشيء العابر الذي لا يعيش الا لعدة ثوان . وليست الطبيعة الخارجية وحدها هي المتغيرة والمتقلبة ، فالطبيعة الانسانية هي الاخرى ليست اقل تغيرا .. الخير والحقيقة والجمال والعقلانية ليست امورا اساسية ، فهي ليست امورا معطاة وانما هي مرتبطة بالنتائج ، بل انها امور تظهر في النهاية بعد ان نكون مارسنا ما اردنا ممارسته .

على قمة هذ التغير الدائم وعلى قمة هذه الحريه الكاملة يقف « العبقري » · ويميز الفيلسوف البرجماتي بيـن البشر والعباقرة ، فبينما يقوم المجتمع بصناعة الافراد العاديين ، عليه تقبل العباقرة « كمعطي » ـ تماما كما يتقبل داروين « الطفرات » في الطبيعة ، فهي ليست جزءا من التطور العادي · وحتى اذا كانت مرتبطة بها نابعة منها فهي على الاقل مرحلة مختلفـــــة كيفيا عن بقية المراحل التي سبقتها · وعلاقة العبقري بالبيئة تكاد تكون علاقـــة غير جدلية فهو بمثابة الخميرة التي تقوم بتغيير البيئة ـ تماما كما يغير وصول نوع طبيعي جديد التربة الطبيعية ويغير اتزانها النباتي والحيواني ·

ان العبقري هو الحجر الصلب الوحيد الذي يقف امام التيار المتغير ، بل ان العباقرة يعيدون تنغيم العلاقات الاجتماعية السائدة على نطاق كبير او صغير ، «وثروة الامم» ليس في كفاح جماهيرها ضد الطبيعة ولا حتى في البيئة الطبيعية ذاتها وانما «هو عباقرتها»·

هذا العالـــــم البرجماتي الهادىء العملي ، ان هو الا عالم نيتشوي دارويني يمور بالتغير الذي يعمي الابصار ويجرف كل شيء في طريقه الا العبقري ـ انه ولا شك عالم البقاء للاكثر عبقريـــة او للاصلح · ونحن لا نبالغ اذا قلنا ان هذا هو جـوهر رؤيـــة جيمس للانسان ، فحسب تصوره ، الانسان هـــــو الحيوان الوحيد الذي يفترس ابناء نوعــه ، اذ ان الانسان قـــد تكيف والى الابد مع حالة الحرب ولا يمكن لسنوات السلام مهما طالت ان تمحو من الوجدان الانساني الرغبة في الحرب · « لقـــد ولدنا كلنا لنحارب » ، بل ان الحرب هي الطبيعة البشرية في ذروتهـــا · والمجتمع سيصاب حتما بالعفن دونها ، دون ذلك « البذل الصوفي للدم » كما يسميه جيمس ، وما سمو العقل بين سائر البشر الا نتيجة الرغبة في السيطرة ، ان تذبح الآخرين او تذبح · يا الهي ! ماذا حدث للهدوء البرجماتي المرن العملي ـ والذي يتباهى به البرجماتيون ويتفاخرون ؟ لقد ظهر نيتشه وداروين « والسفك الصوفي للدماء » ، نعم « الصوفي » في كتابات البرجماتي ، كما لو كنا في عالم بدائي رهيب ـ عالم روسو بعد ان سقطت اقنعته المتحضرة · نقول نيتشه وداروين ولكن في تصوري ان داروين هو البنية الكامنـــة الحقيقية والتعبير الفلسفي عن رؤية

نيتشه وجيمس ، فداروين ، او لكي نتوخى الدقــة ، الداروينيون ، حينما ينظرون الى ظاهرة الانسان ، فهـم لا يضفـون عليها اي خصوصية ، وانما يرون الانسان على انه كائن طبيعي تنطبق عليه كل القوانين الطبيعية ، شأنه في هذا شأن اي كائن آخر دون اي تمييز خلقي او تاريخي او جمالي ـ والقانون الذي يحكم الجميع هو قانون «البقاء للاصلح» • وقد ورث نيتشه هذا المفهوم وطوره وجعله اساس تطور المجتمع الانساني وليس الوجود الطبيعي وحسب •

وجيمس ينتمي لهذا النمط من المفكريـن البورجوازيين الذين يضعون الانسان امام خلفية طبيعية ، مسقطيـن الخلفية التاريخية تماما ، او اذا ابقوها فهي تظل على مستوى الحد الادنى او القشرة ، او من قبيل الديكور وليس الا • ونحن اذا استعرضنـا آراءه التي عرضنا لها من قبل لوجدنا ان الخط الرئيسي فيها هو نزع الانسان من سياقه التاريخي • فهذا الانسان الذي يعيش في خطر في عالم دائم التغير ، لا ضمان فيه ، هذا الفرد الذي يفعل ما يشاء والذي لا يعرف الا ما يجرب والذي لا يوجد داخل نسق متكامـل من القيم والافتراضات والذي يتطور حسب قوانين تشبه قانون تطور الطبيعة من مساواة عمياء بين كل الافراد الى طفرات كيفية تفرق بينهم ، هذا الفرد هو ولا شك انسان الطبيعة ، الذي لا توجد ايـة قيود عليه ، ولكنه في الوقت ذاته لا يمارس اية حريات لانه يعيش في عالم الصدفة ـ والحرية المطلقة والصدفة هما نفس الشيء • هذا الاستقطاب الحاد لا يحسمه الا شيء واحد ، العنف ـ البقاء للاصلـح ـ المسدس ـ الردع التكنولوجي ـ اسعار البورصة او العبقري كمعطى طبيعي ••• الخ ••• الخ •

في داخل هذا الاطار الفلسفي لا بـد وان ينشأ نمط انساني يجسد هذه الفضائل او هذه الرذائل او هـذه الصفات التي لا هي بالفضائل ولا بالرذائل لانها قانون طبيعي يعلو على الخير والشر ان اردنا استخدام المصطلح النيتشوي • وهـذه الشخصية في كتابات جيمس هي الرائد الامريكي او الكاوبوي المؤمـن بمقدراتـه الخارقة للعادة على اخضاع اي شيء وعلى غزو البرية العـذراء (ولنلاحظ

الخلفية الطبيعية لسلوك الرائد فهو يتحرك دائما خارج التاريخ او على هامشه) ٠

ويؤكد كالن محرر مختارات جيمس وتلميــذه الصهيوني ان موقف جيمس من الواقع بل والوجود الامريكي ككــل يشبه موقف الرائد الامريكي من عدة وجوه ، فالشعب الامريكي يستجيب للواقع استجابة حرة لم تقررها من قبل عادات اجتماعيـــة او اية عادات خاصة استجلبوها من اوروبا معهم ، فهم قــد طرحوا هذا التاريخ جانبا ليدخلوا في علاقة مع عالم لم يسبق له مثيل ، عالم محفوف بالمخاطر ولا يمكن التنبؤ به ٠ الدخول في تجربـــة لا تعرف نتائجها مقدما ـ هذا هو جوهر تجربة الرجل الابيض في امريكا ٠ ان الرجل الابيض في امريكا هو الرجل البرجماتي بالدرجة الاولى والسوبرمان الحق والكاوبوي الذي لا يهاب شيئا ويبني بيته بجوار البركــان ، كما يخاطر بكل شيء فيفقد كل شيء او يربح كــل شيء ـ الصدفــة والحرية المطلقة مرة اخرى (وليس الحرية النسبية المقيدة من خلال معرفة قانون الضرورة) ٠

ولكننا لو تعمقنا قليلا في هذه البنيـــة الداروينية النيتشوية لنصل الى اساسها الاقتصادي لوصلنا الى شخصية التاجر ، فالرائد هوالتاجر الاعظم الذييتاجر بكل شيء ويخاطر بكل شيء حتى حياته وجسده ٠ بل انه يكاد يقترب من العاهرة في هذا ، فالعاهـــرة هي الانسان ـ السلعة التي تصل الى منتهى التموضع والانحراف الكامل عن الذات الانسانية حيث يدخل الانسان في علاقة موضوعية كاملة مع الاخرين ليس فيها خير ولا شر، ويكون هو نفسه (الذات الخلاقة) الموضوع الذي يستهلك ، وتكون الذات الاخرى موضوعا اخـــر ، باعتبار انه مصدر للمال وحسب ٠ الرائد يترك تاريخه وتراثه وقيمه واسرته ويحمل مسدسه وجسده ليدخل في صراع مع الاخرين يكون هو الصائد او الفريسة ٠ وفي هذا الاطار يمكننا ان نفهم الجوهـــر الرأسمالي الكامن وراء عبارات برجماتية نشطة مثل « المخاطرة » ، « الممارسة الحرة » ، « عالم بلا ضمان » ، « الصدفــة » ، «الحريــة الكاملة » ، «مشروع لا تعرف نتائجه مقدما» ٠

ولعل الفارق الوحيد بين الرائد والعاهرة ، يكمن في ان الاول يحمل مسدسا ويرتدي ملابسه (والردع المسلح هو ادنى مستويات الحضارة ، فقد فصل الانسان نفسه عن الطبيعة وتحول من فريسة الى صياد حينما اكتشف السلاح) ، اما العاهرة فهي تعود للطبيعة بالفعل فهي لا تحمل سلاحا ولا ترتدي ملابسا ، ولكن يظل الفارق بينهما طفيفا ، على مستوى الحد الادنى ، الذي يفصل بين الطبيعة والتاريخ • نحن هنا في سوق الاوراق المالية ــ في السوق الذي لا نقابل فيه بشرا وانما نتصارع معهم فنصرعهم او يصرعوننا • ان الرائد هو حقا التاجر الاعظم او البورجوازي دون اقنعة •

وقد نشأت البرجماتية في تربة الرأسمالية الناهضة الواثقة من نفسها والمؤمنة بأخلاقياتها او لاأخلاقياتها المبنية على التنافس والصراع والفردية • ومن هنا كانت مثاليتها وعمليتها المفرطة ، فهي مثالية مفرطة بسبب عمق ايمانها بمقدرة الرأسمالي الفرد على ان يأتي بالعجب العجاب وان يخلق فائض القيمة من العدم بأفكاره الذكية ومقدرته على المناورة والبيع بأسعار مرتفعة • وهي مثاليةفي التزامها بفكرة الفردالحر الروسوي الذي يسير بمفرده ويوقع على ورقة تعاقدية هي كل ما يربطه بالمجتمع او الدولة والدولة هي القيد الوحيد الذي ارتضاه لنفسه ليحقق لنفسه الامن ، اي انه حتى بعد ان يوقع العقد ، يظل هو المحور والمركز (ولنقارن هذا بفكرة الممارسة الجماعية عند ماركس او فكرة العمل الانساني الجماعي كمصدر لكل قيمة ، فالانسان كجماعة قد خلق نفسه ولا وجود له خارج هذه الجماعة • ولذا تظل فكرة الحدود التاريخية من صميم المفهوم الماركسي للحرية) •

والرأسمالية رغم مثاليتها المفرطة عملية مفرطة لانها ترتكز على السوق الذي يحدد كل القيم حسب دوراته اللامتناهية ، وحسبما تمليه قوانين العرض والطلب الذي لا يمكن لانسان التحكم فيها • اي ان الانسان صانع كل شيء لا يملك في الوقت ذاته من امره شيئا ، ولكن الرأسمالية ذي مثاليتها وعمليتها ، اي في حديها الاقصى والادنى تظل منفصلة عن فكرة القيمة ومرتبطة بفكرة الثمن والعرض

والطلب والشراء بأرخص الاسعار والبيع بأغلاها وهكذا · ولعل هذا يفسر ايمان المجتمعات الرأسمالية المجنون بفكرة التقدم ـ التقدم دائما وبأي ثمن ونحو اي اتجاه وبغض النظر عن مقدار السعادة او البؤس الذي يحيق بالبشر ـ لكن التقدم والحركية والسلام ، الى ان يصبحا هدفا في حد ذاتهما تماما مثل دائرية الطبيعة العبثية التي تتحرك دون توقف · هذا الاستقطاب العميق ، هذا المزيج الخرافي بين الحرية والحتمية ، والمثالية والعملية ، هذه العودة للطبيعة الروسوية ـ الداروينية ـ النيتشوية ، وهذا التعالي الكامل على الاخلاق ، وهذا الالتزام اللاعقلاني بالحركة «الطبيعية» هو ايضا البنية الكامنة في الفكر الصهيوني · فالصهيونية ايضا في جوهرها محاولة لتعرية فلسطين من تاريخها وتحويلها لمجرد «أرض» شيء ينتمي الى عالم الطبيعة اكثر من انتمائه لعالم التاريخ ، وهي ايضا محاولة لاسقاط حق الانسان الفلسطيني التاريخي في ارضه (باسم التقدم) حتى يصبح مثل الهنود الحمر ، انسانا طبيعيا كونيا لا تحده حدود وبذا يمكن اصطياده كالفريسة دون اي هلع او وجل اخلاقيين· بل وتحول الصهيونية اليهود انفسهم الى مخلوقات مثالية لا تاريخية آلية فيبساطة الظواهر الطبيعية وتحددها (وانكانت الصهيونيةتحول فلسطين الى ارض ، اي ارض ، والى «ارتس اسرائيل» في ذات الوقت ، ولذا فالفلسطينيون يذبحون باسم التقدم التكنولوجي والتلمود في ذات الوقت) ·

ويقول بعض دارسي البرجماتية ان انكار الامريكيين لقيمة التاريخ مرده انهم نشأوا في العالم الجديد وليس في العالم القديم ، وان الهنود الحمر كانوا يعيشون في اتساق معالطبيعة وان حضارتهم ذاتها لم تصل الى وعي تاريخي بذاتها ، ولذا كان من الحتمي على اليانكي ان ينكروا التاريخ في بلد لا تاريخ له · ولكننا نعتقد ان لا تاريخية الوجدان الامريكي تعود الى بناء البرجماتية الكامن ذاته ، فالهنود الحمر رغم انه لم يكن عندهم وعي بالتاريخ ، الا انهم كانوا يشكلون نوعا من الوجود التاريخي ، كما ان الاستيطان الاسباني البرتغالي (الكاثوليكي) في امريكا اللاتينية لم يكن مبنيا على افكار

التاريخ ، ولعل الاستيطان الصهيوني في فلسطين اكبر دليل على ان انكار التاريخ جزء من بناء البرجماتية ذاته ، فالصهيوني لم يكن عنده عذر ، ففلسطين كانت عربية وجزءا من تاريخ عربي قديم متماسك • ومع ذلك نجده يصر على القول بانها ارض بلا شعب (وان كان وضع امريكا الخاص قد ساعد ولا شك على تدعيم اسطورة الفردوس اللاتاريخي) •

وهذه النزعة اللاتاريخية اللاأخلاقية ـ المثالية/العملية التي تسمى البرجماتية والصهيونية تظهر في صفحات كتاب البروفسور البرجماتي الصهيوني كالن **المثاليون في مأزق** • ويلاحظ كالن العلاقة الوجدانية الوثيقة بين اسرائيل والولايات المتحدة بل والتشابه البنيوي بينهما • فهو في بداية كتابه يؤكد لقارئه ان كلا من اعلان استقلال اسرائيل والولايات المتحدة هما تعبير عن مسيرة الانسان نحو الحرية ، ونحو مزيد من التقدم • وهو في كل صفحة من صفحات الكتاب يعرفنا بنفسه على انه «امريكي» يلاحظ بعيون امريكية، ونجده امام احدى مستعمرات الناحال يتذكر كتابات جيمس • وهو في اول صفحة من صفحات الكتاب يذكر لنا قصة طريفة لا بد وانه ، مثلنا ، يعرف مغزاها العميق • فقد قابل البروفسور الصهيوني مهاجرا من البلاد العربية يعرف التلمود معرفة كاملة ويتحدث العبرية بلكنة عربية افريقية ! وقد اصر عالمنا التلمودي ان يمسك بيد البروفسور الصهيوني اليمنى وليست اليسرى لاسباب تلمودية لا اعرفها ، ثم يتحدث كالن عن اسباب هجرة هذا التلمودي الاسرائيلي : «وبغض النظر عن الافراح والاتراح ، ترك الرجل هو واسرته المنفى والاسر (اي بلاده العربية) وهاجر الى الحرية في اسرائيل ••• ومما لا شك فيه ان الماشيح سيأتي بعد هذه الخطوة (تجميع المنفيين)» • (لا يخبرنا البروفسور الصهيوني اليانكي عن رأيه في هذه الاحلام التلمودية) • وحينما عرف التلمودي اياه ان البروفسور امريكي الجنسية حاول تقبيله على حاجبه (لاسباب تلمودية لا اعرفها ايضا) ولكن تسببت مقاومة البروفسور لهذه الهجمة ان التلمودي اكتفى بتقبيله على كتفه وحسب واستمر في تقبيله عدة قبلات • وفي فيض هذه العواطف التلمودية البرجماتية نعرف ان هذه قبلات زواج بين

الايديولوجيتين البرجماتية الصهيونية والبرجماتية الامريكية • فقد اخبر العالم التلمودي البروفسور اليانكي ، والدموع تترقرق في عينيه ، ان يهود الولايات المتحدة هموسيلة الله التيادت الىخلاصه• يهود الولايات المتحدة اذن وتمويلهم للصهيونية هو البناء التحتي البرجماتي للبناء الفوقي التلمودي لتخرج بنية مدهشة تسمىصهيون او يسرائيل او اسرائيل او الدولة الصهيونية او مدينة اسرائيل او الدولة اليهودية او دولة اليهود ، سمها ما شئت فان مايهمنا هو تلاقي العقليتين •

لا يكف كالن عن التفلسف في كتابه فهو استاذ فلسفة لا يمكنه ان يلاحظ الاشياء دون ان يضعها في نسق فلسفي كامل • وعالم كالن مثالي/عملي برجماتي حتى النخاع ، فحق اليهود في فلسطين امر منطقي للغاية بسبب شعورهم القوي والجارف بمركزية اسرائيل في حياتهم ، فأينما ذهبت في العالم تجد اليهود يتطلعون لارتس يسرائيل ويحلمون بها ، وهم في الوقت ذاته يذكرونك بأن هتلر قد يحدث في اي مكان • وبسبب هذه « الحالة الشعورية » تصبح فلسطين من حق اليهود وليس العرب • ومما ادهشني ، انا الايديولوجي المتعنت ، رفض البروفسور البرجماتي لاستخدام بعض المقاييس البرجماتية ليتحقق من مدى قوة هذا الشعور وهل هو حقيقي ام زائف ـ اليس من الواجب ان تخضع كل الاحاسيس للقياس ، فاذا كان شعور اليهود في المنفى والاسر حقيقيا وقويا فعلا ، فلم يمكث غالبية يهود العالم في ديارهم المهددة بالهتلرية ؟ واذا كان حق العودة يستند الى قوة الشعور فاعتقد ان الفلسطينيين اثبتوا ايضا قوة شعورهم !•

وفكرة الحقوق التي تستند الى حالة شعورية تستند بدورها لرؤية غربية للتاريخ ، فالتاريخ هو ايضا بالنسبة للبروفسور حالة شعورية وايمان وحسب • ومن المثير للدهشة ان البروفسور البرجماتي يتفق في هذا مع صديقه التلمودي ، فالتلمود قد ساوى بين عقائد اليهود وتاريخهم المقدس وتاريخهم الحقيقي • فان اخبر اللهاليهود في التوراة انه قد وعدهم ارتس يسرائيل فقد اصبحت هذه الرقعة من

الارض ارضهم عبر التاريخ · ان التاريخ كما يقرر البروفسور كالن « هو الماضي كما يتذكره الانسان » · ولكن التاريخ كوجود ذاتي او كذكرى وحسب هو الاسطورة بعينها ، فالتاريخ ليس مجرد تذكرنا اياه وانما هو كيان موضوعي نحاول نحن استرداده من الماضي ، واسترداد الماضي شيء ووجوده في الذهن شيء آخر · واذا كان التاريخ هو الاسطورة التي نتذكرها او الكتاب المقدس الذي نؤمن به ، فالعالم الخارجي يختفي وندخل في عالم الرؤى والفردوس والمثل العليا التي لا يسندها سند · ويقتبس كالن من أعمال ثورو المفكر الامريكي الترانسندنتالي البورجوازي الذي يقول : « ان بنيت قلاعك في الرمال ، لا تندم على ما فعلت فهذا هو المكان الذي يجب ان تبنيها فيه ، وما عليك الآن الا ان تضع قاعدة تحتها» تماما مثل الجدل الهيجيلي الذي يقف على رأسه · ولو نقب عالمنا الصهيوني قليلا في كتابات هرتزل لوجد عشرات العبارات التي لا تختلف من قريب او بعيد عن عبارة ثورو · فالزعيم الصهيوني كان دائم الحديث عن المثل الاعلى ، عن الفكرة التي سيضع تحتها اساسا راسخا فيما بعد ·

ويحاول كالن ان يشرح لنا فكرته عن التاريخ كذكرى في إحدى عباراته التي لها جرس يذكرنا بأقوال الانبياء في العهد القديم : « تحولت الرغبة الى نبوءة والنبوءة بدورها تحولت الى ذكرى والذكرى اعيد تشكيلها الى وعد والوعد تحول الى مشروع» · وبغض النظر عن موضوع الرغبة ، فان ما يهمنا هو طريقة ادراك الواقع والتعامل معه، فالرغبة تحولت الى نبوءة وتاريخ، باعتبار ان الذكرى هي التاريخ والذكرى والوعد والمشروع ترجمت نفسها الى مشروع استيطان فلسطين او تعميرها او تفريغها من سكانها ·

يذوب التاريخ اذن في وجدان من يرغب ويصبح بلا حدود ، ثم يظهر جيل من حملة التراث اليهودي « المثاليون » الذين يحلمون ويفرضون حلمهم دون اي إعتبار لاي تاريخ ، فالتاريخ هو ما تشاء (ولنذكر انفسنا دائما ان البرجماتية ـ كما يقال ـ فلسفة عملية !) ·· والطوباويون الذين يشير اليهم عنوان الكتاب هم الاسرائيليون ـ كل الاسرائيليين · ويخبرنا كالن ان اليوتوبيا حالة عقلية ، وهذا امر لا جدال فيه · ولكن ما ينساه البروفسور هو ان اليوتوبيا ـ مثل

الحالات الحقلية ـ انواع ، فهناك الفردوس السماوي الذي نحلم به ونحمله في قلوبنا اينما سرنا ولا نتوقع ابدا تحقيقه هنا ، ولذا فنحن نضع فيه آمالنا ، كل ما لم وما لن يتحقق « الان » و « هنا » ، فهو حلم فردوسي كامل ، نحن في امس الحاجة اليه رغم استحالة تحقيقه ٠٠ ولكن هناك اليوتوبيا الثورية التاريخية ، وهي ايضا تستند الى حلم ولكنه حلم ينبع من الواقع ويعود اليه ، محدود بحدوده الزمانية والمكانية وبامكانياته الحقيقية ، وحيث انه حلم نابع من الواقع ليعود اليه لا يحق لي أن اطلق لوجداني العنان وانما يجب ان اظل داخل حدود الزمان والمكان ٠ فاليوتوبيا اذن حالة عقلية في بعض وجوهها، ولكن الحالة العقلية درجات ٠ ولكن كالن البرجماتي (نعم البرجماتي) لا يعرف خدودا ، فاليوتوبيا كما يقول هي مادة الاشياء التي نأمل فيها ، وتقوم شاهدا على اشياء غير منظورة دون ان تخدها الحدود ٠ وفي اسرائيل الموعودة يكتشف هذا اليانكي الصهيوني ، ان كل الرجال والنساء هنا طوباويون وان ارض بيولاه (الفردوس) « هي الرؤية التي لم تتجسد بعد في اي مكان ولا اي زمان ، ولم تتحقق في الواقع في اي مكان في اي زمان على الارض ولكنها دائما على وشك التجسد في هذا المكان : هنا ، وفي هذا الزمان : الأن » ٠ ان الفردوس الذي يريده كالن هو فردوس الان وهنا ـ وهو بهذا يكون حقا امريكيا حتى النخاع ٠ واذا كان هناك اي شك في مكان الفردوس الذي يحلم به كالن ، فانه يزيله تماما بقوله ان بعض الاديان قد حددت اليوتوبيا على انها « غد » سماوي لن يلحق به الانسان بتاتا في يومه الذي يعيشه ٠ ولكن توجد اديان اخرى ترى ان « غدا » ان هو الا يوم يعمل ويحارب من اجله المؤمنون ويحاولون تحقيقه في ايامهم الارضية كي يستمتعوا بحاضر فردوسي ٠ هؤلاء المؤمنون يحاولون يوما بعد يوم ان يشيدوا مدينتهم الفاضلة التي يحلمون بها الآن وهنا ٠ انهم يريدون ان يحيوا فردوسهم وهم احياء وليس بعد موتهم ٠ الفردوس السماوي كما يرى الصهيوني قابل للتحقيق اذن !

والطوباويون الاسرائيليون يقومون بالفعل بتشييد الفردوس

السماوي الارضي (بأموال يهود الدياسبورا) • وهم في محاولتهم هذه لا يفصلون بين المعجزات الالهيـــة ومبادىء وممارسات رجال العلم في معهد وايزمان او التخنيون ، وعــن طريق هذا التــزاوج والتداخل بين المقدسات الدينية المطلقة والحقائق العلمية النسبية ، يتحقق الفردوس (المؤسس على جثث الفلسطينيين والنابالم ؟) •

ويبدو ان الطوباويين اكثر تواضعا من البرجماتي الصهيوني نفسه ، فقد اخبره احدهم « اننا بشر عاديون ، نحارب مثل اي شخص آخر » • « ولكن » اجاب الفيلسوف كلا وألف كلا العبارة السابقـة اضافتي العربية الخطابية) الا يوجد ما يميزكم عــن الآخرين ؟ هل كفاحكم مثل كفاح المصريين او الروس او الهنود او الامريكان ؟ هل هذا يعني انكم تحاربون من اجل لقمة العيش وحسب ؟ كلا وألف كلا (اضافتي الخطابية مرة اخرى) نعم تحصلــون على لقمة العيش ، ولكن لقمة العيش هذه لا تغذي الجسد الذي يكد ويعرق ، وانما تغذي تفرد الروح ، هذا التفرد الذي تعبر عنـــــه كلمات مثل « يهودي » و « اسرائيلي » ، ثم تعود مرة اخرى للذكريات والـــرؤى اليهودية التي توحد هذا الشعب اليهودي» • ثم نكتشف ان هذه الذكريات لها بريق صوفي خاص فهي تحول الخبز الذي يتناوله الاسرائيليون الى ما يشبه الخبز المقدس الذي يتناوله المسيحي في صلواته على انه جسد المسيح : اي ان المجتمع الاسرائيلي تحول الى ما يشبه التجربة الدينية والفردوس السماوي ـ آمين • لقد تداخــل النسبي والمطلق تداخلا كاملا وانتهى الجدل والتاريخ • ما ينساه او ربما مالا يعرفه هذا البرجماتي ذو الحواس الخمس ، هذا الفيلسوف الذي يساوي بين المعجزات الالهية والمنجزات الآلية وبيـــــن الفردوس السماوي والرخاء الارضي ان التجربة الدينيـــة تجربة فردية يمارسها الفرد حتى ولو كان منتميا لجماعة ، كما ان التجربــة الدينية لا تغطي كل جوانب الحياة ، فالحياة ليست صافيـــة ولا فردوسية ولا مطلقة ، وادعاء مثــل هذا الصفاء وهذه الفردوسية وهذا الاطلاق لاسرائيل هو جوهر الغيبية العلمية ، فهو يضفي الاطلاق والكمال على ما هو قائم بالفعل ، وعلى قوانين الحركة السارية في المجتمع ، بحيث لا

يمكن اخضاعها لاي نقاش ـ اي انها غيبية تخفي الجدل تحت قناع العلمية ·

لقد وصلنا اذن لارض المطلق البرجماتي الذاتي ، ولكن قبل ان نستمر في رحلتنا مع كالن لا بد وان نعرض للجـانب الآخر للمطلق البرجماتي وهو المطلق البرجماتي الموضوعي ، اذ يبـــدو ان طريقة الادراك البرجماتي تؤدي اما الى هذا او الى ذاك، او الى هذا وذاك في ذات الوقت · فالبرجماتية فلسفة الارادة المطلقة تدعي ايضا انها تؤمن بالحقائق الموضوعية والحقائق الموضوعيـــة وحدها والتي لا تقبل النقاش (اكاد اقول والتي لا يأتيها الباطل من بين يديها ولا من خلفها) · وقد يبدو ان هناك تباينـــا واضحا بين المطلق البرجماتي المثالي والمطلق البرجماتي الموضوعي ، ولكـــن بقليل من التمحيص نكتشف ان المثالية هي الوجه الآخر للموضوعية الميكانيكية · فالرصد البرجماتي للواقع مبني على فصل العناصر عن بعضها وعن ماضيها وبالتالي عن وزنها الفعلي ثم يقوم الدارس بعد ذلك بتبويبها · فلو نظرنا للصراع العربي الاسرائيلي من منظور برجماتي محض للاحظنا ان هناك طرفين للصراع : واحد عربي وآخر اسرائيلي ، ثم للاحظنا ان العرب عندهم مطالب في فلسطين وكذلك الاسرائيليين ، وان العرب عندهم بعض الحق وكذا الاسرائيليين · ومن هنا نصل الى درجة من الحيادية الرهيبة ، فالموجبات هنا تحيدها الموجبات هناك ، والسلبيات تحيدها نظيرتها من السلبيات · واذاذ ظرنا الى سيناء بنفس المنظور فسنصل الى نفس الدرجة من الحيادية والاتزان ، فاذا قال العرب ان سيناء لنا، فالاسرائيليون يدعون نفس الشيء واذا قالوا انها تاريخيا كانت تابعة لمصر ، دلل الاسرائيليون على عكس هذا بالاشارة الى ان سيناء كانت تابعة للامبراطورية العثمانية حتى اواخر القرن التاسع عشر ، وانهم الآن يمتلكونها · فالرصد البرجماتي هـوعملية تراكم كمية للمعلومات لا رأس لها ولا قدم وانما ينتج عنها كوما هائلا لا اتجاه له ، وهو لا اتجاه له لان مضمونه لم يحدد عن طريق العناصر الكيفية الموجودة خارج البناء ذاته · فالصــراع العربي الاسرائيلي يتكون عن عرب حقا واسرائيليين ولكن العرب هم اصحاب المنطقة

تاريخيا وفعلا وهم الاغلبية الساحقة التي كانت تقطن في فلسطين ولا يزالون هم الاغلبية الساحقة التي تحيط بفلسطين وتؤيد الفلسطينيين في مطالبهم ، اذ لا يمكن فصل فلسطين عن المنطقة ، ولذا فالاسرائيليون ليسوا جانبا في الصراع وانما هم العنصر الدخيل الذي فرضته الامبريالية الغربية · اذا نظرنا للقضية بهذا المنظار التاريخي لاختل التوازن ولتحدد الاتجاه ولاكتسب كم المعلومات البرجماتية رأسا وعقلا واتجاها · ونفس الشيء ينطبق على سيناء ، فلو عدنا لمسار تاريخها ككل لاكتشفنا ان المصريين عبر تاريخهم كانوا يهتمون بسيناء ويرسلون لها الجيوش والحكام لانها هي درع مصر الشرقي · وحتى حينما كانت سيناء تابعة للامبراطورية العثمانية كانت مصر هي الاخرى تابعة لنفس الامبراطورية ، والوجود الاسرائيلي لا يتعدى ست سنوات وهو يأخذ شكل تحصينات عسكرية لا يمكن ان تقاس بالتاريخ الطويل الممتد · واذا ادخلنا هذه العناصر اختلت الحيادية البرجماتية مرة اخرى ، ولكن البرجماتي لا يفعل،فهو يريد تحييد الواقع كي يفعل ما يريد معه وكي يفرض عليه الاتجاه الذي يروق له · (وقد ادهش العالم السياسي البرجماتي كيسنجر الكثيرين بالسؤال عن سيناء ومن الذي يمتلكها) · وبذا نجد ان الرصد البرجماتي الموضوعي للواقع لا يختلف كثيرا عن التحليق المثالي عنه ، فكلاهما الغرض منه هو تذويب الواقع ، او كي نتوخى الدقة ، تذويب اتجاه الواقع حتى يصبح ولا اتجاه له فنفعل به ما نشاء · والدارس للدعاية الصهيونية يجد انها تستند الى تبريرين ، واحد منهما مغال في المثالية (حق اليهود الازلي في العودة ورغبتهم في ذلك) والآخر عملي مغال في العملية (سياسة الامر الواقع) ، وكلاهما يتجاهل الوجود التاريخي لفلسطين وشعبها · وطريقة الطرح الصهيونية ـ البرجماتية تفتح الباب على مصراعيه للعنف ، فاذا كان برنامجك السياسي هو اهواؤك ، واذا كان الامر الواقع هو المحك ، اذن فالبقاء للاصلح ـ الاصلح الذي يطمع في كل شيء ويفتح نيرانه على كل من يجرؤ على الوقوف امامه · يقول الاخلاقيون ان هذه شريعة الغاب ويقول المتفلسفون امثالي انها داروينية نيتشوية ، ويقول النابالم على اجساد

الفلسطينيين وخط بارليف انها الجاهلية الاولى عادت من جديد ٠

والطوباويون ـ كما يبدو ـ هم تجسيد البرجماتية من قديم الازل ، فقد اشتقوا اسماءهم في بداية التاريخ من الصراع (الواقعي) والقداسة (المثالية) ، فاسم يسرائيل كما يخبرنا البرجماتي المتصوف يعني المتصارع مع الرب ، فهو شعب يعيش في صراع دائم مع الطبيعة القاسية من رمال وتلال ومستنقعات يواجهونها بنفس الايمان الذي يواجهون به الطبيعة البشرية المعادية لهم ـ طبيعة جيرانهم (من العرب) الذين يكنون الكره لهم وينوون تحطيمهم ٠ ولنلاحظ هنا المساواة البرجماتية بين الانسان والطبيعة واسقاط التاريخ ، وكيف يتحول البشر الاحياء الى جزء من البيئة الجغرافية حتى يسهل اجتثاثهم (وهذه حيلة قديمة استخدمها المستوطنون البيض حتى يبرروا امام ضمائرهم التاريخية الانسانية ـ بقايا ماضيهم الاوروبي ـ مسألة ابادة الهنود الحمر) ٠ فالصراع هنا يصبح صراعا ضد جمادات لا حياة فيها ، وبالتالي يسهل اجتثاثها ٠ حينما كان يقف الكاوبوي امام اعدائه كان يصرعهم ، سواء كانوا من الهنود او الذئاب او رعاة البقر الآخرين ٠ وكذا الحالوتس (الرائد الصهيوني) كان عليه الحرب حتى يمكنه البقاء ـ مجرد البقاء في اراضي فلسطين الجرداء « بين شعبها المتسلل خلسة » !

ان البيئة الطبيعية ، بما في ذلك الانسان ، تقف ضد الحالوتس الذي كان لا يحارب ضد طبيعتها الحجرية المستنقعية البرية ، بل ضد طبيعتها الانسانية المفترسة ايضا ! ولكن لم ؟ هذا ما لا يسأله البرجماتي ابدا ، فالبرجماتي رجل عملي مرن يقدر ما هو قائم دون ان يصدع رأسه بالتاريخ ، فعليه ان يذهب للحقائق التي يفرضها بالمسدس ضد الطبيعة الانسانية العنيدة ، حتى تلين وتصبح هي الاخرى برجماتية !

ورؤية كالن للطبيعة البشرية امر مخيف ، فهو مثل هنري برجسون مطاط يرى ان لا ثبات في الطبيعة البشرية ، فشخصية الانسان حدث مستمر وليس مجرد حالة جامدة ، وكل شيء يتغير ويتبدل دائما ٠ ويبدو ان الاسرائيليين الطيعين المطاطين قد استجابوا

للنداء البرجماتي وتحولوا الى جيش محارب عظيم ، اذ يلاحظ كالن يقلب برجماتي مبتهج عسكرة المجتمع الاسرائيلي عسكرة كاملة · ان شعب اسرائيل هو جيش اسرائيل ، وجيش اسرائيل هو شعبها والحمد لله ، وهذا ليس بالمعنى المجازي وانما بالمعنى الحرفي ، فالجيش الاسرائيلي هو المدرسة التي يتعلم فيها الجميع · ونقطة البدء لهذا التعليم العسكري (العملي) هو العهد القديم (المثالي) اليست هي يسرائيل ـ المتصارع مع الرب ؟) ويوزع الجيش « كتبا صغيرة » دينية يستخدمها الجيش في تدريب الجنود ! ولكن بعد هذا يعطي الجنود مجموعة من الكتب آخرها (ولا ندري اهو اهمها ام لا) مجموعة من الخرائط الخاصة بفلسطين/اسرائيل (ونحن لا نعرف ما هذا البلد الغريب ذو الرأسين : فلسطين/اسرائيل !!) تبين حدودها التاريخية والاركيولوجية ، كما يدرس الجنود جغرافية اسرائيل (هنا سقطت فلسطين من المتن!) · ويقرر احد مرشدي كالن من الطوباويين ان الفرق بين امريكا واسرائيل هو ان الاولى ذات تاريخ صغير وجغرافيا كبيرة ، بينما الثانية هي ان لها تاريخ كبير وجغرافيا صغيرة (هنا سرت الرعدة في جسدي التاريخي ، فالاتزان البرجماتي يدعو الى الاتساق بين التاريخ والجغرافيا الى تنغيمهما حتى تصل الى الحدود الآمنة او المقدسة لانها متسقة مع التاريخ المقدس !)

والبرجماتي الصهيوني لا يكتفي بالرصد البرجماتي وانما هو قادر على الالاعيب الديالكتيكية ان كانت في مجال التبرير ـ فهو يقرر ان جيش اسرائيل جيش دفاع وحسب والله العظيم ـ ولكن ـ ولكن خير دفاع عن فردوس اسرائيل هو الهجوم على جميع الجبهات بالجو والبر والبحر ، ويا له من دفاع جهنمي ··· وهو يفسر هذه الحقيقة لصغر حجم اسرائيل ، اي يفسرها باللجوء للكم (الحقائق الصماء) وليس بسبب وضعها الكيفي (ككيان شاذ يقف ضد اتجاه التاريخ) ·

ويلاحظ كالن بقلب برجماتي مبتهج مرة اخرى ، انه لم يقابل اي فتى او فتاة لا يتطلع الى الخدمة العسكرية ، كما انه ، هو المرن العملي ، يخبرنا انه يمكن تجنيد الاحتياط في ساعات قليلة (مقولة

برجماتية مشكوك فيها بعد اكتوبر؟ ٧٥!) اي ان اسرائيل ـ « اسرائيل القلعة » كما يسميها عبر الكتاب ـ على اهبة الاستعداد دائما لملاقاة العدو برا وبحـــرا وجـــوا ٠٠٠ ولكننا نكتشف فجأة ان عدو اسرائيل العربي ، عدو هزيل ، وان الفدائيين ، الذيـــن يشبههم بالديدان ، لم ينجحوا قط في اقتحام القلعة الاسرائيلية ٠

وفشل العرب ـ كما يقـــول الطوباويون للبرجماتي ـ مسألة مقررة محتومة ! ولكن يا له من موقف كوميدي ! قلعة مسلحة على أهبة الاستعداد دائما لملاقاة عدو هزيل ! هل هذا دون كيشوت ام انه سانخو بانزا ، باعتبار ان دون كيشوت شخصية نبيلة جميلة ؟ ولكن حتى نكون عادلين مع اليانكي البرجماتي ، فاننا لا بد وان نذكر انه لم يشارك الاسرائيليين ايمانهم بانتصارهم الازلي ، وهذا الخلاف بين الامريكي البرجماتي والطوباويين التلموديين له مغزاه ، وهو اختلاف تمتد جذوره للخـــلاف بين البرجماتية الامريكية والبرجماتية الصهيونية ٠

الاسرائيليون اذن مرنون واستجابوا لنداء البرجماتية الحار للتغيير ٠ ولكن ماذا عن العرب ، يرى كالن ان الامـــل الوحيد هو تغييرهم ايضا ٠ وكالن لم يفقد الامل كليـــة فينا بعد ، فهو يرى ان العرب قد بدأوا بالفعل في التغير بمساعـــدة الاسرائيليين ٠ ويدلل على هذا بأن الاسلام قد اخذ في الاختفـــاء او في التحول الذي هو بمثابة الاختفاء ، وفي احـــد المناظر العديـــدة يصف لنا اليانكي الصهيوني كيف يعامل المسؤول الاسرائيلي العرب باحترام وحذر شديدين تماما مثلما يعامل العالم الانثروبولوجي القبيلة البدائية التي يدرسها ، وهو باحترامه وحذره يساعد العرب ايما مساعدة ٠

ولكن ماذا لو حدث وظهر الانسان العربي الجديد تحت الرعاية الصهيونية ، الن يكون انسانا صهيونيـــا محاربا لا عقلانيا مؤمنا بقوميته وحسب ، يهب ضد اسرائيل ليدق عنقهـا ، وليلقي بالنابالم على الاطفال ؟ البرجماتي قصير النظر لم يطرح السؤال على نفسه (كتب الكتاب عام ١٩٥٦) ٠ ونحن في عام ١٩٧٣ يمكننا ان نخبر العالم ان الآدام حاداش عرفي (اي آدم الجديد العربي) قد ظهر

ولكنه ليس صهيونيا والحمد لله ، فهو لا يزال يحمل الغصن الاخضر الى جوار مدفعه ، وهو لا يزال يحاول التحـــاور العقلاني مع عالم برجماتي مجنون !

وعلى الرغم من ان كالن لم يفقد الامل تماما في تغيير الاسباط العربية ، الا اننا لم ننل اعجاب هـــذا البرجماتي • ولقد تعرضت لاهانات عنصريـــة كثيرة وانا في الولايات المتحدة مـــن الصهاينة وغيرهم وكثيرا ما كنت افاجأ بأن اجد زميلا لي لا يبادلني الحديث فجأة لاكتشافه انني عربي ، وكنت لا اضيق كثيرا ، فهذه بلدهم ومن حقهم ان يمارسوا عنفهم وعنصريتهم كيفمـــا شاءوا • وقد اعتقدت لمدة طويلة ان جلدي قد اكتسب مناعة ضد الاهانات العنصرية الى ان قرأت كتاب هذا البرجماتي ، وذقت طعم الاهانة مرة اخرى • يؤكد صديقنا انه لا يوجد شعب عربي وانما شعوب متحدثة بالعربية ، وما يسمى بالعروبة ان هو الا رد فعل للنهضة الصهيونية المباركة ، ولم يخلق جامعة الدول العربية سوى الرشاوي البريطانيـــة ، ولا يوحد البلاد العربيـــة سوى كره اسرائيل • امـــا الفلسطيني فهو ايضا لا وجود له ، فهو خليط لا نهاية له من كل الاجناس • والقومية العربية شيء اصطناعي اصطنعته طبقة « الافنديـــة » وهم يستخدمونها كأداة لتحقيق اغراضهم الكريهة • وكل مـــا يفعله هؤلاء العرب هو تعليم ابنائهم في المدارس كيف يحاربون الصهاينـــة ، وكيف يتبعون ذلك المهدي المنتظر الجديد جمال عبد الناصر •

ولكن نفاجأ بعدم اتساق برجماتي في كتابات كالن ، اذ نجده فجأة يقتبس مثلا انجليزيا يقول انك اذا ضربت عربيـــا في فلسطين ، فأنت ايضا تضرب جده في الاردن ، ولنلاحظ الانتقـــاء غير المحايد للمثل الذي يستخدمه كي يصنـــف هذا الحيوان العربي ، موضع الدراسة والذي لا يصلح الا كموضوع للضرب • نعم ايها البرجماتي ان ضربت عربيا في فلسطين ، فأنت تضرب جده في الاردن وأخـاه في مصر وامه في الخليج وأخاه في السودان وأخاه الاخر في اليمن والجزائر ، فلسنا شعوبا تتحدث العربية كما تدعي ، وانما توحدنا لغة وتراث تاريخي مشترك وبقعة ارض مشتركة ومصالح اقتصادية

مشتركة . وماذا كان يضيرك ايها البرجماتي ان تتحدث عن تقديم الخير لعربي في فلسطين بدلا من ضربه ؟ ان كنت لا تعرف السؤال فأنا اعرف الاجابة ، لو عاملت عربيا بالحسنى في فلسطين لقوبلت بالعرفان بالجميل في بغداد والقاهرة ودمشق . ولكن انى لك ان تختار مثلا كريما طيبا ، انى لك ان تتعامل مع الخير وانت لا يمكنك ان تتعامل الا بأصابعك الخمسة ؟

وحينما يترك كالن هذا المستوى النظري ويتحدث عن العرب انفسهم وليس العروبة ، فالامر لا يختلف كثيرا ، فالعرب دائما يبحثون عن البقشيش ، وحينما يذهب لحي عربي فهو يلاحظ ان هذا الحي ، قبل مجيء الاسرائيليين ، كان ملجأ للعاهرات ومدمني المخدرات . وحينما يقدم صورة للعربي ، فأول صورة هي صورة شيخ عربي من الامارات البترولية يضيء قصره بأضواء النيون الحمراء ويستمع للأذان الكريم من جهاز تسجيل . وهناك شيخ قبيلة في صحراء النقب يلبس هو واولاده ساعات اجنبية لا تبين الوقت ويحملون اقلام حبر في جاكتات غربية يرتدونها فوق جلاليبهم ، وهم يلبسون احزمة قد غمدوا فيها خناجر : ووظيفة هذا الخليط الانساني، تهريب الحشيش . (ولكن لماذا لم يتحدث هذا البرجماتي عن غسان كنفاني او محمود درويش او صديقي تحسين بشير ، كلهم عرب فخورون بعروبتهم واستشهد احدهم ولم تكتب الصحافة البرجماتية شيئا عن استشهاده ، وما قوله في العمليات الفدائية التي تتطلب ذكاءا شديدا وتوقيتا متناهيا في الدقة ؟ هل غير هذا العنف موقفه البرجماتي بعض الشيء ؟) .

وحينما يصل هذا البرجماتي لمقدسات الآخرين مثل الحج الى مكة فهو لا يمكنه ان يتخلى عن عنصريته ، فهو يصف الحجاج الذين يهرولون ويتعثرون نصف عرايا فوق جبل الصفا ، ويقوم جنود ابن سعود بضرب هذه الغوغاء من الحجاج بالسياط حتى يلتزموا النظام اثناء تدافعهم نحو الحجر الاسود ليلمسوه . هذا هو وصف البرجماتي للحج ! وهو وصف لا يتسم بالحيادية البرجماتية !

ولكن لنترك عنصريته قليلا ونرى ما هو الحل البرجماتي الذي

يطرحه الفيلسوف اليانكي لقضية الفلسطينيين ، الحل هو ان يتحول الفلسطيني الى « الفلسطيني التائه » : يدفع له بعض المال ويعطي جواز سفر ويصبح العالم كله مجال اختياره ! ولكن اذا كان المجال فسيحا لهذا الحد ، رحبا لهذا الحد ، فلم نحـرم منـه الاسرائيليين، خاصة وانهم اثبتوا مقدرة على التكيف السريع يفتقدها الفلسطينيون العرب ؟ ولكن البرجماتية فلسفة متعادلة ولا يحسم التعادل الا فوهة المسدس ولانه في عام ١٩٥٦ كانت فوهـة المسدس الاسرائيلي قوية لذا يعطي جواز السفر للفلسطينيين • ولكن الوضع بعد ١٩٧٣ قد تغير قليلا ــ فهل نقترح بأدب برجماتي عنيف ان يعطي الجواز العالمي للاسرائيليين ؟ ولكن هذه حلول مثالية/عملية لا علاقة لها بالواقع المركب ، هذه هي حلول السوق الرأسمالي وغابـة روسو وداروين والمنظمة الصهيونية العالمية !

ان كل صفحة من صفحات كتاب كالن تنطق بالعنف البرجماتي، تماما مثل كتابات جيمس فكلاهما ينظر للانسان من منظور دارويني ، وكلاهما يرى الانسان جزءا مـن بيئة طبيعيـة مما يسقط التاريخ والاتجاه ، ويحول كل الظواهر الانسانية الى كم ميت (ومن هنا كانت العنصرية الفجة) • وفي هذا الاطار يظهر الكـاوبوي والحالوتس ، وتظهر الجيوش والعنـف ، وتصبـح قوانين الغـاب والسوق هي القوانين الوحيدة التي تسود الواقع ، وتظهر التحالفات الامبريالية/ الصهيونية •

ولكن يظل هناك فارق جوهري بين برجماتية جيمس الامريكية، والبرجماتية الصهيونية • فالبرجماتية الامريكية هي برجماتية غير مبرمجة وغير مثقلة بأي اساطير ، ولذا فهي برجماتية متسقـة مـع نفسها ، تقف ضد التاريخ ولا تاريخ لها • اما البرجماتية الصهيونية فهي برجماتية مبرمجة مثقلة بالاساطير والتواريخ المقدسة •

حينما ينظر البرجماتي الامريكي ذو الوجـه الاحمر والشعر

الذهبي والعيون الخضراء الخالية من الخير والشر والتاريخ الى الدولة الصهيونية فانه سيرى خفيرا يحرس المصالح الامبريالية مفيدا للغاية طالما انه يؤدي غرضه وطالما انه امر واقع غير مهدد ، ولـن تغشى الرؤية اساطير تلمودية عن الوعد الالهي وارض الميعاد • اما الصهيوني فانه يحاول ان يتعامل مع الامر الواقع ولكنه ايضا يحاول خلق « حقائق جديدة » (ان اردنا استخـــدام عبارة ديان الطريفة) صادرة لا عن قراءة للواقع وانما عن قراءة لكتاب اسطوري • ولذا تتحـــرك الجيوش البرجماتية لكي تؤمن الحـدود الواقعية المثالية لارتس يسرائيل التي وردت لها خريطتان مختلفتان في التوراة ! لكل هذا نجد ان حدود البرجماتية الامريكيـــة اكثر اتساعا وتحددا في ذات الوقت من حدود البرجماتية الصهيونية ، فالاولى يحكمها قانون واقعي ، هو قانون ضيق غبي ، ولكنه قانون مع هذا ، اما البرجماتية الصهيونية فهي مزيج فريد شاذ بيـــــن العقليتين العملية والغيبية التلمودية • ولعل هذا يعطينا مؤشرا على نوعية الصراع مع العدو الصهيوني ، فالفيتناميون قد سالت دماؤهم واسالـوا دم الامريكان طيلة عدة سنين الى ان زادت كيمـــــة الدماء والخسائر ، فانسحب الامريكيون حينما ادركوا هذه الحقيقة ، فهـــم ذهبوا الى فيتنام لا لاسباب اسطورية وانما لاسباب امبرياليـــة واضحة للجميع ، حتى للعمال والمقاتلين الامريكان انفسهم • وكثيرا ما كنت اتحدث معهـم (فقد عملت كخفير في احد المصانع الامريكية لمـدة اربع سنوات) فأجدهم يتحدثون ببراءة غير عادية عـــــن اهمية الحرب للاقتصاد الرأسمالي حتى تستمر المصانع في الدوران ، ولكنهـم بلا اخلاقيتهم المعهودة كانوا لا يخلصون من هذا الى ضرورة ايقاف الحرب وتغيير النسق الاقتصادي ، وانمـــا كانوا يخلصون الى ضرورة الاستمرار فيها وتصعيدها • ولكنهم مع هذا كانوا لا يتحدثون عن واجبهم في ادخال الحضارة في فيتنام او حقهم الالهي هناك، ولذا حينما اصبحت الحرب مكلفة استجابت الجماهير الامريكية بسرعة لحركة الاحتجاج •
اما في اطار البرجماتية المغلقة او المبرمجـــة او التلمودية فالعنف

البرجماتي وسياسة فرض الحقائق تستند الى حقوق مقدسة مسبقة لا يمكن حتى النقاش فيها ، ولذا فعلى الرغم من الصعوبات الـــتي يواجهها العدو الاسرائيلي وعلى الرغم من الخسائر التي قد نلحقها به فانه يتسلح خلف سياج اساطيره التلمودية وهي تمده بنوع مـــن القوة المؤقتة النابعة من الانفصال عن الواقع ٠

ويجب ان نتذكر ان الدبابات السوفييتية كانت على مسافة قصيرة من مخبأ هتلر ، والفوهرر لا يزال يصدر اوامــره بحزم للاطفال من اجل مجد النازي !

الباب الثاني

عالم السلع الفروسي

١ ـ الخلاص بالسلعة

افرز المجتمع الرأسمالي عديدا من الفلسفات من بينها الفلسفة البرجماتية ، ولكن هذه الفلسفات قد كتب لها الشيوع وذيوع الصيت دون غيرها لانها اثبتت انهـا خير وسيلـة تحافظ بها الرأسمالية الامريكية على اتزان المجتمع وثباته وعلى نقائه مـن كل التحديات الانسانية التي قد تخل بهذا الاتزان ، ففي مقدور الانسان البرجماتي محـدود الرؤية ان يستهلـك دون تساؤل ، وان يغير السلع التي يستهلكها وان يقلل ويزيد من كميتها دون احتجاج · وهو لا يستفسر ابدا عما اذا كان هذا الاستهلاك الغبي سيؤدي الى سعادته الفردية ام لا ، فالسعادة الانسانية ، هذه الرؤية المركبة التي تستند الى رؤية متكاملة للطبيعة البشرية ، ليست هي الهـدف ، انما الهدف هو النجاح في التعامـل مع الواقع الـذي تخلقه وتحـدده وتغلفه الاحتكارات ، ثم تبيعه للمواطـن الامريكي عـن طريق الاذاعة والتليفزيون اللذين لا يرحمان ، فهما لا يكلان ولا يتعبـان ، وهمـا موجودان في كل مكان ·

وقبل ان نعرض لهذا الحديث عن الحضارة الامريكية قد يكون من المفيد ان نذكر بعض الجوانب المميزة لنمط الحياة الامريكية التي تجعل الامريكي فريسة سهلة « للاستهلاكيـة الامريكيـة » · فبنـاء الضاحية الامريكية يجعل الانسان الامريكي يعيش وحيدا فيما يشبه الفردوس الارضي في منزل من طابقين وعليه ان يقود سيارته ساعة على الاقل كل يوم ليصل الى محل عمله وساعة اخرى ليعود منه (ومن هنا كان من الممكـن ان تسبب ازمة الوقـود كارثة لهذا النمط من الحياة المبني على الاستهلاك) · وهو حينما يذهب الى منزله الذي يملكه لن يجلس مع الجيران ليتحدث عن همومه اليومية وانما سيكون مشغولا باعداد طعام العشاء مع زوجته (فهو يعود الساعة الخامسة تقريبا) · كما انه لا توجد علاقة قوية بينه وبين الجيران لان هؤلاء الجيران يتغيرون كـل خمس سنوات ، فمجتمع الكفاءة والسيولة

البرجماتية مبني على التغير الدائم ، ولذلك يتغير كل سكان اي جماعة امريكية بمعدل مرة كل خمس سنوات !

والامريكي حينما ينتقل من مدينة لاخرى فهو لا يستأجر شقة وانما يشتري بيتا وهو لا يفعل ذلك من باب (الفنجرة) وانما هو ضرورة حتمية لان الشقق غالية ومكلفة للغاية ، كما انه كي يحارب هذا التضخم المتزايد ، وبدلا من ان يدفع ايجار شقة مرتفع يفضل ان يدفع اقساط المنزل (والجميع مشغول بدفع اقساط المنزل واقساط السيارة واقساط هذا وذاك) . وبسبب هذا الوضع يصبح أهم الشخصيات في حياة الامريكان سمسار العقارات . ولذا فحينما ينتقل امريكي من مدينة لاخرى فانه يتصل اول ما يتصل بسمسار العقارات الذي يساعده في شراء بيت جديد ويساعده آخر في بيع بيته القديم . ويقال ان سماسرة العقارات هم من كبار المحرضين على التفرقة العنصرية ، فهم يمكنهم تحقيق ارباح خرافية عن طريق بيع بيت واحد لزنجي في ضاحية بيضاء فتهبط اسعار المنازل المجاورة فورا ، فيقومون بشرائها بأسعار زهيدة ، ثم يبيعونها بعد ذلك للزنوج بأسعار مرتفعة .

هذا الامريكي الذي لا جيران له ولا معارف ولا اقارب وضحية سمسار العقارات ، عادة ما يستمع الى اذاعة محلية مقصورة على مدينة او ضاحية ، وهي اذاعة تذكر له انباء الشرق الاوسط في دقيقة ، ثم النشرة الجوية في ٤ دقائق ثم تذكر له الاوكازيونات المحلية في ١٥ دقيقة . وهو ان قرأ جريدة يومية فسيقرأ ايضا جريدة محلية تذكر له انباء العالم في الصفحة الاولى حتى يرضي ضميره ، ثم يقرأ في بقية الجريدة عن الاخبار الحيوية مثل من تزوج من مؤخرا ومن حصل على شهادة البكالوريا من ابناء هذه المدينة الامريكية الفاضلة ! وهذه الجرائد ومحطات الاذاعة المحلية خاضعة خضوعا كاملا للرأسمال المحلي ، فهي دور صحفية ومحطات ليس لها سند قومي او عالمي ، كما ان المذيعين فيها والكتاب هم من سقط المتاع ولذا يسهل ابتزاز الجميع وفرض اي خط سياسي يلائم الرأسمال المحلي خاصة اذا كان هناك شركة قوية في هذه المدينة . واذكر جيدا ان في مدينة نيويورك التي كنت اعيش فيها كانت شركة جونسون

وجونسون للادوية تملي ارادتها على كل اجهزة الاعلام في هذه البلدة نظرا لسطوتها المالية ٠

هذا الاطار الحضاري قد جعل من الامريكي فريسة سهلة لسعار الحضارة الاستهلاكية ٠ ومن اليسير علينا ان نضرب المثال تلو الآخر على هذه الهستيرية الاستهلاكية المعادية للعقل وللسعادة الانسانية ، ولكننا سنكتفي بالاشارة لاهم الامثلة : اعني مسألة المواصلات الداخلية في المدن الامريكية ٠ فصناعة السيارات تعد من اهم الصناعات على الاطلاق في الولايات المتحدة ، فهي صلب النظام الاقتصادي الامريكي ، ولذلك فمن مصلحتها ان تمتلك كل اسرة امريكية سيارة ثم سيارتين وان امكن ثلاثا ، على ان تستبدلها كل عام او عامين على الاكثر ، ولتحقيق هذا المثل الاعلى كان لا بد وان يختفي نظام المواصلات العامة ، وبالفعل لا توجد مواصلات عامة من اي نوع في المدن الامريكية الصغيرة وان وجد خط اتوبيس فهو عادة على بعد مسيرة عشرين دقيقة ولا يمر الاتوبيس الا كل ساعة ، ولذلك فالمواطن الامريكي ، الذي يعمل عادة بعيدا عن منزله ـ كما اشرنا من قبل ـ يضطر لشراء سيارة شاء ام ابى ، فقيرا كان ام موسرا ٠

وبعد شراء السيارة الاولى تجد الزوجة نفسها حبيسة المنزل بعد ان يذهب الزوج للعمل فتصبح السيارة الثانية في ضرورة الاولى ، وحينما يصل اول الاولاد سن الرشد تجد الاسرة نفسها مضطرة لشراء الثالثة ٠ ويقال انه في استطاعة الاحتكارات الامريكية ان تصنع سيارة لا تستهلك الا بعد عشرات السنين ، ولكن مثل هذه السيارة لا تنتج لانها قد تصل بالسوق الامريكي الى درجة التشبع وهي نقطة قد تتوقف عندها الدائرة البرجماتية ، لان المستهلك لو تشبع بالسلع وشبع منها فانه قد يفيق وقد يبدأ في التساؤل عن السعادة والحياة والروح ، وهذا ما لا يمكن للرأسمالية الامريكية تحمله ٠ وحتى تضمن الاحتكارات الامريكية انيظل المواطن الامريكي غارقا في السلع والمادة وفي حالة غيبوبة انسانية كاملة فانها تطلق عليه سيلا من الاعلانات التلفزيونية الرائعة (والاعلانات التجارية هي بالفعل اروع ما يذيع التلفزيون الامريكي) ٠ انظر مثلا اعلان

الاكسهنتي «الرجل المتشدد» : يبدأ الاعلان في قرية في احدى دول امريكا اللاتينية وقد اعتلى الوجوه القلق وخيم الصمت على المدينة «فالمتشدد» قد وصل · ويذهب هذا الرجل الى احد اكياس القهوة ويتذوق الحبوب الموجودة فيه ثم يتعاطى فنجانا من القهوة وحينما تعلو وجهه ابتسامة الرضا تعم الفرحة وترقص الجماهير وتبدأ طقوس الحصاد فمندوب شركة سافارين المتشدد قد وافق على شراء المحصول ، مما يدل على جودة القهوة التي تبيعها هذه الشركة الحريصة على مصالح المستهلكين · او انظر اعلانات السيارات المختلفة : تسير عربة جميلة وتخرج منها فتاة رائعة الحسن وتطلب منك شرائها (السيارة ـ الفتاة بالطبع) ، فان لم تستجب لهذه الدعوة فالاعلان التالي كفيل باقناعك اذ ان القوات المسلحة لشركة شفروليه تسير على الشاشة في عظمة وجلال يدلان على عظمة هذه السيارة ومن الخير لك الاستسلام ، وان كنت ثوريا فأنت مدعو للانضمام فورا لصفوف ثورة الدودج فلقد سئمنا الشيفروليه واشباه السيارات · ولكن ماذا لو كنت فقيرا ذا جيوب مثقوبة ؟ لا داعي للقلق فصديقك ذو الابتسامة العريضة في بنك نيويورك للقروض سيساعدك ، وكل ما عليك ان توقع على ورقة بيضاء صغيرة فتحصل على مفتاح السعادة والعربة · وان دققت النظر في هذه الورقة البيضاء الصغيرة لاكتشفت انه عليك انترهن منزلك واولادك وزوجتك وذاتك وعربتك الجديدة في مقابل هذا ، فضلا عن ان سعر الفائدة ليس ٤٪ كما تقول اللافتة العريضة لانه بالحساب المركب يصل الى اضعاف اضعاف ذلك · ولكن الابتسامة العريضة على وجه صديقك اياه تنسيك كل الهموم والمخاوف · فان انتهيت من طوفان السيارات اكتسحك طوفان السلع الاخرى ··· معجون اسنان ، صابون للبلاط انواع جذابة من المكرونة والعطور والمياه الغازية والملابس الداخلية والاحذية والشكولاته · هذا الركام يمكن ان يزول لو توقف الانسان الامريكي ولو للحظة واحدة ليتساءل عن جدوى كل هذا ، ولكنه بالطبع لا يفعل لانه انسان برجماتي ناجح ، يجيد التعامل مع الواقع·

وعالم السلع لا يغزو الانسان الامريكي من الخارج وحسب ، بل يغزوه ويقمع انسانيته من الداخل · والغزو الداخلي يتمثل في

مظاهر عديدة اهمهـــا مصـــادرة الجنس لحســـاب الاحتكـــارات الرأسمالية٠ وانا هنا لا اوجه نقدا لما يسمى باباحية المجتمع الامريكي (فهو في تصوري ليس مجتمعا اباحيا منحلا بالمعنى التقليدي) ، كما انني لا اشير الى انتشار افلام الجنس التي تعرض في كل الاماكن بما في ذلك الضواحي التي تقطنها الاسر البرجوازية المحافظة (وهـــذه ظاهرة جديدة كل الجدة) ، وانما اشير الى اباحية من نوع جديد وخطير ٠ فالاباحية القديمة تفترض ان الجنس نشاط انساني وانـــه يمكن استغلاله لهذا السبب عن طريق عرضه بطريقة مغرية يسيل لها لعاب الذئاب والملائكة ، ولكن الاباحية الجديدة اباحية ديمقراطيـــة «علمية» تفترض ان الجنس طاقة محايدة يمكن استخدامها في التحكم في هذه الوحدة الاستهلاكية التي كانت الفلسفة القديمة تطلق عليها اصطلاح «انسان» ٠ واختيار الجنس كوسيلة للتحكم في الانســـان يدل على ذكاء وفطنة ، فالجنس نشاط بيولوجي حتمي ولكنه في الوقت ذاته له بعد اجتماعي ، وبتأكيد الجانب البيـــولوجي على حســـــاب الجانب الاجتماعي (دون الغائه كلية) يخلق المجتمـــع الرأسمـــالي الخلطة السحرية والتوازن المنشود ، فانت قد تسلك سلوكا اجتماعيا ولكن سلوكك ستحدده اعتبارات بيولوجية بسيطة ومحددة ٠ انظـــر مثلا الى كريم الحلاقة ماركة كذا ، ان استخدمته وقعت كل الفاتنات في شباكك ، اما كريم الشعر هذا فسحره لا يقاوم ، وانت يا سيدتي اذا شربت هذا الدواء «جريتول» (الذي اظهرت التقارير الطبية فيما بعد ان مضاره اكثر من نفعه ، فانت ستعيشين جاذبيـــة جنسية بعد شربه ، وانت ايها العجوز الكركوب لم لا ترتدي باروكة او تصبـــغ شعرك او تفرك جلدك او تقصر بنطلونك او تطوله ٠ اختر ما تشاء من السلع وكله في سبيل الحيويـــة والبعث الجنسي ، ولكنـــه بعث جنسي لا علاقة له بالحياة او الحب او الزواج او الطـــلاق او حتى ابليس او بروميثيوس ، فهو بعث بيولوجي مجرد يدور في فـــــراغ حتمي لا نهائي ٠

الحضارة الامريكية اذن حضارة ناجحة للغاية على المستـــوى الانتاجي والمادي ، حققت السيطرة الكاملة على الانسان الامـــريكي

من الداخل والخارج ووصلت الى الاتزان الذي يضمن لها الا ستمرار والاتساع المنضبط • وهي حضارة قد يقدر لهـا السيطـرة على المجتمعات الرأسمالية الاخرى ذات التاريخ العريق والتراث القومي والديني الفعال • بل انني اعتقد ان المجتمعات الاشتراكية مهددة بهذا الغزو الحضاري الامريكي اكثر من غيرها لانها مجتمعات قد قطعت صلتها بتراثها القومي والديني وخلقت فراغا حضاريا لا يمكـن ان تزدهر فيه سوى القيم المادية الامريكية ، خاصة وان هذه المجتمعـات الاشتراكية لا تزال تقوم نجاحها وانجازاتها بمعايير مادية ميكانيكية غير انسانية مثل زيادة حجم الانتاج وزيادة انتاج الصلب والفحم والصابون • ان الحضارة الرأسمالية الامريكية هي حضارة الماديين النفعيين ، حضارة لوك وهوبز وبنتام وديوي ، حضارة ترى الانسان على انه كمية من الاحتياجات من السهل ارضائهـا • والحضارات الاشتراكية باستمرارها في التركيز على الانتاج دون ذكـر للهـدف الانساني من الانتاج وباهمالها خلق وعي تاريخي انسـاني عنـد المواطنين ، وبحرمانهم من المشاركة الفعلية في ادارة المجتمع قد تقع في براثن هذه الرؤية النفعية المعادية للفكر والانسان وقد تظل قابعة في عالم الضرورة والكم •

وقد تنبه اليسار الجديد لخطورة الرأسمالية الامريكية فهو في نقده لها لا يركز على استغلاليتها او عدم كفاءتها الانتاجيـة لانهـا ليست مستغلة بالمعنى التقليدي كما ان كفاءتها مشهود لها من الجميع ، وانما ينصب التركيز على استهلاكيتها العمياء التي تغرق الذات ، بل ان بعض الجماعات اليسارية لا تستخـدم اصطلاح «الرأسمالية» الان وتستخدم بدلا منه اصطلاح « الاستهلاكية » باعتبار ان ما يهدد العامل الامريكي الان ليس قلة السلع بل وفرتها ، والوعي الـزائف الذي تنتجه هذه الوفرة •

واليسار الجديد لم يحد ابدا في رؤيته الجديدة عن الفلسفـة الماركسية ، فنقد ماركس للرأسمالية لم ينصب على استغلاليتهـا الاقتصادية بقدر تركيزه على سطحيتها المادية وحتميتها الاقتصادية

وتحويلها الانسان الى شيء والشيء الى وثن • ان الرأسمالية لا بد وان تؤدي الى اغتراب الانسان والى انحرافه عن جوهره الانساني• «ففي النظام الرأسمالي لا يوجد الانتاج من اجل العامل وانما يوجد العامل من اجل الانتاج» ، ولذلك يكون هدف الثـورة الحقيقي ليس مجرد الغاء الملكية الفردية (رغم اهمية هذه الخطوة) وانما اعـادة تنظيم المجتمع الانساني بطريقة تضمن تحقيق الانتقـال مـن عـالم الضرورة والانتاج والكم الى عالم الحرية والانسان والكيف • ولكن هذا التصور يفترض وجـود رؤيـة للانسـان الحقيقي ولحاجـاتـه الحقيقية (في مقابل الانسان الاستهلاكي او الاقتصادي وحاجـاتـه المادية الزائفة) ، فأي فكـر هيوماني انساني ينطلـق من رؤية محددة للطبيعة البشرية ولامكانياتها المبعثـرة او غيـر المتحققـة ، وللهيومانية الماركسية رؤيتها وان كانت تختلف عما سبقها من مذاهب في ان رؤيتها للانسان ولمجتمع المستقبل تستند الى تحليل تـاريخي واجتماعي ولا تنطلق من مجرد احلام طوباوية فردوسية مجردة •

واهم سمات «الطبيعة البشرية» حسب تصور ماركس تظهر في محاولته التمييز بين العمل الانساني وعمل المخلوقـات الطبيعيـة الاخرى • فالعمل الانساني عمل واع عقلاني خلاق ، ولهـذا يكـون اسوأ منزل يشيده اردأ مهندس هو في الواقع اعظم من كل الخـلايا التي تبنيها اعظم نحلة! ان الاشتراكية تصبح فلسفة انسانية حينما تعيد توجيه التقدم التكنولوجي بشكل واع عقلاني خلاق ، اي حينما تجعل العمل الانساني يعبر عن نفسه وعن امكانياته تعبيرا حقيقيا ، أما الاشتراكية التي تلغي الملكية الفردية دون ان تغير فيبنية المجتمع والتي قد تثري البروليتاريا ثم تغرقها في فردوس السلع انما هي اشتراكية زائفة غارقة في عالم الضرورة والكم • وهذه ليست دعوة للتقشف فالانسان بدون السلع يصبح عبدا للضرورة ، ولكنها دعوة الى عدم الخلط بين عالمين مختلفين والا نعتقد انه في وفـرة الكم السعادة والهناء •

اليسار الجديد اذن لم يحد كثيرا عن فكرة ماركس وان كان قد استفاد منه بطريقة تنم عن اصالته ، ولكنه مع ذلك يسار مفتت ينقصه

البرنامج السياسي والايديولوجية المتكاملة ، ولذلك فهو رغم انفه يجد نفسه منصرفا الى الجزئيات دون الكليات ، تستغرقه الاحداث اليومية والافعال المباشرة ، اي ان اليسار نفسه يتحرك في ذات الفراغ الايديولوجي الذي خلقته الرأسمالية والحضارة الامريكية · واليسار الامريكي لا ذنب له في هذا لان هذا الفراغ هو الحقيقة الحضارية التي لا يملك لها قبولا او رفضا · كما ان اليساريين يحاولون تجنيد المواطن الامريكي البرجماتي فيضطرون الى مسايرته والى استخدام مصطلحه بل والى رؤية الامور من وجهة نظره على امل استقطابه ، ولكن الامر ينتهي بمعظم هذه الحركات اليسارية اما الى الاقلال من جرعة الراديكالية وزيادة جرعة الاصلاحية البرجماتية (كما حدث لجماعة الفهود السوداء حين قررت الاستغناء عن السلاح وقبول الطرق الديمقراطية كوسيلة لتحقيق اهدافها ومثلها) · وقد يتحول الثوري الى هيبي او الى فرد متمرد يقوم بأفعال ثورية مباشرة مثل تدمير بنك او منزل كما فعل اعضاء جماعة ويزرمان · ولكن الثوري اذا تقبل فكرة «الفعل المباشر» فانه يكون قد حول كل افعاله الى ردود افعال وفقد الرؤية والاستراتيجية وضاع في متاهات تعرف الاحتكارات مداخلها ومخارجها لانها احتكارات يساندها اقوى جهاز تنفيذي واذكى جهاز قمع عرفه التاريخ · بل والاكثر من هذا ان تبني سياسة «الفعل المباشر» هو سقوط في المنطق «الفردوسي» الذي لا يحاول الوصول الى الحرية من خلال التعامل مع قوانين الضرورة ، وانما يتجاهلها ويتجاهل حدود الوجود الانساني التاريخية ·

٢ ـ الهيبي في الفردوس

في عالم السلع الامريكية والاشياء التي لا حصر لها والخواء الروحي الذي لا قاع له ، لم يكن من الممكن ان يستمر الانسان الامريكي في سلبيته وعزلته ، فالانسان ، روسيا كان ام امريكيا ، حيوان اجتماعي بطبعه ، عقله خلاق لا يقبل القهر في صمت وسكينة ·

ولذلك مهما بلغ البطش من قسوة والقمع من ضراوة فالانسان لا يعدم ان يجد شكلا ما من اشكال التمرد · وقد اشرنا من قبل الى ان الاحتجاج السياسي في امريكا قد يأخذ شكلا سياسيا شبه منظم كما هو الحال مع اليسار الجديد ، ولكنه في كثير مـن الاحيان يأخذ شكل احتجاج عاطفي روحي فردي عائم غائم ، لا يستند الى تحليل للواقع او الى موقف من التاريخ ، وهذه هي طبيعة التمرد الهيبي ضد الرأسمالية الاستهلاكية ·

فثورة الهيبي ثورة فردية محضة ، اذ يرفض المتمرد المجتمع وحدوده ومقدساتـه ، ويدير ظهـره لفكـرة النجاح على الطريقة البورجوازية ويقرر ان يفشل ، ففي فشله ضرب من تحد لكل اهداف المجتمع الرأسمالي وآماله · ومن المعـروف ان الاسطورة الاساسية السائدة في المجتمعات البورجوازية هي اسطورة « الانسان العصامي الناجح » الذي يكافح ضد كل العوائـق والظروف ، يعمل بالنهار ويدرس بالليل ، يحب والديه وزوجته واولاده ، ويذهب الى الكنيسة يوم الاحد ، وهو دون شك مقتصد لا ينفـق الا فيما يفيد · وتنتهي الاسطورة بتتويج البطل مليونيرا يشار اليه بالبنان ، او كما يقول المثل الامريكي « مـن الثياب البالية الى الثروة الطائلة » · الهيبي يفعل عكس ذلك بالضبط ، فهو عادة من عائلة موسرة يسرت له سبل التعلم ومهدت له طرق النجاح في صبـر واناة ، وخلقت له البيئة الصالحة الهادئة التي لا يعكر صفوها شيء ، فيترك صاحبنا الثروة الطائلة ويهجر المدرسة ، واذا ما وصلتـه حوالة بريدية من اسرته الحزينة فهو ينفقها على اصدقائه دون تدبـر او تفكير ، ثم يخلع ملابسه النظيفة ويرتدي الثياب البالية ويمشي حافيا يفترش الارض ويلتحف اي منزل خرب يصادفه في طريقه · « مـن الثروة الطائلة الى الثياب البالية » ـ وقـل موتوا بغيظكم ايهـا البورجوازيون المحترمون ! ان الهيبي هو تجسيد لاسطورة « الانسان الفاشل » ولذلك فهو الرفض المحسوس والشخصي لاسطورة « الانسان العصامي » ولكل ما ترمز له من تقديس للملكية الفردية ونكران للسعادة الانسانية (والسعادة الانسانية تختلف عـن الملذات المادية الاستهلاكية التي

يشجعها المجتمع الامريكي) ، اذا كان التفوق عند الانسان الناجح هو الاستهلاك الذي لا ضمير له ولا روح ، فالهيبي يحيـــا حياة بسيطة تجعـــــل الاستهلاك وكـــل السلع الرأسمالية بـل وكل الانجازات التكنولوجية امــــورا ليست ذات بال ، واذا كان العصامي انسانا مدبرا يحسب حساب كـــل شيء ويحترم الواقـــع الموضـــوعي البورجوازي ، فالهيبي يتعاطى المخدرات بشراهة لانها تمنحه الرؤى المختلفة كيفيا عن هذا الواقع الكريـــــه ، وقد يحتج بأن الويسكي الفاخر يمنح المرء مثل هذا الرؤى ، ولكن الرد الهيبي هو ان الويسكي سلعة راسمالية وتجرعه يعني دخـــــول الدائرة الاستهلاكية مرة اخرى ، اما الحشيش والافيون والكوكايين والهرويين والال اس دي التي يتعاطاها الآن ما يزيد عن ٦٠٪ من الشباب الامريكي فأمرها جد مختلـــف ، واذا كانت حيـــاة الانسان العصامي فردية خالية من الطقوس والمعنى ، فحياة الهيبي جماعية يحكمها تفكير قبلي وآلاف الطقوس التي تضفي معنى على حياتهم ، طقـوس تذكرنا بالعبادات القديمة قبل ظهور التجارة والصناعة ، وقد اعطانا فيلم «وود ستوك» صورة واضحة لهذه القبيلة الجديدة وهذه الرغبة في فقدان الذات الفردية في محيط البشر وفي الطقوس القبلية ،

ولكن الهيبي على الرغم من ذلك يظل فردا وجزيرة،يطفو من مكان لمكان دون هدف واضح او مستتر،كما ان شأنه شأن«العصامي» الذي لا تراث له ولا تاريخ ولا تقاليد ولا وعي ، يعيش من يوم الى يوم ومن ساعة الى ساعة ، كما انه لا يرتبط بأي تنظيم او ايديولوجية ، بل يظل يبحث عن النشوة ، وعن التنفيس عن نفسه ، وعلى اية حال لا يمكن انكار الفارق بين السكر عن طريق الكحولات ، وفقدان الوعي عن طريق المخدرات ، والغيبوبة عن طريق اعلانات التليفزيون ليس جوهريا الى هذه الدرجة ؟

ومما قد يكون له دلالته ان كلا مـــن « اسطورة العصامي » و « اسطورة الهيبي » جزء مـــن التراث الامريكي ، فالكاوبوي لا يختلف في كثير من الوجوه عـــن الهيبي ، فهو يعيش حياة رعوية بسيطة مع اخوانه من رعاة البقر ، لا يستهلك الكثير ولا يتعامل مع

المجتمع الفاسد ، وعلى الرغم مما في حياته من جماعية فهو فرد لا يرتبط بأي شيء لا بأسرة او زوجة او حبيبة ، اذ عليه ان ينتقل من مكان لآخر ٠

واذا ما نظــرنا الى التراث الادبي الامريكي فاننا نكتشف ان والت ويتمان كان هيبيا من الدرجة الاولى،فقصيدته الشهيرة «اغنية نفسي » تحتفي بذات الشاعر السلبية التي تحب الخير والشر والتي تقبل كل شيء دون تمييــز والتي تعشق ان تطفو مــــع الناس في المدينة ٠ وهناك ايضا تلـــك الهيبية البيوريتانية الشاعرة اميلي ديكنسون التي اعتزلت الناس وارتدت ثوبا ابيض وسكنت في عالم مأهول بالمجردات الميتافيزيقية ، وهناك هنري دافيد ثورو الذي رفض ان يدفع الضرائب المقررة عليــــه احتجاجـــا على محاولة القوات الامريكية ضم تكساس (التي كانت لا تزال تابعة للمكسيك حتى ذلك الوقت) ، وقد آثر ان يدخل السجن على ان يدفع الضريبة ، ثم حمل ادواته الزراعية ومكث في الغابة بجوار بحيــرة (ولدن) لمدة عامين ليكتشف ذاته وليثبت للعالم انه كفرد فيه الكفاية والبداية والنهاية ٠

ولكن حركة الهيبي كأي حركة غير منظمــة لا تستند الى قوى اجتماعية واضحة ، تتحول الى موضة ثم تختفي بعد ان تقيم الدنيا وتشغل الناس بضعة شهور او اعوام ٠ وهـــذا هو ما حدث بالفعل في حركة الهيبي (التـــي لم يبـــق لهـــا مـــن اثر في الولايات المتحدة) ٠ والهيبي لم يكـــن ينشد التغييـــر الاجتمـــاعي انما كـــان باحثا عــــن النشوة الفرديـــــة ، والاحساس بالنشوة احساس موقت يخلف الشعـــور بالمـرارة والقلـــق والملل ، على عكس التجارب الانسانية التي يعيشها الانسان ، فالتجربة ، بما في ذلك التجارب المأساوية ، خاضعـــة للتقنين والفهم وفي نهاية الامر للتصنيف والاستيعاب ، ولان التجـــارب لها محتوى انساني واضح فانه يمكن نقلها للآخرين ٠ وقد يصاحب بعـــض التجارب الانسانية احساسا بالنشوة مثل تجربة الحب وتجربة التفكيـــر في الخالق ، ولكن النشوة قاصرة على من يحس بها ولا تستمر الى وقت طويل ، ولكل هذا فهي لا يمكن ان تفهم وانما يمكن ان تمارس وحسب وتظل

محصورة في ذاتها،محتفظة بطابعها الفردي وبارتباطها بالآن والهنا . وهي بهذا تذكرنا بمنطق « الفردوس الآن » الذي يحاول الغاء جميع التناقضات الاجتماعية والتاريخية لتحقيق النشوة المباشرة والدائمة .

ولان هدف حركة الهيبي هو الانتشاء وليس التغيير الاجتماعي نجد انها تنمي احساسا عاما وغامضا لدى التابعين بالانتماء الى كيان ما (الكومون او الكون !) دون تقويم لمحتوى ودلالة هذا الانتماء ، وهي ايضا تركز على الطقوس القبلية التي تساعد المريد على ان يفقد ذاتيته الاجتماعية المحسوسة ويكتسب بدلا منها ذاتية مجردة منغلقة على نفسها مثل ذاتية المتصوفين . وهي اخيرا (شأنها في هذا شأن المجتمع الاستهلاكي) ترتكز على الجنس باعتباره نشاطا بيولوجيا محضا وطريقا مختصرا الى النشوة الفردوسية الطبيعية (نسبة الى الطبيعة والفطرة) التي لا يعقبها اية علاقات اجتماعية او التزامات انسانية من اي نوع (مثل الزواج او حتى الحب لمدة تزيد على ٢٤ ساعة) . وفي المسرحية الغنائية « هير ـ شعر » التي تعبر عن حساسية الهيبي تختفي الاغنيات الواحدة تلو الاخرى بعالم النشوة الجنسية التي تغني الوعي والذات وتجعل المدن والتاريخ والقلق والادب والاسلحة الذرية امورا تافهة يمكن تجاهلها وتناسيها .

وانتشار المخدرات دليل قاطع على سيطرة الحساسية الفردوسية ، فالمخدرات هي خير سبيل الى النشوة دون اي معايشة للواقع ، وهي خير طريق الى الفردوس الوهمي الذي لا تعكر صفوه اية تناقضات ، وهي الطريق الى الشكل دون المحتوى ، فالمرء الواقع تحت تأثير المخدرات قد يشاهد اشكالا رائعة الجمال ، وقد يبصر الاشياء المحيطة به وقد تضخمت بشكل مضحك ، وقد يرى العلاقات بين هذه الاشياء في ضوء جديد ، ولكنها اشكال بلا محتوى وبلا مضمون انساني او اخلاقي ، ولذلك فهي تبقى عصية على الفهم والتفسير . وسيطرة حساسية الفردوس تظهر ايضا في التيار الادبي الامريكي الذي ينادي بأنه لا جدوى من تقويم الفن او حتى محاولة فهمه لان الهدف الاساسي من قراءة العمل الادبي هو تجربته بشكل مباشر دون تدخل الوعي الانساني . فالفن ـ حسب رأي سوزان

سونتاج وهي احد النقاد الامريكيين المحدثين ـ «ان هو الا شكل من اشكال السحر ووسيلة من وسائل الطقوس»،والعمل الفني مثل العالم لا محتوى له اذ انه يوجد في ذاته ولذاته (تماما مثل النشوة ومثل اي «موضوع» او «شيء» قبل ان يشكله الادراك الانساني) ، وهي تعرف الجمال بأنه يتمثل في وجود « ماكينة خياطـــة مع مظلة على مائدة تشريح بالمصادفة المحضة اي ان الجمال ليس نتاج تجربة واعية يقوم صاحبها بتقويمها وتشكيلها ونقلها للآخرين انما هو شيء يوجد بالمصادفة ودون تدخل الارادة الانسانية ، تماما مثل الاشياء المضحكة التي يراها الانسان الواقع تحت تأثيـــر المخدر ، ولذلك تكون مهمة الناقد ان يمارس هو الآخر احساسا غائمـــا بالنشوة لا ان يفسر ويشرح ويقوم . وهي في مطلع كتابها المعنون ضد **التفسير** تتحدث عن حالة البراءة الاولى الفردوسية قبل ظهور التاريخ والوعي ، قبل ان يحتاج الفن او تفسير او تبرير ، فاستجابة المتلقي آنئذ كانت دائما استجابة مباشرة غير واعية،وهل يملك المرء الواقع تحت سلطان السحر ان يفعل شيئا سوى ان يتحرك حسب ما تمليه عليـــه ارادة الساحر الرهيبة ؟ وفي فيلم « القط فريتز » ثمة منظر طـــريف يصور لنا هذه الاستجابة المباشرة للشكل المحض ، فاحدى الشخصيات تقرأ كلمات القاموس الواحدة تلو الاخرى بصوت عال وبقية الحيوانات المنتشية تهلل وتصفق اعجابا ، لان كلمة القامـــوس المجردة التي لا يحدد معناها أي سياق هي خير الاعمال الفنيـــة فهي لا تنقل لنا شيئا . والدعوة لجعل الفن نهاية في حد ذاته ، اذا كانت منطقية مع نفسها ، لا بد وان تصل الى هذه الدرجة فمنتهى التجرد هو منتهى الجمال ، بل يصبح الصمت هو التجربة الجمالية الحقيقية الوحيدة لان الصمت هو قمة التجرد من المحتوى والمضمون .

حقا ان الصمت هو قدس الاقداس للمنتشي الذي يفقد عقله ، اما آدم فقد كان عليه ان يتعلم الاسماء كلها كي يصبح انسانا سويا تخر له الملائكة ساجدة .

٣ ـ اهل يسوع او مسيحيو الطرقات

من اهـــم الحركات « الفردوسية » السائدة الآن في الولايات المتحدة حركة تضم قطاعـــات كبيرة من الشباب المتعلم في الولايات المتحدة تعرف باسم « اهل يسوع » او «مسيحيو الطرقات» (ويطلق عليهم المجتمع اسم « شواذ يسوع ») • وهذه الحركة خليط غريب من المسيحية والهيبية ، فأهل يسوع مثل الهيبي لا يضمهم تنظيم واحد او حتى عدة تنظيمات ، وانما يجتمعون في منازل وجماعات يطلق عليها اسم « البيوت المسيحية » • وهم يرتدون اردية طقوسيـــة ولا يهتمون كثيرا بمظهرهم الخارجي ويطلقون لحاهم وشعورهم (مما يذكر المرء بالصورة التقليديـــة للهيبي والمسيح في نفس الوقت) ، كما انهم لا ينتمون الى كنيسة بالذات بـــل تجد بينهم بروتستانت برسبيتريان وبروتستانت موحدين وكاثوليك بل واحيانا يهود •

واهل يسوع متمردون لا على المجتمع المادي الامريكي فحسب بل على المؤسسات الدينية التقليدية ايضا التي لا تختلف رؤيتها كثيرا عن الرؤية السائدة في المجتمع (ومن هنا كنات تسميتهم بـ «الاهل» تمييزا لهم عن « الشعب » وهي الترجمة الاصطلاحية التقليدية لكلمة بيبول) • وهم في تمردهـــم يحاولون ان يبثوا الحياة في صلواتهم وعباداتهم حتى تختلف عن الصلوات والعبادات التقليدية التي فقدت معناها وتحولت الى طقوس فارغة ، فبدلا من قراءة الاناشيد الدينية التقليدية مـــن كتاب رشيق مغلف بالجلد المذهب يفضل اهل يسوع الغناء الحر الذي لا يخضع لقاعدة او رابط • ولان الصلاة نابعة من الروح كثيرا ما ينخرط بعض المصلين فجأة في البكاء او يطلقون بغتة صرخات الفرح او يغمغمـــون عبارات غير مفهومـــة اقرب الى لغة الواصلين ومن رفعت عنهم الحجب • وفي الخلفيـــة يعزف الارغن موسيقى دينية لا ينصت اليها احد وان كانت تضفـــي على الصلاة طابعا دينيا عميقا • وبعد تأدية الصلاة تدور سلة النذور والهبات بين المصلين ، ويطلب من القادرين ان يدفعوا مما معهم ومن المعوزين ان

يأخذوا ما قد يسد حاجتهم ، ثم يستمر الغنـــاء عن الحب والسلام والصداقة الى ان ينصرف كل الى حاله او ينام في مكانه ان شاء ٠ والصلاة تعقد في اي مكان ، فالبيوت المسيحية هي منــازل للسكنى وكنيسة للصلاة وعيادة لعـــلاج مدمني المخدرات ٠ واقتصادياتها بسيطة للغاية ، فاعضاؤها يعيشون على الصدقات التي تأتيهم على شكل نقود او ملابس قديمة مستعملة ، كما انهم عـادة ما يتناولون وجبة واحدة في اليوم تتكون عادة من البقول (وهي زهيدة الثمن) ٠ وقد قابلت ابن صديق لي كنت اعرفه قبل ان يصبح من اهل يسوع ، واخبرني انه لم يذق طعم اللبن زهاء نصـــف عام ، وهذا امر غير طبيعي البتة بالمقاييس الامريكية ٠

وحركات البعث الديني ليست غريبة على الحضارة الامريكية، فالولايات المتحدة بدأت ككومنولث ديني وتخلــل تاريخها مصلحون دينيون عديديون من اشهرهم جوناثان ادواردز الذي حاول ان يعيد بعث العقلية البيوريتانية المتزمتة في القـــرن الثامن عشر ، كما ان السنين القليلة الماضيـــة رأت واعظيــن مثل بيللي جراهام (واعظ الرئيس نيكسون المفضل) حاولوا بعث حرارة الايمان الديني ٠ ولكن كل هذه الحركات ، على عكس حركة الاصـــلاح الديني في عصر النهضة ، ليس لها طابع طبقي او اجتماعي واضح او مستتر ، وليس لها اية ابعاد راديكالية حتى بالمقاييس ، فهي لا تطرح رؤية متكاملة مختلفة عن الرؤية الدينية السائدة كما فعل مارتن لوثر ، على سبيل المثال ، الذي بشر بطريقـــة فرديــــة للخلاص تختلف في بنيتها ومحتواها عن مفاهيم العصور الوسطى الكاثوليكية ٠ ولكن رؤية لوثر رغم صبغتها الدينية كانت في صميمها رؤية اجتماعية تعبر عن قوى حقيقية في المجتمع ، ولذلك قدر لحركته الفعالية والاستمـرار ، اما معظم حركات البعث الدينية الامريكية فعلاقتهـــا بالواقع واهية او منعدمة لا تقدم رؤية متكاملة مكتفية بتقديم الحلـــول العاطفية مثل «الحب» و «التفاهم» كدواء شاف لامراض البشرية ٠ ان اهل يسوع يبحثون عن اسطورة جديدة تحل محل اسطورة « الانسان العصامي» الضيقة واسطورة « الهيبي الفاشل » المخربة ، ولذلك فهـم يعودون

لفكرة « الانسان المسيحي في بساطته الاولى » وهم في هذا يدخلون الحضارة الامريكية الاستهلاكية من اوسع ابوابهـــا ، باب الرفض الشامل للتاريخ والواقع الاجتماعي ، والرفض الكامـل يختلف عن محاولة التغيير الثوري فالوجدان الثوري وجدان اجتماعي تاريخي يحاول ان يكتشف ما هو كامن في المجتمع ويقدم رؤى هي في صميمها « امكانيات حقيقية » لا يفرض حلولا « فردوسية » من خارجه ٠

ورفض اهل يسوع للتاريخ وللواقع يظهر في الحرفية الكاملة في تفسير الانجيل ، فحينما سألت ابن صديقي ان يلخص لي عقيدته قال لي انها الايمان بأن الانجيل هو كلمة الـــــرب وان من واجب المسيحيين نشرها بين الكفار دون محاولة تفسيرهـــا (ضد التفسير مرة اخرى) ٠ ثم دخل بعد ذلك في متاهات عديدة عن عودة المسيح الثانية الوشيكة الوقوع ونهاية العالـــم القريبة (والايمان بقرب انتهاء التاريخ هو سمة اساسيـــة للتفكير المعادي للتاريخ) ٠ ولان النهاية قريبة يصبح كل شيء واضحا للغاية لا يحتــاج تفسيره الى عناء كبير ، بل ان كل التفاصيل تصبح عديمة الاهمية ٠ ومن ضمن علامات الساعة انتشار الفساد بالطبع ودخـــول عشر دول السوق الاوروبية المشتركـــــة ، (واشتشهد ابن صديقي بالانجيل في هذا الشأن) وانشاء الدولة اليهودية في ارض الميعاد لانها تعني تجميع اليهود من اطراف الارض اعدادا لهدايتهـــم جميعا للدين المسيحي وتمهيدا لتحقيق « الفردوس الان » ٠ وحاولت ان ابين لمحدثي قصور رؤيته الميتافيزيقية الثابتة عن طريق تنبيهه لبعض الاعتبارات النسبية والتاريخية ، فسألته عن جدوى هداية الكفار في هــذا الوقت الذي تدمر فيه الطائرات الامريكية كل اشكال الحيـاة في فيتنام ، والذي تهرق فيه الاحتكارات الرأسمالية انسانية المواطنيـــن الامريكيين ، المؤمن منهم والكافر ! ثم سألته فيم تأكده ان دولة اسرائيل الحالية هي الدولة التي ستجمع كل يهود العالم وما يدريه لعلة تنشأ دولة يهودية اخرى بعد ان تزول هذه ! ولكنه كان مطمئنا الى رؤيته الثابتة كل الاطمئنان واثقا بها كل الثقة ، واستشهد مرة اخرى بالانجيل دون تردد ٠

ويبدو ان الطمأنينة الداخليـة أو النشوة الدينية التي يحققها الايمان الاعمى والحرفي هو ما ينشده ، اهل يسوع ، ولذلك فتجربتهم الدينية الجديدة لا ينتج عنها اية استنارة فكريـة ، بل يظل المؤمن المنتشي يدور حول نفسه دون ان يدخل في علاقة حقيقية مع الواقع او حتى مع نفسه ، وهذا الاغراق في الذاتيـة يتضح في الاشكال المختلفة التي تأخذها العبادة في هذه الكنائس ، فقد انتشر ما يسمى « بصلوات اللمس » حيث تمسك بيد من بجوارك وتغمض عينيك وتفكر في اي شيء يطرأ على ذهنك ثم تخبر كل الحاضرين به «فيشاركونك» في آلامك وامالك يفرحون لفرحك ويحزنون لحزنك وهكذا ، والمفروض ان الاتصال الجسدي يزيد من حرارة المشاركة ولكنها تظل على الرغم من ذلك مشاركة لفظية محضة تذكر المرء بالتقارير العاطفية المطبوعة ايها ومذيعة التليفزيون الجالسة داخل الشاشة ترسل لك بتمنياتها الحارة وهي في حجرتها المكيفة بالهواء • فكنائس اللمس لا تكون مجموعات بشرية متماسكة بل هي اقـرب الى الجلسات العلاجية النفسية •

وقد تأخذ العبادة شكل التداعي الحـر حيث يجلس المصلون يحكي كل عما يقلق باله ، فيحـاول بقية الحاضريـن بكل حرارة واخلاص «مساعدته» في حل مشاكله • وقد ذهبت مع ابن صديقي لحضور احدى هذه الجلسات وحاولت مرة اخرى ان ادخل عنصرا سياسيا تاريخيا على هذه الجلسة الروحية النفسية فأخبرت المصلين ان مشكلتي تتلخـص في انني مصـري عربي يعاني من العدوان الاسرائيلي على فلسطين ومصر ، وان هذا هو سبب حزني وتعاستي الشخصيتين (والله وحده يعلم انني لم اكن كاذبا او مزيفا في قولي هذا) • فاخبرني احد الحاضرين انه عن طريق الحب يمكن حل كل المشاكل فاستفسرت عما اذا كان ذلك يتضمن المشاكل الدولية فكانت الاجابة بالايجاب •

وتحاول بعض الكنائس ان تخلـط العبادة بالهوايات او حتى الانحرافات الشخصية فهناك على سبيل المثال كنيسة « المنزلقين على

الامواج » ، والانزلاق على الامـــواج هواية رياضيــــة شائعة في كاليفورنيا استوردت من جزر هاواي · اذا مــا اصبحت عضوا في كنيسة المنزلقين هذه فستمارس رياضتك المفضلة بعد ان تضفي عليها هالة من القداسة والروعة وبالتالي تصبح الهوايـــة دينا ، والدين هواية · ولتحقيق هذا المحال كل ما عليــــك ان تفعله هو ان تقول « الحمد لله يا الهي لكرمك نحونــا ولكـــل الامــواج الرائعة التي ترسلها لنا » · وتقول مجلــــة تايم ان مايك وندر بطل الانزلاق على الامواج وجد « الموجة المثالية » في هاواي ، الموجة التي يتمناها كل منزلق قديم ، ولكنها لم تدخل السعادة على قلبه مما جعله يشعر بأنه ينقصه شيئا ما ، ومن هذه اللحظة بدأ طريق العودة للمسيح ، وهناك ايضا الآن كنائس للشواذ من الجنسين يرأسهـــم قس يعانـــي او يتمتع بنفس الشذوذ الذي يتسم به اعضــاء كنيسته وهو الذي رسم نفسه بنفسه قسيسا كما هو الحال مع معظـم هذه الكنائس النفسية المستقلة الحرة ·

وقد يبدو هذا غريبــا علينا بعـــض الشيء ، مسلمين كنا ام مسيحيين ، لاننا ننظر للتجربة الدينيــــة على انها ليست بالضرورة مصدر سعادة خالصة ودائمة ، بل هي ايضا مصدر قلق وتساؤل بل وصراع ينجم عن محاولة فرض المثال على الذات الانسانية ، ولكن اذا كان الهدف من العبادة هو النشوة وراحـــة البال فان مثل هذه الكنائس تحقق الغاية المنشودة منها الى اقصى حد ·

وكما قال لي احد اصدقائي ان التحليـــــل النفسي هو الدين الوحيد في الولايات المتحدة ، فمن وجهة نظـــر سيكولوجية ليبرالية لا يمكنك ان تصدر احكاما اخلاقية او فلسفيـــة مـــن اي نـــوع على اي فرد ، فغاية المجتمع هي اراحة اعضائه نفسيــــا عن طريق تدريبهم على فن التأقلم مع الواقع (كما هـــى) وتحقيق الطمأنينة والثقة الكاملتين في النفس (وهي نفس لا وجـــود حقيقي لها لأنها متأقلمة مع الواقع مندمجة فيه منسجمة معه ومنه) · وقد نجحت حركة اهل يسوع في تحقيق الطمأنينة الداخلية والانسجام لاعضائها مما

جعلهم يتغلبون على وباء المخدرات المنتشر في الولايات المتحـدة . ولكنها في الوقت ذاته حولتهم لافـــراد احاديي الرؤية وشخصيات جامدة ورجعية ·

وهذا هو سر بهجة آلهة مجتمع السلـــع التي رحبت بالعبادة الجديدة وحققت عن طريقها ارباحـــا خياليـــة (والشباب من اهم القطاعات الاستهلاكية في المجتمـــع الامريكي) فهناك الاعلانات المسيحية الملونـــة التي تعلقها على جـــدران حجرتك ، والقمصان والازرار المسيحية التي تعلن بها عن هـــويتك الجديدة ، والاغاني والمسرحيات المسيحية التي تسري عنك ، بل وهناك ساعة يد مرسوم عليها وجه المسيح ويقوم هـــو بنفسه بالاعلان عنها في التليفزيون (والعهدة على الراوي لانني لم ار هذا الاعلان بنفسي وان كنت قد رأيت الاعلانات والقمصان والازرار والساعة نفسها) · وهكذا ما بدا على انه تمرد ضد مادية المجتمع الامريكي وقيمـــه ، وقع في براثن المنطق الفردوسي الرجعي ثم في قبضة آلهة السلع التي لا ترحم ·

٤ ــ انتحار المسيح في برودواي

ثمة تيار عملي قوي يسري في التفكيـر الديني المسيحي في الولايات المتحـدة ، فالبيوريتانيـون ، شأنهـم في ذلـك شأن بعض الطوائف البروتستانية المتطرفة ، كانـوا يتصورون انـــه اذا رضي الله عن فرد فانه يصيب من النجاح المادي والتجاري الشيء العظيم (وهكذا يصبح الدين اتجارا والاتجار دينـــا ، وهذا سمة اساسية في التجربة الدينية البورجوازية سواء في امريكا او مصر) ·

وقد نجح اليمين الامريكي في ان يحول قصة المسيح ، ان كان ميلاده او صلبه او بعثه ، الى ما يشبه قصة الرجل العصامي الناجح الذي تنتهي حياته التعسة «نهاية سينمائية سعيـدة» وهي نهايـــة سعيدة يلقاها ايضا اي مؤمـــــن ورع ، وقد اطلق بعض المتمردين اصطلاح المسيح «وعشرة في المائة» على هذا الضرب من التـديـن التجاري الذي يرى ان الايمان تجارة مربحة يقبض ريعها في هــذا العالم (وفي الفردوس الاصلي) والذي يحول التجربة الروحية الى شيء كمي يمكن ان يقاس ويحسب بالمليم ·

وتمثل حركة اهل يسوع تمردا على هذه العقلية التجارية ولكن حتى هذا التمرد يمكن تحويله الى استثمار مالي مربح • وهذا ما كانت تفكر فيه برودواي ـ حي المسرح في نيويورك ـ حينما استولت على قصة المسيح وحولتها الى مسرحية غنائية عنوانها «يسوع المسيح : النجم الاعظم» • وقد كتب اغاني المسرحية تيم رايس ولحنها اندروبر ، وكلاهما كان مغمورا قبل الاشتراك في هذه المسرحية ، واخرجها توم اوهرجمان الذي اخرج من قبل مسرحية «هير» (شعر) • والمسرحية تعالج موضوعا قديما مطروقا ، الصراع بين الروح والمادة مستخدمة قصة حياة المسيح في ايامه السبعة الاخيرة ، بعد اضفاء مسحة عصرية عليها وبعد استبعاد عديد من المشكلات اللاهوتية مثل الوهية المسيح وبعثه من قبره بعد صلبه •

والاشارة في عنوان المسرحية الى «النجم الاعظم» لها مدلولات ثلاثة :

اولا ـ مدلولها المسيحي التقليدي على ان المسيح هو النجم الذي ظهر في بيت لحم •

ثانيا ـ مدلولها العام ، فالنجمة تظهر في الظلمات لتبددها فهي رمز للروح التي تصارع قوى الظلام والشر •

ثالثا ـ مدلولها المعاصر بمعنى ان المسيح نجم سينمائي لامع يستحوذ على اعجاب الجماهير مما يجعلها مهووسة بحبه •

تفتح الستارة على يهوذا الاسخريوطي يحاول الفكاك من اربعة رجال يرتدون ملابس غريبة في لون العنكبوت ، وهم في سلوكهم يشبهون ربات العذاب في الاساطير الاغريقية • ويظل الاربعة يضيقون على يهوذا الخناق الى ان يستسلم لهم ثم يبدأ في غناء الاغنية الافتتاحية «السماء في عقولهم» :

لقد صفا عقلي الآن ـ اخيرا ارى بوضوح كيف سينتهي بنا الامر•
اذا نزعت الاسطورة من الرجل لعرفت كيف سينتهي بنا الامر •
يسوع ! لقد بدأت تصدق
ما يقولونه عنك •

انك حقا لمؤمن
بأن هذا الحديث عن الالوهية حقا ٠
وكل الخير الذي انجزت
سميعا ما سيجرفه التيار ٠
لقد بدأت تفوق في اهميتك
الاشياء التي تقولها ٠

ان يهوذا الاسخريوطي غير راض «ان تتجسد» الفكرة في شخص انسان محسوس ، لان التجسد يعني ان ترتدي الفكرة الكاملة والمثال المجرد رداء انسانيا محسوسا يقلل من كمالهما ويدنس من طهرهما ، وهو تحول تحيطه الاسرار ولا يمكن للعقل التجريبي تقبله بسهولة ، وقد يقال ان الانسان العملي لا يمكن ان يكون تجريديا ، وفي هذا خطل في الرأي ، فالانسان العملي ضيق الرؤية لا يحب ان يتعامل الا مع ما يمكن قياسه بالارقام (النقود والكميات والمساحات) والارقام هي اكثر الاشياء تجريدا لانها مجرد علامة تشير الى الشيء المحسوس وتحل محله ٠

اما الانسان الكريم رحب الرؤية المؤمنبالانسان فانه على استعداد لتقبل الظواهر المركبة التي قد تختلف عن رؤيته هو ، كما انه على استعداد للايمان بالحب والعدالة والجمال على الرغم من انها قيم لا تقاس ولا توزن وليس لها ثمن معروف او غير معروف ٠ ويهوذا الكمي الذي يحسب حساب كل شيء يحذر المسيح من ان يجعل نفسه «المسيح المنتظر» وعن ان يوقد نيران الحماس الديني بين الجماهير:
اعر اذنا صاغية لوعيدي يا يسوع ،

بالله فلتذكر انني اريد ان نستمر كلنا في الحياة ،
ولكن من المحزن ان ارى فرص بقائنا تضعف مع كل ساعة ،
فكل اتباعك على عيونهم غشاوة ٠

خيمت السماء على عقولهم اكثر من اللازم ٠
كم كان الامر جميلا ولكنه اصبح الان مريرا ،
نعم لقد اصبح كل شيء مريرا ٠

ان السماء التي لا يمكن ادراكهـا بالحواس الخمس هي رمز السمو الذي يعذب وجدان يهوذا التجريبي الذي يقف بالمرصاد لكل عاطفة غير مقننة · فحينما تربت مريم المجدلية على شعر المسيح يثور ويزمجر صاحبنا المتدبر ويتهم المسيح بعدم الاتساق المنطقي مـع نفسه لان مصاحبته للمجدلية لا تتفق مع ما يدعو اليـه · ويهـوذا ثوري ولكن ثوريته منحصرة في نطاق رؤيته الاقتصادية الضيقة ، ولذلك فهو يعنف المجدلية لتضميخها المسيح بالعطور · الم يكن في مقدورها ان توفر النقود التي انفقتها على المراهم والعطور لتعطيها للفقراء والمعوزين ؟ وحتى حينما تهزم يهوذا عاطفة حبه للمسيح فانه يستنكر هذا الحب ويتعجب كيف يمكن لرجل مثل هذا ان يؤثر فيـه وان يبعث في نفسه الخوف والرهبة · ثم يتساءل عما اذا كان سيدعه وشأنه بعد ان يصلب ام ان شبحه سيظل يطارده ؟ وتختلط الامـور امام يهوذا ويتركه صفاء عقله كلية بعد ان يسلم المسيح الى قاتليه من اجل «الصالح العام» ، وينتهي به الامر الى شنق نفسه بعـد ان يفشل في رؤية الروح المتجسدة وبعد ان يرضخ للسر · ولكن حتى بعد ان تصعد روحه الى الرب فانه لا يكف عن الجـدل والنقاش فهو يعاتب المسيح لتركه الامور تسير دون اية ضوابط او تخطيط علمي، بل انه يعيب على المسيح اختيـاره ارضا غريبـة وحقبة تاريخية متخلفة لينشر رسالته في الارض :

لو اتيت في عصر كهذا لوصلت كلمتك للامة باسرها ·
فاسرائيل في السنة الرابعة قبل الميلاد لم يكن فيها وسائل اعلام جماهيرية ·
لا تسيء فهمي ــ فأنا لا انشد الا المعرفة ·

ان يهوذا دائب البحث دون كلل ودون نهاية عن معرفة يقينية عملية ·

ويهوذا ليس وحده في هذا الشان فكهنة اليهود يفشلون ايضا في فهم يسوع وما يبشر به ، فكل الامـر بالنسبـة لهـم ان هـو الا «الجنون اليسوعي»الذي هو استمرار للجنـون الذي بدأه يوحنـا المعمدان « حينما كان يقوم بحكاية التعميد اياهـا » عـلى حد قول

الكاهن الثالث في المسرحية · وكما قتل يوحنا المعمدان لتحديه البيروقراطية الدينية لا بد وان يقتل ايضا هذا النبي الجديد ، اذ كيف يتأتى لهؤلاء الكهنة ان يقبلوا فكرة النبوة الخلاقة وهي فكرة تنطوي على ان الانسان ليس عبدا لحواسه او بيئته وقد لا يؤمن الانسان بامكان حدوث المعجزات لا في الحاضر ولا في الماضي ولكن المقدرة على الاتيان بالمعجزات في هذا العمل الفني هي رمز المقدرة على الارتفاع على الحواس وعلى المواصفات الاجتماعية السائدة ولهذا يكون في رفض الكهنة اليهود للمعجزات وفي كرههم لها دليل على انهم جسد بلا روح ·

والجماهير في الخارج ساخطة صاخبة لا تلوي على شيء تنادي على معبودها «النجم الاعظم» :

هيي ي· م· لماذا لا تبتسم لنا
الحمد لله الحمد ، هيي يا نجمنا الاعظم !
يا مسيح انت تعرف انني احبك
الا ترى لقد لوحت بيدي ؟
اني اؤمن بالرب
فلتخبرني اذن انني كتب لي الخلاص ·

ولكن الجماهير الوالهة لا ترى سوى نجمها السينمائي العظيم وهي مولعة باختصار الاسماء على الطريقة الامريكية (ي · م· اختصار يسوع المسيح) لانها جماهير عملية على عجلة من امرها تصر على الخلاص الفوري المربح · وحتى المرضى هم ايضا يهاجمون المسيح ، كل يطلب معجزة فورية تأتي له بالشفاء الناجع·

هل لك ان تلمسني لتشفيني يا مسيح ،

هل لك ان تقبلني ، هل لك ان تتصدق علي يا مسيح ؟

ان المسيح بالنسبة لهم هو الساحر/الطبيب القادر على القيام بالحيل وعلى الاتيان بالشفاء العاجل، اما المغزي الروحي والانساني العام لحياته وآلامه فهذا ما لا يمكنهم ادراكه · وحينما يقبض عليه

فهذا لا يسبب اي اسى لهم فهم يرون محاكمته على انها مجرد فصل اخر في فيلم سينمائي مثير ، بل ويذهبون الى حد المطالبة برقبته والتحدث اليه باستخفاف شديد :

اخبرنا يا مسيح ما هو شعورك الليلة
هل تنوي ان تصمد ؟
هل تفكر في التقاعد الان ؟
ام تعتقد انك سيرتفع مقدارك ؟
وما رأيك في محاكمتك المقبلة ؟
تعال معنا لترى الكاهن الاكبر ،
فانت سيروق لك منزله للغاية ،
وسيروق لك كذلك الكاهن ذاته
وستموت في منزل الكاهن الاكبر ٠
انت عليم بيقين مؤيديك
من انك ستهرب في اللقطة الاخيرة من المنظر ٠

ان الجماهير باستخدامها لغة وصورا تذكرنا بلغة وصور العصر الحديث تنقلنا من ايام المسيح لايامنا هذه ، وبالتالي فالمسرحية تدعونا لان نرى انفسنا على اننا شركاء في الجريمة ، فان المسيح هو رمز البطل الذي لا يزال عليه ان يدفع دمه ثمنا لبطولته واصراره على انسانيته وحريته ورؤيته ٠

والحواريون انفسهم لا يختلفون عن الجماهير او الكهنة او يهوذا فهم ايضا يطاردون المسيح باسئلتهم وبرغبتهم في المعرفة اليقينية وهم لا يجدون اية اجابة لتساؤلاتهم ، ولكن حينما يعلمون ان المسيح على وشك ان يصلب تغوص كل محنهم والامهم النفسية في بركة هادئة من الخمر والدم ، ويبدأون في استخلاص العظات والعبر من حياة هذا الرجل المصلوب ويفكرون جديا في التقاعد ليكتبوا الاناجيل «حتى يستمر الناس في الحديث عنا بعد موتنا «ان المسيح بالنسبة لهم نجم اعظم وتكئة لتحقيق اهدافهم العملية المباشرة ، فهم عن طريقه سيصيبون الشهرة والخلود ٠ »

في وسط هذا الضجيج والصخب والضوضاء الرتيبة توجد ثلاث شخصيات لها ابعاد انسانية اصيلة : المجدلية وبيلاطس والمسيح نفسه ·

اما المجدلية فهي فتاة طيبة القلب تجمع في شخصيتها بين الام والحبيبة ، فبينما يمزق الحواريون المسيح باسئلتهم عن «اين ومتى ومن وكيف» هي وحدها تحاول ان تهدىء من خاطره :

كل شيء على ما يرام ، نعم كل شيء طيب ،
ونحن نريدك ان تستغرق في النوم الليلة ،
ولندع العالم يدور بدونك الليلة ،
اغمض عينيك ، اغمض عينيك ،
اهدأ واسترح ولا تفكر في شيء الليلة ·

ورغم ان المجدلية ترى مثل يهوذا ان المسيح ، في كثير من الوجوه ، مجرد رجل اخر ، الا انها تحس انه رجل ليس مثل كل الرجال ،و لذلك فهي لا بد وان تحبه بطريقة جديدة فريدة تتناسب مع شخصيته · وهي تدهش من التحول النفسي الذي طرأ عليها ، فقد كانت دائما باردة هادئة لا تخضع للحب او اهوائه ، كانت دائما سيدة الموقف او المنظر على حد قولها (والصورة السائدة في المسرحية هي صورة العالم كفيلم سينمائي) · وكانت مثل الاخرين عملية الرؤية تسيطر عليها الرؤية الاجتماعية السائدة ، وفجأة يبعثها حب المسيح من موتها النفسي والانساني ، ولكنه على الرغم من ذلك يخيفها ويدخل على قلبها الرهبة لان حبها له يملك عليها شغاف قلبها ويخرجها من الانغماس في عالم التدبر والحساب والخطط والحيل والفضائح والشهرة والنجوم السينمائية المتألقة فنجمها هو رمز الحب والخير والجمال · ان هذه المحبة الوفية والام الرؤوم تقف وحدها مع المسيح ساعة محنته حتى بعد ان باعه احد اتباعه وانكره آخر ·

واذا كانت المجدلية تصل الى خلاصها عنطريق الحب فبيلاطس الوثني الروماني لا ينشد الخلاص اساسا ، بل يرى عدم جدواه

واستحالته وعبث محاولة البحث عنه ، ومن هنا كانت نسبيته واشمئزازه من اليهود ومن الجماهير الصاخبة التي تطالب بدق عنق المسيح . ان بيلاطس لا يبحث عن الله ولكنه لا يهبط الى مستوى الرؤية الاحادية العملية الضيقة لانه ليس له ولاء محدد لاي شيء وان كان عنده احساس بانسانية المسيح . يرى بيلاطس فيما يرى النائم ان هناك رجلا من الجليل تبدو على محياه نظرة الفريسة المطاردة ، فيسأله المرة تلو الاخرى كيف وصل به الامر الى هذا الحد ؟ ولكن الجليلي لا يتفوه بكلمة ، ثم تمتلىء الحجرة بآلاف الرجال المتوحشين الساخطين المفعمين بكره هذا الرجل ، ثم يرى بيلاطس بعد ذلك مئات الملايين التي تبكي وتنتحب من اجل الجليلي ويلقون عليه هو اللوم لصلبه . ويحكي هذا الحاكم الروماني قصة الحلم بلغة بسيطة تنم عن الاشمئزاز والدهشة من هذا الهوس الديني الزائد الذي لا يمكنه ان يسبر له غور ، وهو في عزلته يشبه في كثير من الوجوه الجليلي الحزين . ومما يؤكد ذلك الموسيقى الحزينة التي صاحبت اغنية «حلم بيلاطس» والتي توحي للمستمعين بان ولاءه ، ان كان عنده اي ولاء ، انما يتجه الى المسيح الى حد كبير .

وحينما يتحقق الحلم ويؤتى بالجليلي سجينا لمحاكمته يحاول بيلاطس مقارعته الحجة بالحجة ، فيخبره المسيح انه يبحث عن الحقيقة فيجيبه الروماني :

ولكن ما هي الحقيقة ؟ هل الحقيقة قانون ثابت ؟
لكن منا حقيقته ، فهل الحقيقة بالنسبة لي ولك نفس الشيء ؟

ثم يلتفت الى الجماهير ليخبرها ان المسيح قد يكون مجنونا من الواجب وضعه في السجن ، ولكن هذا ليس بسبب كاف لتدميره كلية :

انه رجل صغير حزين
وما هو بملك وما هو باله
وما هو بلص ـ اني محتاج لجريمة ارتكبها هذا الرجل كي اضعه في السجن .

ولكن المسيح يعرف انه لا امل ويعرف ايضا انه من الافضل الاستسلام ، فلا بيلاطس ولا غيره بقادرين ان يفعلوا شيئا ... فكل شيء ثابت لا يمكن تغييره ·

والايمان بثبات الاشياء كلها وبعبث محاولة تغييرها عن طريق الكفاح السياسي او الاجتماعي او حتى الفردي هو احدى الركائز التي تستند اليها فلسفة الهيبي واهل يسوع ، وهذا موقف ينتج عنه السلبية المطلقة والدوران حول المثاليات الميتافيزيقية الثابتة · ويبدو ان مسيح هذه المسرحية حتمي متطرف في رؤيته ـ فحينما احتج يهوذا على اسراف المجدلية ، يعنفه يسوع لضيق افقه ولكنه يسوق له المنطق التقليدي انه ليس لدينا الامكانيات الكافية لاطعام كل الفقراء وانه سيكون هناك فقراء دائما · وعلى عادة الهيبي فان هذا الاحساس القدري يؤدي به الى دعوة يهوذا والاخرين الى الاستمتاع بحياتهم «الان وهنا» ، وبالحب الذي يغدقه عليهم · والمسيح نفسه يقبل دعوة المجدلية ان « يدع العالم يدور بدونه الليلة » لانه اذا كان العقل الانساني عديم الجدوى فكل الامور متساوية · ولكن الى جانب هذا المسيح يوجد مسيح السيف الذي يدخل المعبد ليطرد التجار والمرابين :

معبدي لا بد وان يكون بيتا للعبادة ،
ولكنكم حولتموه الى وكر للصوص والكهنة ·

وهو يكره التجار والنفعيين والوصوليين والكهنة الذين حولوا الحياة كلها الى سوق كبيرة ـ وهناك ايضا المسيح المنشود الذي يؤمن بالمعرفة الحدسية والذي يؤمن بانه حتى لو سكتت كل الالسنة فالصخور والاحجار ذاتها ستبدأ في الشدو ·

وهو الى جانب كل هذا انساني عميق الانسانية تمزقه معرفته بخيانة اتباعه له :

تصبح النهاية اكثر قسوة
حينما يسببها الاصدقاء ·

الا تعلمون ان هذا الخمر قد يكون دمي ·
الا تعلمون ان هذا الخبز قد يكون جسدي ·
النهاية !
هذا هو دمي الذي ترشفون ،
هذا هو جسدي الذي تأكلون ·
آه لو تذكرونني حينما تشربون وتأكلون ·
انظروا الى وجوهكم الجوفاء ان اسمي سوف لا يعني شيئا لكم
بعد عشر دقائق من موتي ·
احدكم ينكرني ،
والاخر يخونني ·

وتمزق المسيح هو علامة احساسه بنفسه كارادة مستقلة واعية ولذلك فهو يسائل ربه عن معنى نهايته وصلبه،وهل كانمن الحتمي ان ينتهي هذه النهاية وما المبرر لهذه التضحية ؟ وحينما يذعن اخيـرا لارادة خالقه فاناذعانه تلفحه لفحة احتجاج قوية وانكانت مستترة:

حسنا سأموت
ولكن انظر الي لحظة موتي ·
انظر كيف اموت ، فلتثبتني بالمسامير ،
سأشرب كأس سمك على الصليب ، ولتكسر عودي ،
ولتنزف دمي ، ولتضربني ، ولتقتلني ، ولتأخذ روحي الان –
قبل ان اغير رأيي ·

وهكذا يمزق المسيح قناع الهيبي الغارق في اللحظة والباحث عن الراحة الابيقورية · ولكن هذا الجانب المتمرد عبارة عن لمسات لا تغير من البناء الاساسي للشخصية،فالمسيح يظل هيبيا اولا واخيرا، منحصرا في تجربته الذاتية وفي تأملاته وفي عالمه المستقـل عـن الناس والمجتمع ، وهذا يضع الصلب في اطار جديد اذ يصبح نتيجة حتمية لوقوف البطل وحيدا في مواجهة اتباعه واعدائه · بـل انـه يمكن رؤية الصلب في هذه المسرحية على انه نوع مـن الانتحـار (خاصة وانه لا يتبعه بعث) ·

والانتحار يعد شكلا رومانتيكيا من اشكال تحقيق الذات ، بل هو اعلى هذه الاشكال لانه الفعل الذي لا تمليه سوى الارادة الذاتية المطلقة ، وهو النقطة التي لا اوبة منها ولا رجوع ، انه السرمدية بعينها (بل انه الفردوس والجحيم الان في الواقت ذاته) • ولعل هذا ما كان يعنيه يسوع حينما يخبر سيمون انه لا احد : لا سيمون ولا الالاف المؤلفة التي تهتف باسمه ولا الرومان ولا اليهود ولا يهوذا ولا الحواريون ولا الكهنة ولا الكتبة ولا اورشليم نفسها يفهمون ما هي القوة وما هو المجد :

كي تهزم الموت ، يجب عليك ان تموت وحسب ،
يجب عليك ان تموت وحسب •

ان الموت الذي يشير اليه يسوع في هذه المسرحية ليس هو الموت الرمزي اللازم لدخول الحياة المسيحية الكاملة ، ولا هو الموت الذي يسبق الحياة الاخرة ، انما هو فناء كامن لا بعث بعده ينهي كل الالام والامال •

وقد حاول المخرج ان يضفي ضربا من الوحدة على عناصر المسرحية المتضاربة سواء كان العنصر الدنيوي الحديث او العنصر المسيحي التقليدي او العنصر المسيحي الهيبي ، فحول المسرحية الى مجموعة من الصور الرائعة الجمال التي ليس لها محتوى واضح والتي تحاول التأثير في المشاهدين بشكل مباشر وان تترك في نفوسهم اثرا عميقا محسوسا لا اثر للفكر او النظرية فيه ، اي انه حاول تخطي المحتوى الفكري عن طريق الصورة المحسوسة المتكاملة• وتوم اوهرجان مخرج المسرحية مغرم بما يسمى «الوعي الخرافي» (في مقابل «الوعي الحديث»)فالانسان صاحب الوعي الخرافي لا يفكر ولا ينظر بل يستجيب استجابة المؤمن للطقوس الدينية التي يمارسها • وقد حاول تطبيق نظريته في اخراج هذه المسرحية بان اكد العناصر المرئية التي تغرق المشاهدين وتجعلهم يعيشون داخل الطقوس المسرحية وليس خارجها •

ومن اول وهلة نفاجأ بأن الستار عبارة عن جدار هائل ينزل الى الداخل ليصبح هو ذاته خشبة المسرح • ونكتشف ان الجدار

عليه خمسة رجال احدهم يهوذا والاخرون هم رمز وجدانه المعذب ، وتبدأ المطاردة والجدار لا يزال في وضعـــه الرأسي · وحينما يظهر بيلاطس فانه يدخل من باب على هيئة رأس قيصر ضخمة ذات خمس جباه وعشر عيون ، كل جبهة وعينين فوق الاخـــرى لتعطي احساسًا بعظمة وضخامة روما ·

والمسيح في احد المناظر يخرج من شيء يشبه الكرة بعد ان يمزقه، مما يوحي انه مثل الفراشة التي تخرج من الشرنقة ثم يرتفـــع الى علو شاهق بواسطة مصعد صغيـــر غيـــر مـــرئي لانه مغطى بـــرداء المسيح الذهبي الذي يصل طول ذيله حوالي ٢٠٠ متر على الاقـــل ، وقد بلغت تكاليف هذا الرداء حوالي ٢٠ الف دولار · وبعض المناظر تستحوذ على المتفرج وتجعله يشترك بكل عواطفه فيما يدور امامه ، ولكن بعض المناظـــر الاخرى تـــذكر الانسان بالتلفزيون الامريكي وبأفلام هوليوود الفخمة ·

ولكن المخرج مع ذلك لم ينجح بتاتا في حل المشكلة الاساسية التي واجهته : اعني ترجمة قصة المسيح الى صيغة امريكية معاصرة مع الاحتفاظ بصبغتها المسيحية · فالمسيح التقليدي كان في المسرحية ولكنه لم يمتزج بالمسيح الامريكي المعاصر ولذلك يظل المدلول الرمزي والاسطوري العام سطحيا ، ولا يتذكر القارىء او المستمع او المشاهد سوى لمسات رائعة وصورا شعرية جميلة ومناظر مدهشة ولكنـــه لا يعيش بتاتا رؤية متكاملة ·

الباب الثالث :

الانسان بين الأشياء والبراءة الاولى

حينما تغمض عينيك فانك تبصر لان الانسان له بصر وبصيرة، عين حسية ترى الاشياء واخرى حدسية تخترق السطح لتصل الى البنية الكامنة وطبيعة الوجود ٠ولاننا لا نقنع من الاشياء بسطحها ولا نرضى بالواقع كما هو فاننا دائما نحلم ٠ ويضيق نطاق الحلم ويتسع ، ويرتفع ويهبط ولكنه في ضيقه واتساعه وارتفاعه وهبوطه يعكس ما في داخلنا ويجسد هويتنا ٠

والحلم بالفردوس ، ذروة كل الاحلام ، هو ايضا لحظة الكشف الكامل ، فالفردوس هو نقطة «النجاح» التي يتحقق فيها كل شيء وننجز فيها ذواتنا الحقيقية كما نتخيلها متحررة من كل ضغوط اجتماعية وقهر تاريخي ٠ فان كان حلمك بالفردوس هو ثلاجة ومرسيدس تملكهما الان وهنا ، فهذه هي ذاتك في اقصى اتساع لها ٠ اما اذا كنت تحلم بمجتمع يمرح فيه بشر ناضجون اسوياء يحتفظون بشيء من البراءة الاولى وقادرون على الحلم دائما وابدا ، فهذه هي ايضا ذاتك في لحظة الكشف ٠

وقد حج الزعيم الامريكي الاسود مالكولم الى مكة المكرمة ، كما رحل الاديب الامريكي اليهودي بودورتز من بروكلين الى مانهاتن ومنها الى جزيرة الفردوس ، عاش كل منهما لحظته الفردوسية وكلاهما حقق نوعا من «النجاح» الذي كان يطمح اليه ـ فما هو هذا النجاح ؟ وماذا كان المثل الاعلى الذي تحقق ؟ ٠

١ ـ فردوس بودورتز المتشيىء

أ ـ العقد الاجتماعي الامريكي/اليهودي

حينما تصل الى نيويورك لا يمكنك الا ان تلاحظ الوجود اليهودي في كل مكان ، فنيويورك تحتوى على اكبر تجمع يهودي في العالم ٠ وهذه حقيقة تحز كثيرا في نفس الاسرائيليين والصهاينة

الذين يصدرون عن فكرة «وحدة الشعب اليهودي» والتي تفترض ان كل يهودي يحتوي على زمبلك ميتافيزيقي يدفعه نحو الفردوس اليهودي المفقود في ارض الميعاد · ولكن ها هي ذا الدولة اليهودية الموعودة قد انشئت ثم توسعت وتمددت وانفتحت وانكمشت ولم يعمل الزمبلك عمله ! ولم يتزحزح التلمود عن بابل الامريكية · ولكن ليس في هذا ما يدهش كثيرا ، فاليهود بشر رغم كل ادعاءات الصهاينة والمعادين للسامية ، وهم بشر خاضعون لنفس القوانين التاريخية والاجتماعية التي يخضع لها كافة البشر والاقليات والمهاجرون · ورغم انه لا يوجد منظمة لتهجير اليهودلامريكا ورغم ان الحركة الصهيونية العالمية منظمة تنظيما دقيقا ونشطة نشاطا بالغا الا ان مسار التاريخ الحديث قد دحض كل ادعاءات الصهاينة · فأكبر تجمعين يهوديين في العالم هما في الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي ، ثم تأتي اسرائيل بعد ذلك في المرتبة الثالثة ولا يكون سكانها الا اقل من ربع يهود العالم · ان عدد يهود الدياسبورا يفوق عدد يهود اسرائيل بمراحل ، وقل موتوا ايها الصهاينة بغيظكم !

وقد استقر اليهود في الولايات المتحدة وتقبلوا وضعهم الى حد كبير وقبلوا اسطورة «اتون الصهر» اياها بدرجة متفاوتة · وقد ترجمت هذه الاسطورة الى ما يسمى بالعقد الاجتماعي الامريكي / اليهودي الذي يتلخص في ان يهودية المواطن اليهودي هي امر خاص للغاية يجب ان يمارسه في المنزل وحسب او في المعبد اليهودي او المدرسة اليهودية ، ويجب الا يظهر اليهود في الحياة العامة اليومية كيهود · واذا حدث واضطر اليهود لاظهار هويتهم المستقلة فان هذا يكون دائما كرد فعل ، كما هو الحال في المظاهرات التي تحتج على معاداة السامية · ولم يرفض هذا العقد سوى الجماعات اليهودية المغالية في الارثوذكسية والذين وصلوا للولايات المتحدة بعد الحرب وصيغة هذا العقد لا تختلف كثيرا عن التصور اليهودي الاصلاحي عن وضع اليهودية ولا عن تصورات مفكري عهد الانعتاق والاستنارة في شرق اوروبا وغربها ·

وقد يكون من المفيد ان نذكر ان كثيرا من المفكرين والمثقفين اليهود في الولايات المتحدة يعتبرون انفسهم امريكيين بالدرجة الاولى ، واما مسألة كونهم يهودا فهم ينظرون على انها مسألة ثانوية تساهم في تشكيل وجدانهم دون ان تحدده او تحده . وكثير من اصدقائي الطلبة اليهود في الجامعة واذكر بالذات ستيفن ميلر الذي يكتب الان في مجلة **دسنت** وسينشر له ديوان شعر في لندن في الربيع القادم ، يرفضون كل المحاولات لفرض هوية مستقلة صوفية، فهم يقبلون يهوديتهم على انها عنصر ضمن عناصر عديدة تشكل رؤيتهم للواقع . وكثير من كبار مثقفي الهيود في امريكا يرفضون الصهيونية اما بشكل سلبي وذلك بعدم ذكرها بتاتا ، او بالحرب ضدها بشكل نشط . ومن بين هؤلاء نذكر الناقد الشهير ليونيل ترلنج (ليونيل كوهين‌ترلنج سابقا قبل ان يغير اسمه) الذي يصدر عن رؤية هيومانية علمانية ليبرالية ، ولذلك صرح عام ١٩٥٢ بانه ليس متعاطفا مع محاولات انشاء دولة يهودية . ولكن بعد مرور عشرين سنة على انشاء الدولة نجد ان المفكرين امثال ترلنج يوقع على المنشورات تأييدا لاسرائيل ضد «العدوان العربي» وضد محاولات القاء اليهود في البحر ، ولكن توقيعهم مثل هذه المنشورات لا يغير من موقفهم الفكري ، وانما هو رد فعل لبعض التشنجات العربية التي نجح الصهاينة في استغلالها ، واستسلام من جانبهم للصهاينة . ولكن ليس كل المفكرين اليهود مثل ترلنج فهناك فريق بينهم لا يزال يحارب ضد الصهيونية مثل العالم النفساني الشهير اريك فروم والعالم الاجتماعي دافيد رايزمان والعالم اللغوي الشهير نعوم شومسكي ، وكلهم رافض للفكرة الصهيونية وللتصور الصهيوني الواقع ، وبعضهم يعمل بنشاط ضد العدوان الاسرائيلي . ولعله قد يكون من الغريب بالنسبة للقارىء العربي ان يعرف ان جماهير الصهاينة النشطة هي اساسا الطبقة المتوسطة اليهودية التي تعود اصولها السلالية لشرق اوروبا ، اما المثقفون‌والمفكرون اليهود فهم نادرا ما يلعبون دورا صهيونيا ويكتفون بالتوقيع على المنشورات الصهيونية التي لا تنتهي ، تأييدا لهذا واستنكارا لذاك . واي قارىء لمجلة **ميدستريم** الصهيونية سيجد ان كتابها صهاينة محترفون وليس

من بينهم اسم واحد ذا مكانة قوميةفي امريكا • اما كتاب المجلةاليهودية كومنتاري فقليل منهم احرز شهرة قومية ، وهذه القلة عادة ما يكون اهتمامها منصبا على قضايا عامة وعلى المشكلة الهيودية في امريكا وليس على قضية «وحدة الشعب اليهودي» •

ب ـ تعليم اليهودي الامريكي

ومن الكتب اليهودية الامريكية التي اثارت ضجة في الولايات المتحدة كتاب السيرة الذاتية الذي كتبه نورمان بودورتز رئيس تحرير مجلة **كومنتاري** التي تشرف عليها اللجنة اليهودية الامريكية • واسم هذا الكتاب هو Making It والترجمة الحرفية لهذه العبارة هي «صنعتها» ولكن حيث ان هذه العبارة اصطلاحية فلتكن ترجمتنا لها هي «النجاح» • وقد نشر الكتاب اول ما نشر عام ١٩٦٧ ولكنه ظهر في طبعة ثانية عام ١٩٦٩ •

وتفكيرنا عن النجاح مرتبط بتصورنا لانفسنا ولدورنا في المجتمع وتوقعاتنا من هذا المجتمع او ليس النجاح هو توهمنا او ايماننا بان بعض اهدافنا او مثالياتنا ـ ان شئت ـ قد تحقق ، وهذه الاهداف والمثاليات هي التي تحكم سلوكنا وهي التي تحدد مدى تقبلنا او رفضنا لواقع ما ؟ فنحن قد نرى ان غاية الحياة هي ان نفعل الخير ونتحاشى الشر كما يقول سقراط ، او نأمر بالمعروف وننهي عن المنكر ، او ان نربي اطفالنا او نصطاد حسناء باهرة الجمال او ان ندمر او نعمر • «ومن كانت هجرته لله ورسوله فهجرته لله ورسوله ، ومن كانت هجرته لتجارة يصيبها او امرأة ينكحها فهجرته الى ما هاجر اليه» •

ان تصورنا عن النجاح هو اساس تصورنا لاشياء كثيرة ، والسيرة الذاتية التي بين ايدينا هي تاريخ للنجاح الباهر الذي يتصور كاتبنا انه احرزه • ولانها قصة نجاح نجد انها تكتسب مدلولا شاملا في الولايات المتحدة ، بل ان بودورتز يرى سيرة حياته على انها محاولة منه لتشخيص المواقف المتباينة بخصوص فكرة النجاح في الحضارة الامريكية ، فهي حضارة برجماتية تقدس

النجاح وتراه معيارا لكل شيء ، ولا شيء ينجح مثل النجاح كما يقول المثل الامريكي ، وعبادة ربه النجاح ، هو المرض القومي الاول في الولايات المتحدة • ثم يضيف بودورتز قائلا «لكن الولايات المتحدة من ناحية اخرى انتجت ادبا يحتقر فكرة النجاح كما انها حضارة تسعر من جوع الانسان للنجاح ثم تحرمه من ان يجابه رغباته ويجني ثمرة تحقيق امانيه» • ولا ادري ماذا يعني الكاتب من هذه العبارة الاخيرة على وجه الدقة ، ولكن على اية حال حتى لو كانت هناك دلالة عميقة لهذه العبارة، وحتى لو كانت تشخيصا لجانب آخر من المفهوم الامريكي للنجاح فان الكاتب قد اسقط هذا الجانب من اعتباره تماما اذ انه يصرف كل قواه لمعالجة الجانب الاول وحسب ، وهو بهذا يدل على انه امريكي عادي او متوسط «مدل امريكان» اكثر مما يتصور •

ويعتقد كاتب السيرة انه مرشح اكثر من غيره كي يعالج قصة النجاح النموذجية لانـــه ولد في شرق اوروبا اليهودية من ابوين يهوديين هاجرا من شرق اوروبا ، والمهاجرون اليهود الى امريكا كما يخبرنا هو نفسه ـ تدفعهم رغبة جامحة وشهوة شديدة للنجاح ـ اي انهم اكثر من اي فريق آخر يبلورون هذا الجانب من الشخصية الاميركية • فالنجاح بالنسبة لها كان هو كل شيء • وكان يعني الحصول على المال الوافر والمكانة الاجتماعية اللائقة • ان « يهودية » بودورتز هي التي ترشحه لان يلعب دور «الامريكي» • فلنمعن النظر قليلا في هذه « اليهودية » •

كان ابوه رجلا محافظا على الطقوس الدينية لا عن اعتقاد ديني وانما عن التزام غريزي بما يسمى بالبقاء اليهودي ، وهو التزام لا يستند الى تبرير عقلي ولذا فهو اعمق وابقى من الالتزام التقليدي • وبينما كان معظم المهاجرين من شرق اوروبا اما اشتراكيين او صهاينة ، نجد ان ابا بودورتز كان متعاطفا مع الاشتراكية دون ان يكون اشتراكيا متطرفا ، كما انه كان صهيونيا دون ان يكون صهيونيا متحمسا ، ورغم انه كان يتحدث اليديشية (رطانة المانية سلافية دخلتها كلمات عبرية) طيلة حياته الا انه لم

يكن احد المدافعين عن التراث اليديشي • انه اب عادي متوسط كان يدافع بكل بساطة عن البقاء اليهودي وحسب بشكل لا يمكن تصنيفه وبطريقة انتقائية ، فهو كان متسامحا مع اي شكل من اشكال الوجود اليهودي طالما ان هذا الشكل «يهودي» بشكل محدد وواع بذاتــه • ولكن اي اتجاه نحو الاندماج ظاهرا كان ام مستتـرا كـــان يثيـر حفيظته ، فالمهم بالنسبة له ان تكون يهوديا • والوسيلة للوصـــول لهذا الغرض هو التعليم اليهـــودي ، ولا يهم بعد هذه التعريفات والايديولوجيات والتبريرات (فنلاحظ هنا علمنة اليهودية وكيف ان البقاء اليهودي اصبح مطلبا صوفيا لا يتطلب تعريفا او تبريــرا او سندا ايديولوجيا) • وارتباط الاب بمطلبه هذا امر عميق للغاية ، ميتافيزيقي في عمقه • وللتدليل على هذه الحقيقة يخبرنا المؤلف بهذه القصة الطريفة ، فقد قرر مرة مقاطعة الدراسة اللاهوتية لضيقه بها ، فداهمت اباه على الفور نوبة قلبية الزمته الفراش ووصلت بــه الى حافة الموت • ولكن عندما عدل الشاب المتوسط بودورتز عن موقفه ، وبعد ان اعلن انه سيستمر في دراسته اللاهوتية تحدث المعجـــزة ويشفى الرجل !

لكنما هو هذا التعليم اليهودي الذي «يصنع» اليهود ، والذي يفسر معجزة البقاء اليهودي ؟ يخبرنا بودورتز ان الغرض من هــذا التعليم لم يكن توسيع المدارك او تدريب العقول والحواس او حتى دراسة التراث اليهودي وانما كان الغرض منه هو تعميق الاحســاس باليهودية ، وكان الهدف الاساسي هو الابقاء على الكيان اليهودي •

ولكن بطل سيرتنا لم يتلق تعليما يهوديا وحسب وانمـــا ذهب لمدارس الاغيار ايضا ، فقد ذهب الى مدرسة ثانوية تلقى فيها العلوم الحديثة وهي مدرسة «مسزك» التي كانت تكره اليهود كراهية عميقة وتحتقرهم لقذارتهم وتخلفهم كما يخبرنا المؤلف • الا ان المسزك رأت ان عقله هو ، طفل الحواري اليهودية ، كان على جانب كبيــر مــن النضوج ، وان امكانياته ولا شك كبيرة • ولذا تبنته هــذه السيدة غير اليهودية ولمتطلب منه سوى انيتعلم طرق الحضارة الامريكية • ثم ذهبمؤلفنا اليهوديبعد ذلك الى جامعة كولومبيا وهيكانت لاتزال

جامعة «الواسب» او الهيود الواسب القادرين على اكتساب معارف الاغيار واخلاقهم وعاداتهم • واكتشف في هذه الجامعة ان هدف التعليم هناك هو كيف تصبح جنتلمان : في كولومبيا تعلم روائع الحضارة الغربية من هومر الى كافكا ، ولفرط دهشته اكتشف ان رحابة هذا التراث قد احتوت وضمت فيما ضمت تراثه اليهودي الخالص الذي كان يدرسه في المدرسة اللاهوتية وكأنه لا علاقة له بأي تراث انساني اخر • ولقد نجحت كولومبيا في ان تجعل منه جنتلمان رغم انفه ورغم كل محاولاته عدم التخلي عن هويته اليهودية • فهو كان يصر على ان يرتدي ملابس ذات طابع يهودي ، ويستخدم المصطلح الذي تعلمه في بروكلين ، الحي اليهودي ، ولكنه رغم ذلك بدأ يخوض تجربة التغير والتحول • لم تعلمه كولومبيا مجموعة من الاخلاقيات وانما غيرت ذوقه بأن اعطته تعليما راقيا رحبا ، وبهذا جعلت من العسير عليه ان يعود الى المكان الذي اتى منه • وحتى هذه اللحظة كان بودورتز يذهب الى مدرستين واحدة يهودية واخرى امريكية ، ولكن بعد تخرجه من كولومبيا حصل على منحة وذهب الى كامبردج حيث درس على يد ليفيس الناقد الانجليزي (المسيحي) الذي يصدر نقده عن استيعاب دقيق وحساس للحضارة الانجليزية وللتراث الادبي الانجليزي • ومن هذه النقطة اصبح تعليم بودورتز علمانيا وحسب •

ترك بودورتز بروكلين اليهودية وراءه وذهب الى مانهاتن المسيحية (قرة عينه) بلاد الطبقة المتوسطة العالية «وهو يعرف انه عضو في هذه الطبقة لا بسبب دخله وانما بسبب طريقة تنغيمه لكلامه ونوع الملابس التي يرتديها » (يذكرني اهتمام بودورتز بملابسه باهتمام هرتزل بنفس الموضوع ، فقد كان ينفق الساعات الطوال يفكر في اي بدلة يلبسها قبل ان يزور فلان الملك او فلانة الاميرة • وفي المؤتمر الصهيوني الاول كاد يبكي حينما رفض صديقه الزعيم الصهيوني ماكس نوردو ان يرتدي حلة رسمية !) اصبح بودورتز عضوا في الطبقة المتوسطة العالية بسبب طريقة تأثيثه لمنزله ونوعية المدارس التي يذهب اليها اولاده ــ انه ينتمي الى هذه الطبقة بسبب **مظهره**

(ظهور الانسان البلاستيك الذي يغير لكنته وضميره وقبعتــه دون مقاومة كبيرة ـ تماما مثل المهاجر الــذي يذهب مــن بلد الى اخر فينجح نجاحا باهرا لانه يسقط هويته القديمة ويكتسب مظـاهــر الهوية الجديدة ، اقول مظاهــر لان الهوية شيء لا يكتسب في ايام وشهور او سنين • وهذا هو الدرس المرير الذي يعرفــه علمـــاء الاجتماع الاسرائيليين) •

ترك بودورتز شرق بروكلين وذهب الى مانهاتن ، ورحلته ـ كما يخبرنا ـ ذات دلالة رمزية ،فكل سكــان هذا الحي اليهودي اما نجحوا في الذهاب الى مانهاتن مثله او ترقوا وذهبــوا الى لــونج ايلاند ، اما شرق بروكلين فقد تحولت الى جيتو زنجي •

وكان بودورتز طيلة تعليمه النموذج اليهودي الامريكي يشعر بالتحول التدريجي ، فقد لاحظ انه بدء يخجل من امه ومــن طريقــة حديثها باليديشية (هذه اللكنة الاجنبية التي حاول بطلنا اليهودي ان يتخلص منها باسرع وقت حتى يمكنــه ان يتمــم الرحلـــة الى الفردوس) • وفي الحي اليهودي كانوا يعلمون انه يبتعد عنهم رويدا رويدا • كانوا يقولون له : «بعد سنوات لن ترغب حتى في الحديث الينا ، ولن تعرفنا ان مررت في الشارع» وهو في براءة الطفولـــة كان لا يتصور ان مثل هذا يمكن ان يحدث • ولكن تدور الايام وتثبت مصداق قولهم : «لقد كان عندهــم بصيــرة سوسيولوجيــة ثاقبــة» (واحدى خصائص بودورتز انه كلما يشعر بالحــرج يختبىء وراء عبارات علمية رصينة ومحايدة) • ولكن هل خرج بودورتز حقا من الجيتو اليهودي العقلي هذا الجيتو الذي كان يحاول موسى مندلسون فيلسوف الاستنارة اليهودية هدمه ؟ يبدو أن التعليم اليهــودي او «فابريكة اليهود» يجعل هذا امرا عسيرا بعض الشيء ، فبطلنا منذ طفولته وصباه كان يعجز عن الذهــاب الى اي مطعــم يشاء بسبب قوانين الطعام اليهودية ، كما ان تعليمه المزدوج اليهودي الامريكي كان يضطره للذهاب الى المدرسة اليهودية بعد الدراسة وان يحضر بعض الفصول يوم الاحد مما يجعله مزدوج الشعور والولاء • ولكن الدراسة في المدرسة اليهودية مع هذا لها ما يعوضها في السيــرة الذاتية ، فقد حققت لبودورتز فرصة تحقيق نجاحين:واحد في الصباح

وآخر في المساء،اي ان النجاح كان «دوبل» ، كما ان مجموعة من بنات الحاخامات في حياته الدراسية جعلت حياته الجنسية عامرة خصبة وزدنه خبرة ومعرفة (ولا ادري بالضبط ما هي الدلالة السوسيولوجية لهذه الاشارة الاخيرة ، ولكني اوردتها لان كاتبها لا يذكر حياته الخاصة الا نادرا ، وهذه هي احدى اللحظات النادرة التي خشيت اضاعتها) ٠

بود ورتز اذن يهودي امريكي ، او امريكي يشعر بيهوديته ولذا فهو يتفلسف عن «مشكلته» اليهودية قبل ان يعرض لقصة نجاحه ! ولكن ما هي مشكلة اليهودي مع العالم ؟ ما هو سبب احزانه اليهودية الخاصة ؟ اقترح سول بولو (القصاص اليهودي الامريكي) ان مشكلة اليهودي تتلخص في انه لا يقبل العالم ولذلك فالعالم لا يقبله ٠ هنا يتوقف الراوي بود ورتز ليتفلسف قليلا وليؤرخ لليهود فيتحدث عن يهود عصر الانعتاق في اوروبا في القرن التاسع عشر الذين قال زعماؤهم : « اقبلوا العالم والعالم سيقبلكم ، اخرجوا من الجيتو وستجدون ان حوائط الجيتو الذي يحيط بكم تتساقط» ٠ ولكن، يقول الراوي ، اكتشف يهود المانيا (دائما يهود المانيا) وكل اوروبا ان المشكلة مشكلة الجانب الآخر (جانب الاغيار) المسألة لم تكن ما اذا كان اليهود سيقبلون العالم وانما عما اذا كان العالم سيقبلهم (ولنلاحظ الاستقطاب اليهودي القديم ـ شعب الشهداء في مقابل ذئاب الاغيار الذين لا يتوبون ، واذا تابوا عادوا بعد فترة لما كانوا عليه من جرم) ٠

ولكن لنعد لسيرة بودورتز الذاتية لنرى الترجمة الشخصية لهذا التعميم الفلسفي ، والتعميم الفلسفي الذي لا يستند الى قراءة للواقع هو ضرب من ضروب الغيبية ٠ ولنسأل الآن عمن يرفض من في الولايات المتحدة ؟ يذهب بود ورتز كما قلنا من قبل الى كامبردج (الدائرة الكبيرة) ، وحينما يعـود لقضاء اول عطلة صيفية في الدائرة اليهودية الصغيرة في منزل اسرته يشعر بالغربة شبه الكاملة بينه وبين ابويه ، فالتعليم المسيحي او العلماني ولا شك قد فعل فعله واتى اكله ، ولكـن ممـا زاد التوتر بـل ووصل به الى درجة

لا تحتمل هو اعلانه نيته انه سيتزوج من فتاة غير يهودية (يا للهول! هذه هي قضية القضايا ومشكلة المشاكل ومأساة المآسي بالنسبة للام اليهودية حامية حمى « البقاء اليهودي ») ٠

نعم نحن نعرف موقف الأم اليهودية ، ولكن ما موقفه هو خريج كولومبيا وكامبردج ؟ لنترك له المسرح ، فلندعه هو يتكلم ولنترجم هذه الكلمات حرفيا مكتفين بالتعليـــق بين الاقواس : « ان شكوك أبويّ (وليست شكوكه هو العلماني بالطبع) بخصوص هذه النقطة (الزواج المختلط) ان لم يكن بخصوص نقط اخرى لها جذور راسخة في معلومات تجريبية دقيقة » ٠ (ولنلاحـــظ محاولة الراوي مرة اخرى الاختفاء خلف لغة سوسيولوجية محايدة حتى يخفي تساقطه في احضان يهوديته الجيتوية) ٠ ثـــم يستأنف الراوي حديثه عن « الشيكسا » الابدية الازلية (وكلمـــة «شيكسا» يستخدمها اليهود للاشارة للبنات غير اليهوديات اللائي يحـــاولن التزوج من الشبان اليهود واللائي يقلقن مضجع الامهات اليهود (وليس مضجعه هـــو بالطبع) « انها الجنية الجميلة الشابة التي تغـــوي الشبان اليهود الابرياء فيسقطوا في احضانها بعد ان تستخدم حيل جنسية سرية لا يعرفها سوى الاغيار من الناس») ٠

هذه النبرة المتهكمة ، وهذا المصطلح المتحضر المحترم ، يضع الراوي العلماني في ناحية (مع قارئه العلماني) والام اليهودية في ناحية اخرى ، مما يجعلنا نتوقع مواجهة بين النور والظلام ، او على الاقل بين خريج كامبردج وامه اليهوديـــــة ٠ ولكنه يخيب ظننا اذ يضيف « في النهاية لحسن الحظ لكلينا لم نتزوج » ٠ وهكذا يحسم القضية وينتهي البطل في معسكر الام اليهودية التي كان يتهكم عليها منذ سطور ودقائق قليلة ٠ من يرفض مـــن ؟ ان التزاوج بين اعضاء الاغلبية والاقلية هو اكبر دليل على التقبل الانساني الكامل من جانب الاغلبية ، ان الانسان لا يمكنه ان يقبل ان يعيش بقيـــة ايام حياته مع انسان آخر الا اذا كان يعترف بانسانيته لا بشكل عام ونظري وحسب بل بشكل شخصي ومحسوس ايضا ٠ ولكن شغل اليهود الشاغل في الولايات المتحدة هو كيفية الحد من الزواج بين اليهود والمسيحيين

حتى ان احدى تنظيمات الحاخامات اخيرا اتخذت قرارا بطرد اي حاخام يقوم بعقد زواج مختلط ، وبودورتز في قراره لم يختلف بأي شكل عن امه الجيتويه او عن الحاخامات المتعنتين (وتذكر الخطيبة الشيكسا هي الحادثة الشخصية الثانية التي يذكـــرها الراوي في سيرة حياته الذاتية) ٠

والجيتو العقلي الذي يعيش فيه بود ورتز هـــو جيتو كامل شبيه مطلق فحينما يطلب منه رئيس الجمهورية (ل٠ ب جونسون) ان يذكر له ستة اشياء يهمه ان يرى الحكومة الامريكية تقوم بتنفيذها يقع في ورطة ، فهو دائمـــا في علاقتـــه بالعالم الخارجي لم يكن يشعر الا بالعجز ازاء ما يحدث وما لا يحـــدث ٠ وليفسر حالته النفسية هذه يشبهها بحالة اسلافه الذين كانوا يعيشون في الجيتو في شرق اوروبا « انا لم ابن (وهم ايضا لـــم يبنوا) هذا الجيتـــو ، ولكن الامر لا يستلزم مجرد هدم حوائط الجيتو كي اخرج منه وانما يتطلب اكثر من ذلك » ٠ (وهو ايضـــا يشبه في هـــذا الاسرائيليين من حيث لا يدري ، فهم ايضا لم يبنوا الجيتو الذي يحيط بهم من كل مكان ، ولكن من بناه ؟ هل نزل علينا من السماء ام ان رفـــض التاريخ والعالم والتعالى عليهما هو الاساس الذي ينبني عليه اي جيتو يهودي نفسيا كان ام فعليا ، فرديا كان ام قوميا ؟) ان المثقف الذي يعمل داخل الحدود الاجتماعية المعترف بها يشبه اليهودي الذي يخرج من الجيتو ويندمج مع الاغيار مثل هذا المثقف هو ولا شك المثقف الحقيقي ، اما من يقف خارج التاريخ مشمئزا من الآخرين (او الاغيار) فهو نموذج بشري مستمد من جيتو شرق اوروبا ٠

والاستعارات اليهودية تترى الواحدة تلو الاخرى في كتابات بودورتز ، فهو حينما يدعى لشقة فيليب راف ، احـــد الادباء اليهود المشهورين ، يعرف صاحبنا انه قد « وصل » ويشبه الحفـــل بطقوس البار متزفاه (بعد حفلة البار متزفاه يعرض على فتاة ان تذهب معه الى منزله ولكنها ترفض ، وهذه ثالث اشارة لحياته الخاصة) ٠

وحتى حينما يخرج الى العالـــم الخارجي ، العالم المسيحي الرحب اياه فهو يحمل في جرابه استعاراته اليهودية ٠ فالعالم الادبي

في نيويورك هو في جوهره « اسرة يهوديـة » ، ورغم ان كثيرا من الكتاب غير يهود الا انه يصر على استعارة الاسرة اليهودية • وحينما نبحث عن سبب التسمية نجد انه يسوق لنا اسبابا واهية ، فهي يهودية لان الاسرة اولا لم يكن عندها احساس بالانتماء لامريكا بل للعالم • ولكن اليس هذا احساس مشترك بين كل مثقفي العالم ؟ ولكن بودورتز داخل الجيتو اليهودي يتصور ان اليهودية هي مركـز كل شيء ولا يريد التزحزح عن جيتويته •

جـ ـ رحلة النجـاح

ولكنه هل يرفض حقا التزحـــــزح ؟ ان يهود الجيتو كانوا لا يتحدثون عن السعادة الارضية ، لقد كانت يهوديتهم تعني انهم شعب من الشهداء ، ولذا فقد كانوا يقضون جل حياتهم تحيطهم الطقوس اليهودية التي لا تنتهي ، ينتظرون وصـــــول الماشيح • ولكن بطلنا يقضي حياته في « اطول رحلة عرفها في التاريـخ » من بروكلين الى مانهاتن من الحي اليهودي الى الحي المسيحي ، وهي اطول رحلة رغم ان ما يفصل مانهاتن عن بروكلين هـــــو كوبري صغير لانها رحلة النجاح الامريكية ذات الدلالة الدنيوية العميقة ، رحلة يصبح بعدها اليهودي بطلا ناجحا بورجوازيا يتقبل القيم الاخلاقية التي تستند الى فكرة النجاح • ويعلن للملأ بأعلى صوت : « انا الآن رجل ، عندي اسرة ، ولي اسم ومكان (او ربما مكانـــــه) في العالم » (تصفيق حاد !)

وهو في قمة مجده يتذكر ايام الظلام والجاهلية الاولى حينما كان عند قاعدة الهرم ، يحكي لنا البطل الناجح انه كان يتحدث مرة مع نجمة سينمائية (تجسيد فكرة البطولـــة البورجوازية) حينما جاءت نجمة اخرى • ولكن بودورتز الخام الجاهل استمر في الحديث ناسيا مكانه ومكانته ، فاذا بالنجمة الاولى تصيح قائلة : « فلتتركنا يا غبي فانا الآن اتحدث مع من يناظرني ـ مع واحد من مكانتي » • ولا يعترض بود ورتز على الموقف ذاته او على اساسه الاخلاقي بل يقصر اعتراضه على قسوة الكلمات وصياغتهـــا وحسب ـ اي انه

يقبل هذه الهرمية الجامدة اللااخلاقية . هذا هو عالم السوق ـ من كل حسب ثروته الى كل حسب مكانته وقدرته على هزيمة الآخرين . ونحن حينما نقول «السوق» فنحن لا نقول ذلك من باب المجاز ، وانما نعني ذلك حرفيا ، فهو في تسلقه الهرم نحو النجومية واللمعان يكتشف قوانين السوق ويعرف ما يسمى برياضيات « الشهرة » وحساباتها ! كما يكتشف ما يسميه « بورصة الشهرة » في نيويورك ونشرتها اليومية ، انها نشرة غير مرئية ولكنها حقيقية . هل دعي فلان الى منزل جاكلين كنيدي ليلة امس ؟ خمس نقط صعود . ألم يدع الشاعر لويل وزوجته فلانة لمقابلة الشاعر السوفيتي الذي يزور الولايات المتحدة الآن ؟ ثمان نقط هبوط . هل رشح كتاب فلان لجائزة الكتاب القومية ؟ نقطتان وخمس اثمان صعود . هل اهملت مجلة **البارتيزان ريفيو** دعوة فلان ليشترك في احدى ندواتها ؟ نقطتان هبوط وهكذا . وحينما يظهر كتاب بود ورتز **بناء وهدم** فانه يتردد في ان يقرأ النشرة اليومية ، ولكنه ، وهو البطل الذي نعرفه ، يمسك بتلابيب شجاعته ليكتشف (وبحسن الطالع) ان شهرته قد زادت ، وان اسهمه بدأت ترتفع بشكل غير اكيد حينما نشرت مجلة **التايمز** عرضا لكتابه (مع صورة له) في الصفحة الرابعة . وارتفعت شهرته الى حد ما مرة اخرى حينما نشرت نيوزويك صورة له ومقالا يمتدحه . ولكن شهرته انخفضت قليلا بعد هجوم شرس عليه في **النيويورك ريفيو اوف بوكس** (ولم يصاحب الهجوم حتى صورة كاريكاتورية مما جعل سمعته تهبط نقطة اخرى) وهكذا . وكل الناس جزء من هذا السوق وهذه الحرب اليومية للحصول على النجاح ، انها حياة نيتشوية باهرة . كل الناس في حرب الواحد مع الآخر ، كل الناس اما منتصر او منهزم ، صياد او فريسة .

وهل مشكلة النجاح كما يقترح علينا بود ورتز هي ان تلقي بنفسك دون اي خجل او حياء في خضم المعركة واحضانها . ان حكمة حياته تتلخص في اكتشافه الرائع الذي توصل له وهو بعد في الخامسة والثلاثين من عمره انه من الافضل ان يصيب المرء النجاح من ان يبوء بالفشل ، وهذه هي الحقيقة العظيمة التي توصل لها بخصوص « طبيعة الاشياء » ، هذا هو جوهر نسقه الفلسفي . وقد

توصل الى حقائق اخرى تابعة ، فهو « متيقن الآن من ان النقود شيء هام » وهذا اكتشاف لــــم يصل اليه انسان مــــن قبل (كما يضيف متهكما) » ولا شك من الافضل ان اكون ثريا على ان اكون فقيرا · اعرف ان القوة شيء مرغوب فيه ، فمن الافضل ان تعطي اوامر من ان تتلقاها · اعرف الآن ان الشهرة شيء لذيــــذ دون تحفظ ، فمن الافضل ان تكون معروفا على ان تكون مغمــورا » · وهكذا تتعالى الصلوات لربه النجــــاح في صوت مليء بالتقوى ومفعـــم بالورع وولعه بالنجاح والشهرة يصل الى ابعاد لا يمكن تخليها خ فبينما هو في الجيش يكتــــب مقالا لمجلـــــة **كومنتاري** ، وحينما يصبح المقال موضوعا حادا للنقاش يثير الامر الغبطة في قلبه لا لان المقال جيد (يأمر بالمعروف وينهي عن المنكر) ولا لانه مقال قد حقق عن طريقه ربح (تجارة يصيبها او امرأة ينكحها) وانما لان المقـــال جعل منه **موضوعا** للحديث ، وهذا هــــــو المهم ان يظل هو السلعة الرابحة والشيء المطلوب · لم يعد بود ورتز مرتديا قناع البلاستيك للدعاية ، بل اصبح هو نفسه الرجل /الاعلان/البلاستيك ـ الانسان السلعة ولا حول ولا قوة الا بالله ·

ولعل تشيؤ بودورتز الكامل يفسر لنا لماذا يذكر الشيسكا وبنات الحاخامات وفتاة البار متزفاه ــاي الفتيات اللائي يعرفهن بشكل عابر سطحي ، يحـــــاول استهلاكهن ويحاولــــــن استهلاكه ، يحاول اصطيادهن او يحاولن اصطياده ، اما زوجته واطفاله فلا يذكرهم الا في سياق الحديث عن **تكاليف** حياتـــــــه المتزايد اي انهم يذكرون باعتبارهم هم احد العناصر التي تزيد من جوعه ورغبته المتزايدة في النجــاح ·

وحينما تدعوه مجلة **النيويوركر** للكتابة يهـــــز بطلنا اليهودي الناجح رأسه كالحكماء مؤكدا انه بذلك يكون اول اديب شاب يدعى للكتابة في **البارتيزان** ريفيو (المجلة اليهودية) **والنيويوركر** (مجلة الاغيار) في خلال اسبوع واحد (تصفيق حاد مرة اخرى) انظروا الي ! انظروا الى الشيء اليهودي الناجح ·

والشيء اليهودي الناجح هو الانسان الامريكي ، الانسان المرن

المطاط « المتكيف » مع واقع الاغيار الرأسمالي · ولكن تكيف بود ورتز متطرف بعض الشيء ، تكيف من اشتهر ونال بعد طول جوع ، ولذا فعلى الرغم من انه « البطل الناجح » الا انه لا وجود له البتة حتى في سيرته « الذاتية » ، اذ كل ما يبقى منه هو مجموعة من قصص النجاح النموذجية النمطية · ان ما تقابله هو النمط البلاستيك وليس انسانا حيا ينتصر او ينكسر ·

بعد نجاحه الباهر المبدئي بدأ بود ورتز يحلم بالنجاح الكامل او الفردوس المفقود · وحلم بودورتز بالفردوس يبعث بعض الشيء على الفزع ، فهو يشير الى كثير من المفكرين اليهود الذين يحلمون بفردوس ليس فيه يهود او مسيحيون ، وليس فيه عمال ولا اصحاب عمل ، وليس فيه اطفال حواري ولا مترفعين متأنقين (وليس فيه ولا شك عربي ولا عجمي ولا فلسطيني بطبيعة الحال) · ويا له من فردوس بلاستيك خال من كل تنوع وليس فيه حدود ·

ويبدو ان بود ورتز بدأ يحلم بالفردوس بعد ان «وصل» فمن هناك ، من ذروته الارضية هذه ، يمكنه ان يحلم بالفردوس · يقول بطلنا الناجح انه كان مصابا بازمة اجداب فني ، ولكن حينما يقرر ان يكتب من اجل المال لا من اجل الشهرة (ولكن ما الفرق بينهما ؟) يصبح سليما معافى خلاقا ! ويأتيه الخلاص على هيئة عرض من مجلة شو بأن يكتب مقالا شهريا نظير ٧٥٠ دولارا · ولكن يبدو ان « الخلاص » الذي يتحدث عنه هو مجرد خلاص عادي ، وليس بخلاص لوكس او فردوس ولذلك لا يسبب له اي « تحولات » جوهرية · ولكن حينما يتلقى دعوة المليونير هنتجتون هارتفورد لحضور مؤتمر فناني شمال اوروبا تحدث المعجزة · فقد عقد المؤتمر على جزيرة يمتلكها هذا المليونير · ولندع بودورتز يتكلم مكتفيين بالترجمة : « بدأ هارتفورد ينفق دون حساب ليطور هذه الارض التي تعرف سابقا باسم جزيرة الخنزير حتى تصبح اجمل مكان للاصطياف واكثرها ترفا في كل منطقة البحر الكاريبي · ولم تكن كل برامج التطوير قد نفذت بعد ، الا ان جزيرة الفردوس كما اسماها هارتفورد كانت تستحق بالفعل اسمها حينما وصل اليها ، اعضاء ندوة شو ،

وانا من بينهم ٠

لقد تركت الخمسة ايام التي قضيناها في جزيرة الفردوس اثرا لا يتناسب باية حال مع اي شيء محسوس حـــدث لي هناك ، الى درجة انه يمكنني القول انها تفتقد الى معادل موضوعي ٠ ولكن شيئا ما انقطع داخلي لحظة ان لمست قدماي الجزيرة ، وفي الخمسة ايام التالية مارست احاسيس تشبه الاحاسيس التي يفترض ان الانسان قد مارسها قبل ان يطرد الفردوس الذي يسمى جنات عدن ، وكنت كطفل في الرابعة لا يزال في هذه الحالة التي يعدها فرويد مصدرا لاسطورة الفردوس ٠ لقد كنت مسيطرا تماما على كل طاقاتي في كل لحظة لا يوقفني شيء عن استخدامها ولا اكل من ممارستها ٠ كان في استطاعتي ان اشرب طوال الليل دون ان افقد وعيي ثم استيقظ بعد ساعتين او ثلاث ساعات من النوم دون ان اشعر بأي تعب ٠ لم تكن حواسي اكثر يقظة من هذا طيلة حياتي ، وعقلي لم يكن اكثر توقدا ومعنوياتي لم تكن قط اكثر ارتفاعا ٠ كنت احب كل فرد ، وكل فرد كان يحبني (هذا هو التناسق الفردوسي بعينه) ٠

وماذا كان السبب ؟ اعتقـــد ان جزيرة الفردوس كانت تمثل تحقيقا للاحلام التي احملها دائمـــا في روحي ، ولكني لم تواتني الجرأة الكافية من قبل لتصويرها بشكـــل مفصل ، حي ٠ هـــذا هو النجاح (اخيرا الآلهـــة الحقيقية اللوكس ، حتى الآن كنا نتعبد في آلهة درجة ثانية ٠ اغفـــر لنا يا رب خطايانا) ٠ كل مكوناته المختلفة مجتمعة في عرض واحد باهر ، ورؤية هـــذا جعلني اسكر بشكل يفوق سكري بكـــل جالونات الـــروم التي استهلكتها ذلك الاسبوع ٠ هذا هو ما يعني ان تكون ثريا : ان تنام في حجرة كبيرة متألقة ذات تراس تطل على بحر اخضر شفاف بشكل لا يصدق ، ان تمد ذراعيك في كسل بجـــوار حمام سباحة عـــلى ان يكون عندك خادمان يلبسان معاطف بيضاء ويتنافسان من اجل امتياز خدمتك ٠

كل ما حولي كان شاهدا على معنى الشهرة ، كـــان يعني أن ثقة هادئة في النفس قد خصت بها الروح حتى تحارب ضد الشكوك والمخاوف التي كانت لا تزال بطبيعة الحال تراودها ، وان كانت هذه

الشكوك والمخاوف غير مسيطرة على ميدان القتال كله ٠

لقد نظرت الى اصحاب هذه الشهرة العالية واحببت ما رأيت (هذه كلمات الله في العهد القديم بعد ان خلق العالم ، وهي كلمات بود ورتز في لحظات النشوة الفردوسية الارضية) ٠ لقد قست نفسي عليهم ولم اجد نفسي اقل منهم ، وتركت جزيرة الفردوس مصمما على الا افكر بطريقة «فقيرة» ٠ لقد اسكت صوت بروكلين الكئيب ووصلت الى مستوى مانهاتن في الحياة ونمطها » ٠ يريد بود ورتز ويطلب ويتوقع ، لان عدم التوقع كما يخبرنا هو الطريـــق الى عدم الطلب وعدم الطلب هو الطريق الى عدم الحصول على اي شيء ، ولذا ترك بودورتز « الناجح » جزيــــرة الفردوس وهو عازم على ان يطلب (يطلب ماذا ؟ حمام سباحة وجزيرة في البحـــر الكاريبي ؟) ثـــم نفاجأ بالكاتب يتفلسف فجأة فقد اصيب بمـــــرض خطير لاول مرة منذ طفولته ٠ واثناء مرضه يكتشف ان طيلة حياته يعيش في حالة صيرورة دون ان يكون له وجود ثابت ومحـــدد ، وهذا ما يقرر ان يفعله ٠ يقرر بود ورتز ان يجد نفسه ويجدها في احسن مقال كتبه : مقال يرفض فيه فكرة الاندماج بين الزنوج والبيــض ، فالمشكلة بين البيض والسود حسب تصوره لم تكن مجرد الاندماج ، بل هي اعمق من ذلك ، اذ انه ثمة شيء **مرضي** في علاقة السود بالبيض ، شيء لا يمكن ان يخضع للتحليل العقلاني ، وهي علاقــة تشبه لذلك علاقة اوروبا المسيحية باليهود (مرة اخرى نعود الى هذا الجيتو الازلي الابدي ؟ ما فائدة الفردوس اذا ، يبدو انه لم يحرره من شيء ؟ ؟) ٠

هنا يجب ان نذكر انفسنا بأن فردوس بود ورتز لم يختلف في كيفه عن مانهاتن وانما اختلف في كمه وثمنه ، ولذلك فالتحول لم يكن رأسيا وانما كان تحولا افقيا (تماما مثل فتوحـــات اسرائيل التي لا تنجز شيئا ولا تحقق اي سلام او طمأنينة) ٠

اذا كان وضع الزنوج لا عقلانيا اذا لا يمكن حـــل المشكلة الا بشكل لا عقلاني عن طريق الزواج المختلـط بالبيض ، والنتاج هو فردوس عرقي لا ابيـــض ولا اسود (ولكن ما هـــو مكان اليهود في هذا الفردوس ؟)

ويعترف الكاتب بأنه بكتابته هذا المقال كان يخاطر بكل شيء، سمعته واصدقاءه واسمــه ، ولكنه مثــل الشهداء والقديسين والكاوبوي يدخل النار (نار الآلهة اللوكس الدرجة الاولى) ولكنه لا يحترق بل يزداد شهرة ونجاحا ، وهو يصف هذا الوضع مستخدما مصطلحا دينيا • ان مقالة « مشكلتي الزنجية » كانت بلا شك احسن قطعة كتبتها على الاطلاق ، وقــد جذبت اهتماما اكثر من اي مقال آخر كتبته ، وان كان بعض هذا الاهتمام ليس مما يبعث على الغبطة•»

ولكن هذا لا يهم بطل النجاح كل هذا برهان آخر من تجربتي اننا يمكننا ان ننال النجاح دون ان نعبث **بالنور الداخلي المقدس** » • ويا له من تطابق رائع بين الذات والموضوع ، بين الضمير والسوق، بين الله والسلعــة • حتى الراوي نفسه يتساءل رافعا حاجبيه في دهشة : « هل من الممكن ان النجاح قد يكون مقياسا دقيقا الى حد ما لقدراتنا الداخلية في عالم الحضارة الامريكية ؟ »

اذا كانت الاجابة بالايجاب تكون الامبريالية النفسية الامريكية قد قضت قضاء مبرما عــلى الانسان الامريكي وحولته الى شيء يقاسي • ولكن السؤال في نهاية الامر ، ما هــو النجاح الذي عنه تبحث ، ما هي الآلام والآمال ؟ هجــرة لله ولرسوله ام هي هجرة تجارية للحصول على الاشياء ومزيد من الاشياء ؟ هذا هو السؤال الوحيد الذي يمكن ان يسأله البشر كبشر بالنسبة لقضية النجاح •

فان لم يسألوه كانوا كالحيوان الاعجم الذي لا روح له ، او مثل بود ورتز الذي تعبد في محراب ربه النجــاح المادي والاشياء والنقود والشهرة ، او كالجبل الاصم الــذي لا يستطيع ان يحمل الرسالة التي عرضها الله عليه ويقف وسط الطبيعة مساويا لها ليس فيه ما يميزه عنها •

٢ ـ الاسلام كحلم البراءة الاولى في حياة مالكولم

من الشيء الى الشيء ، هذه هي حركة بودورتز الافقية ٠ ولكن مالكولم يتحرك ويتطور بطريقة مغايرة تماما ٠

ومالكولم هو زعيم امريكي أسود كان اسمه الاصلي مالكلــوم لتل (أي مالكلوم الصغير) ولكنه غير اسمه الى مالكلوم رافضا بذلك الاسم الذي اعطاه اياه الرجل الابيض ، ثم غير اسمــه بعد ذلك الى الحاج مالك بعد حجه الى مكة المكرمة حيث مارس تجربة روحيـــة كان لها اعمق الاثر عليه ٠ وسيرة حياته الذاتية التي نتعرض لها في هذا المقال تمدنا بكثير من تفاصيل حياته الثريـــة التي انتهت حينما اغتيل عام ١٩٦٥ ٠

ان سيرة مالكوماكس الذاتية ان هي الا ترتيلةتمجد روح الانسانالتي يمكنها البقاء والاستمرار في مواجهة أكثر الظروف افسادا وتدميرا ٠ والانسان في مقدوره ان يحقق هذا البقاء وهذا الاستمرار لانه يحلم دائما بعالم من البراءة الاولى وبذا يحتفظ بقدر من النقاء الروحي حتى بعد ان يصبح اكثر الساخرين مـرارة ٠ والاســلام بالنسبـة لمالكوم هو حلم البراءة هذا ، فلقد زوده باطـــار مثالي حرره من افتراضات واخلاقيات مجتمعة العرقية ، وهي افتراضات واخلاقيات كان عليه أن يتقبلها على الرغم من أنه ضحيتها وفريستها ٠

ولكن ما هو سبب اختياري للفظ « حلم البراءة » لوصف العالم العربي الاسلامي الذي شاهده مالكوم بنفسه ، وللاشارة للمعتقدات الاسلامية التي آمن بها في نهاية المطاف ؟ از المملكة العربية السعودية والقاهرة قائمتان بالفعل ، كمــا أن الحضارة الاسلامية هي حضارة خالية الى حد كبير من أية مؤشرات عنصرية ٠ هذه حقائق لا نــزاع فيها ، ولكن الوطن العربي مع هذا ليس هو بالضبط ذلــك الفردوس

الذي رآه مالكولم ، لانه وطن له جوانبه المظلمة ، شأنه في هذا شأن اي بقعة اخرى في العالم• ولكن مالكوم ، كان يتعامل مع هذا الوطن العربي من منظوره هـــو ، كأمريكي أسود ، يعاني ويلات التفرقـة العنصرية • ومن هذا المنظور اكتشف مالكولم أن الوطن العربي لا يقف في طريق نمو الامكانيات الانسانية لدى الانسان الاسود • ولذلك استطاع مالكولم أن يجد في العالم العربي الاسلامي تحقيقا جزئيـا لحلمه بالبراءة وبعالم خال مـــن التفرقة العنصريـــة • ان امريكا البيضاء ــ كما خبرها هو ــ مجردة من مثل هذه الامكانيات المثالية والانسانية ، فهي بلد ذات نزعة تدميرية خالصة •

ولكن علاوة على كل هذا ، اذا كان الحلم بالبراءة والمثل الاعلى في الادب والفلسفات القديمة ، هو نسق فكري خال من أي صراعات أو توترات لانه حلم لا تاريخي واسطوري ومجرد امكانية نظريـــة ، فان حلم البراءة الثوري في العصر الحديث يضرب جذوره في الواقع ويكتسب قوته وفعاليته من أنه ينبع من الواقع ويعود اليه وانه حلـم في نهاية الامر قابل للتحقيق بشكل جزئي وحسب داخل التاريـــخ ، اي ان حلم البراءة الثوري لا يظل مجرد صورة ذهنية رائعة ، كما أنه ليس بواقع فردوسي قد تحقق الآن وهنا ، وانما هو رؤية للحيـاة الفاضلة » يتعامل الثوري من خلالها مع الواقع التاريخي ، ويحاول أن يحققها داخل التاريخ ذاته ، ولانه يحققها داخل التاريخ فهي لـــن تحتفظ بصفائها وبراءتها • والعالم العربي الاسلامي، بالرغم من كل توتراته التاريخية، كان بالنسبة لماكولم تحقيقا جزئيا لحلمه بالبراءة وبعالم يسمو على أمريكا مـــن الناحية الاخلاقية ، على الاقـــل فيما يختص بالعلاقات الانسانية والعنصرية • وحين عاد مالكولم الـــى أمريكا ليحاول أن يحقق رؤيته الجديدة عن طريق الفعل الاجتماعي ، اظهر انه ينتمي الى تقليد الثوريين التاريخيين الذين يحلمون ولكنهم لا يهيمون في الفضاء وعالم الاساطير ولايحاولون تشييد أي فردوس أرضي ، وانما يحاولون تغيير الواقع لا عن طريق التسامي عليه أو الانفصال عنه أو تدميره كلية ، ولكن عن طريق اعادة تشكيله وفقا

لرؤيتهم عن « الحياة الفاضلة » وبما يتفق مع امكانيات هذا الواقع الحقيقية ٠

ويمكن رؤية بناء السيرة الذاتية ككل على انــه تجسيد لتطور مالكولم من كونه انسانا ماديا لا روح له ولا ضمير ، الى انسان قادر على اكتشاف «نزعات مثالية» في نفسه ٠ تبدأ السيرة باشارة الى أم مالكولم الحامل رمز واضح الدلالة على الخصوبة والحياة الجديدة والامكانية الانسانية التي تريد أن تولـــد ٠ والى جوار الام الحامل يقف أبو مالكولم وهو واعظ ينتمي لشكل بدائي من القومية السوداء في امريكا اي أنه هو الآخر رمز لميلاد قومي جديد ٠ ومـــع ذلــك فالسطر الثاني من السيرة يتحدث عن أعضاء جماعة الكوكلوكس كلان العنصرية الارهابية المتطين صهوة جيادهم والـــذين أحاطوا بمنزل مالكولم في الليل وسخروا من ابيه ـ اي انه من البداية تحاصر قوى الشر امكانيات الخير وتحاول اجهاضها والقضاء عليها ٠ ولكن بقاء مالكولم وكتابته لسيرته الذاتية تقوم شاهدا على أن الانسان ، برفضه بيع روحه لشيطان العرق والمادية ، وبايمانه بتفوق مــا هــو ممكن على ما هو قائم بالفعل ، يستطيع تحقيق الخلاص ٠

الجاهلية ٠٠ مرحلة ما قبل الاسلام

تواطأ كل شيء فـــي مجتمع مالكولم ضـــده وضد انسانيته ، فبعد موت الاب يأتي مندوبو الدولـــة والضمان الاجتماعي لتحويل مجتمع مالكولم الصغير العائلي الـــى وحدات اقتصادية منفصلة ، فقد نظر هؤلاء الى أعضاء الاسرة كأرقام وكحالة مدرجة في كتابهم وليس ككائنات بشرية « (ص ٢٢) ٠ وبعد ذلـــك تم تحويل مالكولم فعلا الى رقم حينما أودع السجن ، وصار رقمه جزءا منه ، « مطبوع في عقله » (ص١٥٢) ٠ وتحويــل الناس الى أرقام كمـــا اكتشف مالكولم هو ضرورة حضارية لامريكا ، لان الدولة تستطيع أن ترسل انسانا الى الفضاء الخـــارجي ولكنها لا تعرف كيف تتعامل البشرية (ص٢٦٨) ٠

واذا كانت العلاقة هي علاقة بين شيء واشياء أخرى ، وليست بين الانسان وأخيه الانسان ، فأن التعامل الميكانيكي يحل محل المسؤولية الاجتماعية والحب ، ويبدأ كل فرد في محاولة افتراس الآخرين ٠ ويتحدث الجزء الاول من السيرة عن الشهوة التي تحل محل الحب (ص١٢١) وعن رجال بيض وسود يستغلون عاهرات بيضاوات وسوداوات ، والعكس بالعكس ٠ كما أنه يتحدث عن مجموعة المقامرين الذين يفضلون ألا يفعلوا شيئا على الصراع الانساني الحقيقي ٠ فقد اكتشفوا في أعماق قلوبهم أن الفعل الانساني ، أو «العبودية» كما كانوا يسمونه ، لا يفيد ولا ينفع في أمريكا المستغلة الآلية الرأسمالية فكتاب الرأسمالية المقدس يقول : افعل بالآخرين قبل أن يفعلوا هم بك (أي استغلهم قبل أن يستغلوك) ٠

ولقد كان البلطجي هو أكثر الشخصيات دينامية ، وقد لاحظ مالكولم أن البلطجي وهو نتاج التمييز العنصري ، ليس لديه موانع داخلية من أي نوع ، لانه كي يحافظ على بقائه كان عليه أن يفترس الآخرين باستمرار ويتلمس طريقة الى نقاط الضعف الانساني كابن عرس (ص٣١١) ٠ ولم يكن البلطجي في أمريكا البيضاء ليثق بأي فرد (ص٨٧) اذ عليه الاستمرار في المزاحمة ودفع الآخرين ٠ واذا انحط الانسان لمرتبة البلطجي أو المقامر أو لمرتبة الشيء ، فانه يفقد ما يميزه ككائن بشري ٠ وتتواتر في السيرة الاشارات الى الانسان على أنه « حيوان » ، مما يوحي لنا بوحشية المجتمع الابيض التي تحط من قدر الانسان ٠ ولقد وجد مالكولم أن البيض كانوا يعتبرونه في البداية عصفور كناري أليفا (ص ٢٦)وبعد ذلك صار بالنسبة لهم بغلا جميلا ثم حيوانا اليفا اصيلا (ص ٢٧) وكلب بودل وردي (ص٣١) ٠ ثم أصبح هذا الحيوان الاليف العديم الفائدة مجرد شيء طفيلي (ص ٧٥) ليصبح في الفصل السادس نسرا مفترسا ٠ وبالرغم من كل هذا لم يتخل مالكولم ولو للحظة عن براءته ، لانه ادرك انه قد صار طائرا مفترسا لا بسبب شرازلي كامن فيه وانما بسبب وجوده في عالم الرجل الابيض المادي المبني على التنافس الذي يلتهم فيه الانسان أخاه الانسان » (ص ٢٦٧) ٠

واكتشف مالكولم بعقله التحليلي الذكي ، أن ادراك بلطجي الحي الزنجي لمثل هذا الوضع يجعله انسانا ثوريا قويا ، اذ أنه يرى نفسه كضحية أكثر منه كمفترس ، ولذا فدرجة الاحترام الذي يكنه هـــذا البلطجي للمؤسسة البيضاء في امريكا اقل بكثير من درجة الاحترام التـي يكنهـــا اي زنجـي آخـــر فـي شمـــال امريكـــا لنفس المؤسسة (ص ٣١١) ٠

بل أن مالكولم يلمح بأن المقاييس الاخلاقية لمجتمع البلطجيـة تعتبر بصورة ما أسمى من مقاييس الاخلاق في أمريكا البيضاء ٠ فالعلاقة بينه وبين صديقه شورتي البلطجي تتسم بحرارة معينة لا نجدها مطلقا في عالم الدولار ٠ هذا لان البلطجية «يكونون مجتمعا» متآلفا ، ثم ان قانونهم الاخلاقي يعتبر متسقا مع نفسه لانه يطبق على السود والبيض على السواء ـ وهذا يعتبر قمة اخلاقية لم تصل اليها بعد تلك الولايات المتحدة ٠

د ـ بشائر البعث او بزوغ حلم البراءة

واذا كان حتى البلطجية قد استطاعوا الابقاء على ارواحهـم سليمة ، فأن غالبية السود قد أظهروا قوة احتمال حضارية ملحوظة ٠ فهم لم يستمروا في البقاء وحسب ، ولكنهم كانوا قادرين في عالم المادية المطلقة هذا أن يحتفظوا بشيء من الرؤى وبالمقدرة على الحلم والتخيل ٠ ونحن نجد في النهاية أن ما أنقذ مالكولم هي تلك الرؤى لعالم من الجمال البريء يعلو عالم الدولار الميكانيكي الاملس الاقرع ٠

ويرد اول ذكر في السيرة لرؤى الخلاص في الصفحات الاولى من الفصل الاول ، حينما يتذكر مالكولم جيدا موعظة أبيـــه المفضلة التي حملها في قلبه طيلة حياته ٠ « ها هو ذا القطار الاسود الصغير قادم ، ومن الافضل لك أن تكون جاهزا له » (ص ٤) ٠

قطار الخلاص آت اذن لا محالة ولا بأس من قليل من الانتظـار على ان نكون جاهزين له عند وصوله ٠ وتوضح الصورة المستخدمة مدى صلابة الانسان الاسود في أمريكا ، اذ أنه يحول أكثر الانشطـة والاعمال مادية وأقل الاشياء شاعرية ، مثل القطار ، الى رموز روحية ٠ وتذكر مالكولم أيضا فيمـــا تذكر الاسطورة التي كان يحكيهـا أبوه

ويستشهد بها : اسطورة آدم الاسود الذي طرد مـــن فردوس أفريقيا وحمل عنوة الى كهوف اوروبا · وكان مالكولم لا ينسى قط استعارة العاصفة القادمة التي كان يستخدمها أبوه لوصف خلاص افريقيـــا (ص٦) · العاصفة لا محالة ستهب لتطهر هـــذه الكهوف الدنسة · واذا كان السود عندهم مثل هذه المقدرة على رفض الوقوع في شراك المادة ، لا غرو اذن انهم في الكنيسة « يلقون بأرواحهم واجسادهـم في العبادة » (ص٣٥) · ان أمريكا البيضاء لم تمح أرواحهم تماما على نحو ما فعلت مع اخوانهم البيض ، الذين ، كما لاحظ ـ مالكولم، « كانوا يجلسون في الكنيسة ويتعبدون بالكلمات وحسب » (ص٣٥) ـ دون موسيقى أو غناء ويا له من مشهد حزين حقا !

ولقد كانت الموسيقى والرقص همـــا وسيلتا الافرو ـ أمريكي للتسامي على عذابه ولتحقيق ذاتية وهوية معينتين · وفي السيرة الذاتية ، يؤكد مـــالكولم بروح ملؤها المرح أن غرائزه الافريقيـــة المكبوتة كانت تجد متنفسا لها حينما يرقص (ص٥٧) · وهنـــــاك اشارات كثيرة للموسيقى والاغاني الافرو ـ أمريكية والتي ترمز الـى انتصار الروح الافر ـ امريكية والى رغبتها في بلوغ السماء (وتقف الموسيقى والرقص على طرف نقيض مـــن صور الحيوانات ، والتي تدل على مدى شراهة حضارة الانسان الابيض ورغبتها في الحط من قدر الافرو ـ امريكي وتقييده بالاغلال والارض بعيـــدا عن السماء الزرقاء) ·

ولا يتضح هـــذا المغزى الرمزي للموسيقى فـــي أي مكان مـــن السيرة أكثر من اتضاحه في الفصل الخامس ، حيـــن يروي لنـــــا مالكولم قصة الزنجي الذي كان يدخن سيجارة من القنب الهندي ثم سمع اغنية ليونيل هامبتون « طائرا لبيتي » ، فاعتقد انه يستطيع الطيران وقفز فعلا من شرفـــة الطابق الثاني وكسرت رجلـــــه · ولقد خلدت كل من حادثة «الانطلاق الروحي» المؤقت والنتيجة المأساوية المترتبة عليه في اغنية افرو ـ امريكية اخــــرى ! اغنية ايرل هاينز « القفز من الشرفة الثانية (ص٧٤) · ولكن مالكولم كان موضوعيا

لدرجة تسمح له ان يرى قصور وعقم مثل هذا الطيران الفردوسي ،ولكنه كان أيضا متعاطفا بدرجة سمحت له برؤية روعة جماله ، وقد استطاع مالكولم ذاته في مرحلة لاحقة من حياته أن يحلق في السماء مثل « الفتى ايكاروس »(الذي حاول الطيران بأجنحة من شمع) ولكن مالكولم طار بأجنحة وهبها الله اياه عن طريق عقيدة الاسلام (ص٢٨٧) ٠

لقد احتفظت الموسيقى وعناصر الخلاص الاخرى في عالم الافرو ـ أميركي بروح مالكولم وانقذته من الانسحاق تحت وطأة الاخلاق العرقية في أمريكا البيضاء ٠ ولكن بالرغم من أن هذه العناصر كانت تتضمن درجة من الرفض للوضع الراهن الآسن ، الا أنها لم تحرر الافرو ـ أميريكي تماما لانها لم تزوده بحلم البراءة الذي يشكل نقدا شاملا للحضارة الاميركية ٠ وكان الاسلام ، هذا النسق الاخلاقي المتكامل ، يشكل بالنسبة لمالكولم كلا من حلم البراءة والنقد الشامل ٠

د ـ الاسلام

بدأت عملية الهداية الى الاسلام بمناسك صغيرة مثل رفض تناول لحم الخنزير بينما كان في السجن (ص١٥٦) ومثل اعتياد الوضوء (ص١٩٣) ، ومع هذا انتهت بتبني ثوري لنسق جديد من القيم ٠

تعرف مالكولم حينما كان في السجن على الاسلام كما فسرته جماعة اليجاه محمد (التي تسمى بالمسلمين السود) ولقد آمن مالكولم بهذا التفسير وشعر بتفوقه الاخلاقي ، ولكنه مع هذا انفصل عن هذه الجمعية فيما بعد وتخطى افتراضاتها الاخلاقية العنصرية التي تميز بين السود والبيض لصالح السود هذه المرة ، أي أنها كانت تؤمن بمقلوب العنصرية الامريكية ٠

وبالرغم من مساهمة عقيدة المسلمين السود في تحرير وانقاذ مالكولم ، فقد كانت مثل عناصر الخلاص الاخرى في حياته قبل

اسلامه ، عناصر قاصرة اخلاقيا ونفسيا عن تحقيق الخلاص الكامل ٠ ولهذا السبب يجب علينا مناقشة تحول مالكولم الى الاسلام«الحقيقي»، موضحين في سياق المناقشة كيف تخطى معتقدات جماعــة المسلمين السود٠ لقد أظهر مالكولم فهما حدسيا للاسلام والتصور الاسلامي للخالق ٠ ومن المعروف أن كثيرا من المستشرقين قد درسوا الاسلام من قبل، ولكنهم كانوا راضين عن حضاراتهم تمام الرضا متقبلين لكل افتراضاتها الاساسية ، في حين كــان مالكولم يجتاز ازمة اخلاقية ويحلم بعالم أفضل ٠ولهذا السبب لم يفهم كثير من المستشرقين جوهر التصور الاسلامي للخالق بعد مئات السنين من الدراسات النظريــة المتعمقة والارساليات الاوروبية ، قدر فهم مالكولم له ٠ فقـد اكتشف مالكولم على سبيل المثال عدالة وعلمية التصور الاسلامي للخــالق ٠ والاله في المسيحية عالمي واله كل البشر ، ولكن مالكولم كان يعلـم أنه أصبح الها مقصورا على الرجل الابيض وعلى الحضارة الغربيــة التي تخلع عليه الوانا معينة وتكسبه سمات حضارية محددة ٠ ولقد احس واعظ مسيحي بالحرج ، حين أخبره مالكولم عن اللون الحقيقي ليسوع والقديس بولص (ص١٩٠) ٠ ولقد احرج هذا الواعظ لانــه كان يعلم ان يسوع لم يكن ابيض البشرة ولم يكن شعره اشقر ، ولكن الكنائس في الولايات المتحدة حولته الى ذلــك ٠ والخالق ، حسب التصور الاسلامي ، يبقــى بمنأى عــن التعصب الانساني والفروق الزائفة، فهو ليس اله قبيلة دون غيرها او اله شعب دون آخر، انه اله العالمين في كل زمان ومكان ومن كل لون ٠ ولقد وصل مالكولم لهذه النتيجة لا عــن طريق الاستنتاج المنطقي ولكن مــن خلال التجربــة الشخصية ٠ ففــي العالم العربي الاسلامي أصر الناس على رؤيــة مالكولم على أنه أمريكي ، أو ليست هذه جنسيته ؟ ولقد دعاه قائــد الطائرة المصري الذي كانت بشرته أكثر سوادا من بشرة مالكولــم نفسه، الى حجرة القيادة باعتباره «مسلم أمريكي» وحسب (ص٣٢٤)، وليس باعتباره مسلم أسود ٠ وألقى عليه مسلم ايراني التحية فــي ديوانه في القطار قائلا « أميــ٠٠٠ أميركي » (ص ٣٢٩) ٠ وقد كانت دهشته كاملة وأخذ ادراكه لطبيعة الاله الاسلامي شكلا نهائيا حينــما

لم يسلك الدكتور عزام هذا « الرجل الابيض » سلوك الرجـل الابيض بتاتا (ص٣٣١) · ويكتشف مالكولم بفزع شديد أنه كان الوحيـــد الذي يعاني من الاحساس بالفوارق العرقية · هذه النظرة الجديـدة كانت هي علامة البدء لانطلاقه الكامل بعيدا عن القيم الاميركية، وفي أحد أجزاء السيرة ، وهو جزء له دلالـــة عميقة تبدأ بالاشارة الى الصباح ، يخبرنا مالكولم عن اعادة تقويمه للفظـــة «ابيض» وعن قفزته البطولية من الاحكام العنصريـــة الى التقويمات الانسانيـة الاخلاقية (ص ٣٣٣) ، اذ تفقد لفظـة « الرجل الابيض » محتواها العنصري لانـــه شاهد اناسا ذوي بشرة بيضاء كانوا متآخين عن صدق · لقد طرد مالكولم بشكل تام شيطان العرقية لدرجة انه حين لاحظ ان الناس المتشابهين كانوا يمكثون سويا ، لم يرجع ذلك الى نوع من أنواع التفرقة العنصريـــة وانما اعتبره نوعـا من الفعل الاختياري « لاناس » يوجد بينهم شيء مشترك يجمعهم (ص ٣٤٤) ·

ولقد مكنه هذا التفاعل الشخصي مع المسلمين من أن يفــــم المعاني الثورية للمفهوم الاسلامي عن وحدانية الله · فالبيض الذين يقفون أمام الاله الواحد ليسوا اناسا بيض البشرة وانمـا كائنات بشرية كاملة (ص ٣٦٠) · ولقد وقف مـــالكولم الافرو ـ أميركي بدوره أمام « خالق الجميع وشعر أنه كائن بشري كامل (ص ٣٦٥)· لقد استطاع الاحساس بهذا التكامل الانساني لان وحدانية الله تعني قبول وتساوي كافة البشر أمامه (ص٣٤١) ·

رحب مالكولم بالنتيجة الحتمية لرؤيته الاسلامية الجديدة ،ولذا رفض بعد ذلك الاسطورة الزائفة التي تروج لهــــا جماعة المسلمين السود التي تقول ان الرجل الابيض هو الشيطان ! أي انه بلـــغ من السماحة والتحرر من العرقية انه رفض العنصرية ومقلوبها ، ورأى انه لا فضل لعربي على عجمي ولا أبيض على أسود الا بالتقوى والعقل الانساني الفاضل ·

وثمة جوانب أخرى للتصور الاسلامي للخالق أدركها مالكولم فمن المعروف انه حسب التقاليد الاسلامية لا يجـــوز لايّ انسان أن

يرسم صورة الله ، كما أن الخالق لا يتجسد في أي شكل انساني ، ولذا فنبي الاسلام هو محطم «الاوثان» • ويرجع هذا لاسباب ليس من الصعب اكتشافها فرسم صورة للاله هو في نهاية الامـــــر فرض حدود عليه وصبغه بصبغة معينة ــ ان الاله الاسلامي اله شامـــــل ويفضل أن يظل كذلك • ولقد أظهر مالكولم فطنته الملحوظة في رفضه للاطار الاسطوري المركب ، والذي ابتدعه المسلمون السود (ص١٦٨) فلقد أعتقدوا ان الله متجسد في انسان نصف ابيض ونصف أسود اسمه السيد فارد ! وقد تنبه مالكولم أيضا الى خطورة تجسد الاله في شخص أو في أي صورة ، وأشار الى مخاطـــر تأليه ما هــــو انساني • ولذا رفض مالكولم الايمان باليجاه محمد زعيم جماعــــة المسلمين السود « كقائد مقدس » وآمن به كقائد بالمعنى الانسانــــي المألوف • وفي مكة فوق التل وفي حضرة الواحد الاحد أدرك مالكولم مدى خطورة الايمان بالشخص الذي يدعي ان اللـــه يهديه ويحميه بشكل خاص (ص٣٧٥) • ولعل رفضه لفكرة التجسد وحلول الخالق في مخلوقاته يفسر عدم تعرضه مطلقا في سيرته الذاتية الى وصف شكل الله او ما يتصوره على انه سماته الشخصية •

واحد أحد هو ، ولكنه غير غريب على الذات الانسانية ، ولـــذا رفض الـــه الاسلام أن يزود نبيه بقوى فوق الطبيعـــة ومـــن شأنها أن تنتهك مسار العمليات الطبيعية ، ورفض محمد عليه الصلاة والسلام باصرار شديد أن يستسلم الى المغريات وأن يكون « نبيـــا عاديـــا » يملك قوى خارقة ، وبقي انسانا يعيش وسط الناس • ويخبر اللـــــه محمدا في القرآن ما معناه انه لو سألك عبادي عني فاني قريب اجيب دعوة الداعي اذا دعاني • وكان مالكولم يردد مـــا جـــاء ذكره في القرآن حين قال « الله يبعث لك باشارات انه معك حين تكون معـــه•» (ص٣١٩) • انه ذلك الاله الرحيم الذي كان يعرفه مالكولم فـــي كل مرة كان يردد فيها عبارة : « أعرف أن اللـــه قريب » ، وهي عبارة يتواتر ذكرها كثيرا في السيرة كلازمة ، خاصة في الفصل السابع عشر •

ولم يكن نبي الاسلام مجرد رسول مبعوث من قبل الله ، ولكنه كان أيضا قائدا سياسا « لشبه الجزيرة العربية » • فهو لم يقدم رؤية

جديدة للحياة وحسب ، ولكنه حارب من اجل تحرير العبيد وتحقيق هذه الرؤية في التاريخ • ولذلك كان « العبد » بلال ، وهو من أوائل المهتدين ، تابعا للدين الجديد ومقاتلا في سبيل الحرية ، وبالاختصار، نجد ان الفصل بين الفكر الديني والاخلاقي من جهة وبين التطبيق الاجتماعي والسياسي من جهة أخرى ليس احدى سمات الاسلام ، وهذا الجانب من الاسلام لم يغمض على مالكولم •

ويبدو لي أن هذه هي أهم النقاط التي جعلت مالكولم ينفصل عن جماعة المسلمين السود • فقد اكتشف وهو يسير بين الجماهير الافرو أميريكية ، أن هذه الجماعة كان بمقدورها أن تكون قوة ذات فعالية ان هي ساهمت بشكل أكثر فعالية في الصراع الشامل للجماهير (ص٢٨٩) • وحينما فشلت جهوده في اعادة تكييف الجماعة مع مقتضيات الحركة الاجتماعية ، قرر أن يبني تنظيمه الخاص الذي يقوم بتطبيق ما تنادي به جماعة المسلمين السود دون ممارسة (ص٣١٥) • لقد كان مالكولم متحمسا لاسلامه بدرجة جعلته أكثر من مجرد كاهن ، فهو كان يحث على التحرك الاجتماعي ، كرسول الله •

وآخر خاصية للمثل الاسلامية ، والتي استطاع مالكولم أن يستشفها ويقدرها حق تقديرها ، هي خاصية التجمع أو الأئتلاف • ومن المعروف ان يوم الراحة الاسلامي هو يوم الجمعة او يوم التجمع، ويقول الله في القرآن ان يده دائما مع الجماعة أكثر مما هي مع الفرد • وفي أول لقاء لمالكولم مع المسلمين شعر لتوه « بجو من الدفء والصداقة » (ص٣٢١) • واذا راعينا انه أتى من مجتمع عرقي متنافس ، نجد أن الاثر كان أشبه « بالخروج من السجن » (ص٣٢١) • ولقد أحبه الناس وقبلوه « كأخ لهم » (ص٣٢٢) وقدموا له من طعامهم بل وأناموه في مخادعهم • وتساءلت زوجة مصرية غير قادرة على رؤية التنافس على انه الدافع الوحيد لسلوك الانسان تسائلة هذه الزوجة في براءة شديدة : « لماذا يتضور الناس من الجوع في العالم ، في حين تملك امريكا فائضا كبيرا من الطعام ؟ » (ص ٣٢٢) • ان الانسان الذي يأتي من مجتمع رأسمالي مركب يعرف « الحقيقة العلمية » : ففي أمريكا يتركون الفائض حتى

يتعفن ، وفقا لاحدث الاساليب التكنولوجية المتقدمة بالطبع حتى ترتفع الاسعار !

رفض مالكولم اذن اخلاقيات المجتمع الرأسمالي العرقي في الولايات المتحدة ، وفاض قلبه بحب مكة المكرمة حتى انه ترك جزءا من نفسه في تلك المدينة المباركة وحمل في قلبه جزءا منها (ص٣٩٤)٠ ولكنه مع هذا رفض أن يهبط الى أي شكل من أشكال الهروب أو الرغبة في «العودة» الصوفية ليقيم بجوار قبر الرسول أو يستوطن في العالم الاسلامي أو أي مكان يتصوره على انه الفردوس الارضي ٠

حمل مالكولم حلمه بالبراءة الاولى وعاد الى قومه ليحارب معهم من أجل حقوقهم ، فرفض الافكار الانفصالية التي كانت تدعو لها بعض الجماعات القومية السوداء وتبنى مفهوما أكثر تركيبا عن العودة الى أفريقيا ، فلقد أضحت « العودة » بالنسبة له « عودة » فلسفية وحضارية وحسب ، وليست عودة جسدية فردوسية ٠ وكانت العودة الفعلية لامريكا على قدر مساو من الاهمية كالعودة النفسية الى أفريقيا ٠ وتكشف هذه « العودة » الثنائية عن التزام مالكولم بمجتمعه وبحدوده التاريخية وعن رغبته في تخليص هذا المجتمع وتوسيع حدوده التاريخية عن طريق حلمه بالبراءة ومثله العليا الجديدة ، كما تكشف عن اصراره على هوية مركبة ثنائية ، كأفريقي وكأمريكي ٠ فهو لم يكن نبيا مجنونا يريد تحطيم كل الحدود التاريخية والانسانية ـ كي يحقق فردوسا أرضيا خالصا ٠

وبعد قبوله للمثل الاخلاقية الاسلامية ، وبعد طرده لشبح أمريكا البيضاء ، استطاع مالكولم الانسان الجديد أن يكتشف نفسه ويكتشف روحه الجميلة الحقيقية ٠ وتصل السيرة الذاتية الى ذروتها حين يكتشف مالكولم المتحرر ، في عالم البراءة الجديد ، في مدينة مكة المكرمة ، « نزعات مثالية » (ص٣٣٣) في نفسه ٠ ان هذه لصيحة بعيدة الدوي من كلب البودل الوردي ، والبلطجي ، الذي أرادت أمريكا البيضاء من مالكولم أن يكونه ٠ ان تلك السيرة الذاتية هي حقا ترتيلة تمجيد لروح الانسان ، القادرة على التحمل ، بل على الانتصار ٠

الباب الرابع

المرأة الأمريكية بين التاريخ والفردوس

١ ـ تمهيد :

كان مـــن المستحيل ان اذهب الى الولايات المتحـــدة دون ان يجذب انتباهي حال المرأة هناك ، فقد قيل لي ان الولايات المتحدة هي البلاد التي تحكمها النساء ويرتع فيها الاطفال ، أما الرجال فهم فـــي مصانعهم أو مكاتبهم أو أمام التليفزيون ، باختصار هـــــم دائمـــا «يعملون» شيئا ما ٠

حينما حملت متاعي انا وزوجتي في عــــام ١٩٦٣ وارتحلت الى هناك ، حاولـــــت ان اعيش الاسطورة وحاولـــــت جاهـــدا ان ألائم الواقع مـــع الفكرة (كمـــــا يفعل معظم الناس وكما أفعل عادة) ولكن دون جدوى ٠ فلقـــد لاحظت زوجتي ان صديقاتها الامريكيات مرهقات جسديا ونفسيا وان حياتهن يتخللها قـــدر كبير من التوتر نظرا لانهن مشغولات دائما لا يكففن عن العمـــل أو التفكير في الاطفال أو في توصيل الزوج الى عمله أو اعداد الطعـــام او الذهاب الى عملهن ــ كـــن لا يتكلمن ابدا عـــن حياتهن وانما كانوا يثرثرون عن حياة ازواجهن ٠

وفجأة بدأت زميلاتي واساتذتي من السيدات في الجامعة وجاراتنا وصديقات زوجتي في الشكوى من وضع المرأة الامريكية ٠ كانت اسباب الشكوى شيء مألـــوف ، فنحن المصريون نعيش في مجتمع يؤمن ايمانا جازما بأن المرأة (اي مرأة) أقل من الرجل (اي رجل) في عقلها وقوتها وتصوراتها الفكرية ٠ وحيث انني اقوم بالتدريس في كلية البنات فانا أرى بنفسي الترجمة العمليـــة لهذه العنصرية ، فكم من خريجة منحها الله عقلا ذكيا وموهبـــة لا حد لها انتزت كـــل آمالها داخل جدران اربعـــة ، لان زوجها يؤمـــن بأن مكانهـــا هو المنزل ، وكم من طالبة متزوجة تعيش في هلع لانها لا تنجب ذكورا وزوجها صاحب الحول والطول « نفسه في ولد »، كما لو كان تحديد

جنس الجنين من مسؤولية المرأة (ولو قرأ هذا الرجل المصري بعض كتب البيولوجيا لعرف انه هو المسؤول عن تحديد جنس الجنين) ـ أقول كانت الشكاوى مالوفـــة نظرا لان المرأة الامريكيـــة هي مثل زميلتها المصرية قد وقعت ضحيـــة استغلال مجتمع الرجال ، وان كانت الظروف الاقتصادية والاجتماعية والحضارية مختلفة· ولكن، على الرغم من هذا كنت الاحظ ايضا انه ثمة نبرة غريبة في شكوى من أعــرف من سيدات أمريكيات ، حتى كـــان يخيل لي أن تمردهن ليس موجها ضد ظروفهن الاجتماعيـــة او وضعهن الإنتاجي ، بل كان موجها الى وضعهن البيولوجي ذاته · وحينما عدت عام ١٩٧٣ بعد فترة غيـــاب دامت أربع سنوات تدعمت كـــل شكوكي ، فثورة تحرير المرأة ذات الجذور الاجتماعية لفحتها لفحـــة فردوسية اتت عليها وحرمتها من بعدها التاريخي وجعلت منها تمردا فاقد الاتجاه والمحتوى والدلالة ، وبالتالي ليس له اية فاعليـــة اجتماعية · وقد لاحظنا ان هذا النموذج يتكرر في معظم حركات السخط في الولايات المتحدة ، فالساخطون على الاستغلال لا يتحولون الى تنظيم سياسي وانما يدخنون الحشيش ويتعاطون المخدرات ، وبدلا مـــن « الانسان النـــاجح » لا يظهر « الانسان الثـــوري » وبدلا مـــن « الانسان ذي البعد الواحد » لا يظهر « الانسان متعدد الابعـــاد » ، وانمـــا يظهر « الانسان المكتئب » او « الانسان الفـــاشل » واليسار الجديد يصدر عن تحليل للواقع التاريخي ولكنـــه سرعان مـــا ينتهي الى الفعل المباشر · وحركة تحرير المرأة في الولايات المتحدة ليست استثناء عن القاعدة بل هي تكرار لنفس النمط والنموذج ، وهو نمط لا يمكن تفسيره الا على أساس عدم وجود تاريخ امريكي وعدم وجود وعي به ، فالوعي بالتـــاريخ هو في جوهره وعي بالوجود الاجتمـــاعي للانسان ـ اي ان يرى الانسان نفسه جزء من كـــل انساني يمتد في الماضي · ولكنه بافتقاد هذا الوعي وهذا الوجدان التاريخي يصبح الانسان جزءا من الحاضر وحسب ، ويصبح مجموعة من الاحاسيس والانفعالات وردود الافعال التي لا يضبطها اي ضابط والتي يمكنها ان تتجه في اي اتجاه ، اذ ان المركز في هذه الحالـــة يصبح جهاز

الانسان العصبي واحتياجاته الشخصية • ولنبدأ بتحليل الجذور الاقتصادية لحركة تحرير المرأة مرجئين الحديث عن النزعة الفردوسية الى النصف الثاني من المقال •

٢ ـ تحرير المرأة الامريكية والتاريخ

يحتاج النظام الرأسمالي الى عمالة فائضة دائما ، نوع من البروليتارية السائلة غير مرتبطة بوظيفة محددة على استعداد للعمل في اي مكان وفي اي وقت دون ان تصبح جزءا عضويا من عملية الانتاج نفسها ـ اي انها تظل دائما **داخل** الانتاج **وخارجه** في الوقت ذاته • ووجود مثل هذه العمالة السائلة هام وضروري من وجهة النظر الرأسمالية لسببين : **اولا** للضغط على العمال المنتظمين حتى يتمكن من ابقاء اجورهم عند الحد الادنى الممكن • **ثانيا** يحتاج النظام الرأسمالي لهذه القوة السائلة حتى يتمكن الرأسماليون من نقل رأسمالهم من استثمار لآخر • ووجود فائض دائم من العمال يمكن الرأسمالي استئجار اي عدد من العمال في اي وقت ، فلو تحققت « العمالة الكاملة » لاصبحت حركة النظام بطيئة للغاية بل ولاصبحت مستحيلة من بعض النواحي •

ويقوم المهاجرون الجدد والزنوج بسد حاجة الرأسمالية الامريكية في هذا المجال ، ولكنهم ـ من وجهة نظر رأسمالية ـ يعدون متخلفين نوعا لان خلفيتهم الحضارية تعوقهم عن التأقلم السريع مع النظام وعن الاسهام الكفء في عملية الانتاج ، كما انهم لا يمكنهم القيام ببعض الاعمال الفنية •

من هنا تكون اكثر من فريق للعمالة الفائضة في الولايات المتحدة واحد لمختلف الاعمال اليدوية وقوامه المهاجرون والزنوج ، والاخر للاعمال المتقدمة نوعا مثال السكرتارية والخدمات الاجتماعية وبعض الاعمال الادارية وبعض الاعمال الصناعية الخفيفة وقوامه السيدات (وهذه العمالة الفائضة تكتسب اهمية خاصة اثناء « الحروب المحدودة » العديدة التي تخوضها امريكا حيث تحل السيدات محل المحاربين الذكور في غابات اسيا) •

بهذا المعنى تكون سيدات امريكا اقلية مضطهدة مستغلة اقتصاديا ، وهي مثل كل الاقليات تصل الى وعي نفسها في لحظة من اللحظات الزمنية وتبدأ في التمرد والمطالبة بحقوقها كما فعل الزنوج والبورتوريكان من قبل .

وقد يكون من المفيد ان نذكر ان بين مجموع المواطنين الامريكان الذين يكسبون اكثر من ١٠ الاف دولار يوجد ٢٪ فقط من السيدات ، وانه من اوائل الستينات نجد ان اكثر من نصف سيدات الولايات المتحدة يعملن « بعض الوقت » لاكله ، اي انهن على استعداد دائم لشغل اي وظائف جديدة وللحلول محل اي رجل يفصل او يسافر لفيتنام ! ولكن حتى تتضح الصورة في ذهننا يجب ان نذكر ان ٩٥٪ من الوظائف التي يزيد اجرها عن ١٥ الف دولار يشغلها امريكان بيض ، اي ان الاضطهاد ليس جنسيا وحسب انما اضطهاد عنصري طبقي ايضا . ولكن لانه اضطهاد جنسي \عنصري\ طبقي تكون المرأة السوداء المتزوجة من الزنجي محدودة الدخل هي اكبر ضحية للاضطهاد الرأسمالي الامريكي . وقصيدة « اغنية ليلة الجمعة » التي كتبتها الشاعرة رواآشر تعبر عن هذا الاضطهاد المركب الذي يقع على المرأة السوداء :

اركب الاتوبيس بقدماي المرهقتين المعذبتين .
حزينة انا ... اظن انني سأكتب قصيدة .
عن الاجور المنخفضة وسعر اللحم المرتفع .
ارفعي رأسك يا فتاة ـ فانت ذاهبة للمنزل .
هاأنذا ذاهبة ـ وزمن طويل انقضى ،
والاتوبيس يجري ، يأخذني الى المنزل .
يا مطبخي العزيز الذي علي ان اغسل ارضه حتى تصبح ناصعة البياض .
يا اطفالي الاعزاء الذين علي ان اطعمهم ،
يا زوجي الذي ينتظرني الليلة ،

وعندي الكثير لنقوله ··· وليس عندنا الوقت ·
هاانذا ذاهبة ـ وزمن طويل انقضى ،
والاتوبيس يجري يأخذني الى المنزل ·
قضيت زمنا طويلا في مدينة المدير الابيض
ولم ار وجه اهلي في المكان الذي انا راحلة عنه
اعمل طوال الاسبوع في المدينة الحزينة ،
ولكنها الان ليلة الجمعة وساعود للمنزل ·
هاانذا ذاهبة ـ وزمن طويل انقضى
والاتوبيس يجري يأخذني الى المنزل ·

وبطلة القصيدة السوداء مضطهدة اكثر من زوجها من بعض النواحي ، فهي تعمل داخل المنزل وخارجه في الوقت ذاته ، وهذا ناجم عن ان خطأ ما حدث في «تقسيم العمل» في الولايات المتحدة (وفي معظم المجتمعات الصناعية الحديثة) · فتحرير المرأة في اواخر القرن التاسع عشر واوائل القرن العشرين الذي تم في الاطار البورجوازي الحضاري كان يعني حق المرأة ان تعمل خارج المنزل الى جوار عملها داخله ، ولذلك فالمرأة العاملة في الواقع تعمل ضعف الرجل · أن النظام الراسمالي مبني على اساس ان المرأة تعمل في المنزل دون مقابل مادي او معنوي ، ولذلك يقال انه اذا تزوج رجل ما من خادمته (التي يدفع لها اجرا ويحسب عملها ضمن القوة العاملة) فانه ينقص بذلك الدخل القومي لانه لن يدفع اجرا لزوجته ، كما ان عملها غير محسوب ضمن القوة الانتاجية ·

ومما يزيد العبء على الزوجة ان الاسرة الامريكية « اسرة نووية » تضم الاب والام والاولاد وحسب (على عكس « الاسرة الممتدة » التي تضم الجد والجدة والاعمام والاخوال احيانا وهكذا) · ففي اطار الاسرة النووية يجابه الانسان اعباءه اليومية كلها بمفرده دون توجيه او مساعدة ، كما ان الاطفال يمثلون عبئا ثقيلا عليه لان في العائلة الممتدة يكوّن الاطفال مجتمعا هرميا

خاصا بهم يسيرون امورهم بنفسهم ويتبادلون الخبرات والمعلومات فيما بينهم دون اللجوء الى الكبار في كل صغيرة وكبيرة ، مما يخفف العبء النفسي الى حد كبير ·

وكملاحظة جانبية لا بد وان نشير الى ان بناء الاسرة النووية بناء ضيق خانق ، فالزوج لا يخرج الا مع زوجته وبالتالي لا تخرج هي الا معه · واذكر اني حينما كنت اود الخروج دون صحبة زوجتي كنت اجد صعوبة في اقناع اي من اصدقائي الامريكان البيض بذلك ، وفي النهاية كنت اخرج مع صديق زنجي وآخر من اصل يوناني · ونفس الصعوبة كانت تواجهها زوجتي فهي كانت تضطر للخروج مع سيدة من اصل الماني والزنجية زوجة صديقي اليوناني الاصل · وكلهم ينتمون الى شرائح اجتماعية تسيطر عليها تقاليد حضارية تتقبل فكرة الاسرة الممتدة · في داخل اطار الاسرة النووية لا يمكن للرجل المتزوج الا ان يصادق رجالا متزوجين ولا يمكن للمرأة المتزوجة ألا ان تصادق نساءا متزوجات وقد تبدو هذه مسألة طبيعية للغاية ، ولكن نتائجها الحضارية عميقة للغاية فهي تعني ان الزوج يحصر اهتماماته في اهتمامات زوجته (وهذا قد يكون مقبولا بالنسبة له لانه يقضي معظم حياته خارج المنزل يعبر عن انسانيته وامكانياته) ولكن الادهى ان الزوجة تحصر اهتماماتها في اهتمامات زوجها ، وحيث انها تقضي كل وقتها في المنزل فانها تصبح عبئا على نفسها وعلى زوجها ·

وكثيرا ما كنت اسمع زوجات زملائي يتباهين انهن يعرفن كل كبيرة وصغيرة عن ازواجهن ودراساتهم ، واتجاهاتهم واساتذتهم وتقديراتهم ··· الخ ، وفي الوقت ذاته لا يعرف المرء ما هي اهتماماتهن او اتجاهاتهن او حتى احزانهن او اتراحهن ، اي انه في اطار الاسرة النووية يحدث مصادرة جزئية لحرية الرجل ومصادرة كاملة لحرية المرأة ، هذا على عكس الاسرة الممتدة حيث يمكن للزوجة ان تنشيء علاقات مع اختها او امها وحتى حماتها ، ويمكن للرجل ان ينشيء علاقات مع معارفه من الرجال · وكما ان مجتمع الاطفال يفيد في تبادل الخبرات وفي الانضاج الانساني ،

كذلك نجد ان مجتمعات الرجال ومجتمعات النساء المنفصلة تقوم بنفس الوظيفة • لكل هذا نجد ان ازمة المرأة الامريكية كانت آخذة في التفاقم لانها اصبحت غير قادرة على العثور على ذاتها الحقيقية •

وقبل ان نسترسل في ذكر بعض الاسباب الاخرى التي ادت الى ظهور حركة تحرير المرأة في الغرب ، يجب ان نتوقف لنذكر انفسنا ان نظام الاقتصاد الرأسمالي ـ شأنه شأن اي نظام اقتصادي آخر ـ ليس مجرد عملية انتاجية ميكانيكية تتم خارج الانسان وبمعزل عنه وانما هو وضع نفسي وموقف عاطفي وتصور محدد للنفس البشرية • فالانسان في المجتمع الاقطاعي على سبيل المثال كان لا يرى نفسه الا كعضو في جماعة (ولذلك نجد ان كلمة Individual في العصور الوسطى كانت تعني عضو في جماعة) اما في المجتمع الرأسمالي بجميع مراحله (سواء كانت رأسمالية تجارية او صناعية او مالية) فان الانسان يصبح مجرد وحدة انتاجية يعيش لنفسه وبنفسه منفصلا عن الاخرين • ان الانماط الانتاجية المختلفة لم تهبط علينا فجأة بل طورها الانسان بنفسه وابتدعها • وهو اثناء ممارسته التاريخية تلك قد صنع نفسه وابتدعها ، ان اي نمط انتاجي يستند الى تصور محدد للنفس البشرية وتطورها ـ تصور هو ذاته ثمرة هذا النمط الانتاجي • لذلك يكون من الافضل الا نسأل السؤال البيزنطي التقليدي عن البيضة والفرخة او عن الواقع الاقتصادي والانسان وايهما يسبق الآخر ، بل نرى انه ثمة علاقة جدلية تربط الواقع الاقتصادي بالافراد الذين يعيشون فيه وانه اذا كان الواقع الاقتصادي مسؤول عن وجود الافراد على هذه الصورة ، فالافراد هم ايضا المسؤولون عن وجود الواقع الاقتصادي على هذه الصورة • وحيث ان الانتاج مرتبط بنموذج انساني محدد نجد ان نمط الانتاج الرأسمالي مسؤول عن كثير من السمات التي تسم الانسان الامريكي • فالاسرة النووية التي اشرنا اليها لم تنشأ مصادفة وانما هي ترجمة اجتماعية لمحاولة تنشئة الانسان الرأسمالي الفرد المنفصل عن

الاخرين ، ولذلك فلتهدم الاسرة الممتدة حتى نخلق التربــة التي تسمح بسهولة بيع العمل الانساني وانتقال راس المال في دينامية عمياء لا تقف في طريقها اي تنظيمات اجتماعية متخلفــة ! وقد يسبب هذا الانفصال الكثير من الالم الانساني ، ولكن ليست هــذه هي القضية • والراسمالية ايضا هي المسؤولة عن ظهور الانسان الاستهلاكي الذي يصاب بالسعار فيصبح كالشفاطــة التي تريد ابتلاع كل شيء كبر حجمـــه وغلا ثمنه • ولارضاء هذا السعار الاستهلاكي تشتري الزوجــة ثلاجة ضخمــة (اضخم من ثلاجة الجيران) وتضطر ان تترك اسرتها لتعمــل لسداد الفاتورة فتتهدم الاسرة ويزداد التوتر في حجمــه زيادة تتناسب تناسبا طرديا مع حجم الاستهلاك •

ولزيادة السعر الاستهلاكي تطلـــق الرأسمالية قوى الانسان الجنسية من عقالها ، كما بينا من قبل ، وهذا الانسان الاستهلاكي هو الترجمة العمليـــة لمبدأ اللذة الكمي البورجوازي الذي يعرف السعادة على انها ارضاء اكبر قدر ممكن مــن الرغبات لاكبر عدد ممكن من الناس ! ان هذا الانسان يعيش داخل نفسه منفصلا عــن الاخرين وعن تراثه ، ولذلك فهو يعيش في الجسد يبحث عن المتعة المباشرة التي لا علاقة لها بالخير او بالشر • واذا احس بالاغتراب فهو يهزم اغترابه بانشاء علاقة جنسية ، فالعلاقــة الجنسية وسيلة مباشرة وسهلة وملموسة للاتصال بالاخرين • ولانـــه يدور حول نفسه تصبح الاسرة امرا غير هام ، فاهتمامنا بالاسرة ينبع مــن ايماننا بان الوجود الانساني وجود جماعي وان الاسرة هي المكان الذي نتوارث فيه القيم الجماعية التي كد الانسان عبر تـــاريخه للوصول اليها ، وهو المكان الذي نكتسب فيه هويتنا الاجتماعيــة والتاريخية والانسانية ونعدل ونشكـــل هويتنا الطبيعية الفجـــة بالتدريج وباقل قدر ممكن من الالم •

هذا الموقف مــن الجنس اثر ولا شك على بناء الاسرة وزاد من تحللها بل ويهددها بالاختفاء تمامـــا ، مما اضعف مــن دور المرأة التقليدي كزوجة وام الامر الذي يجعلها تبحث عن دور اخــر لهــا •

واذا كان الموقف الاستهلاكي من الجنس قد اضعف من دور المرأة التقليدي فانه يلقي على كاهلها عبئا من نوع جديد ، فاينما تفتح التليفزيون الامريكي تجد امرأة نصف عارية تبيع لك شيئا ما • وهذا يصعد من توقعات الرجل الامريكي بالنسبة للجنس والمتعة التي يتوقعها • وتبدأ الامور تختلط في ذهنه ويتوقع من زوجته ان تصبح مارلين مونرو او احدى آلهات الجمال البورجوازيات (ويحاول هو جاهدا بالتالي ان يصبح مارلون براندو) مما يسبب الكثير من عدم الاطمئنان والاحباط للزوجة • وتساهم الشركات المنتجة لادوات التجميل في تصعيد توقعات الذكور من الاناث فتضطر الاناث للاستهلاك • ومما يجدر ذكره ان استهلاك الامريكان لمستحضرات التجميل يبلغ ما يزيد عن ٤ بليون دولار • ولعل هذا الجانب من الحضارة الامريكية هو الذي يفسر ثورة السيدات العارمة على ادوات التجميل والرموش الصناعية والمساحيق الكيماوية والعطور اللانهائية ، لانه ثمة احساس بالسخط على هذه الصناعات التي تعمل جاهدة على اقناع المرأة بالتحول الى شيء جميل « يثير الرجل جنسيا » • ولعل من اجمل قصائد السخط التي كتبت عن هذا الموضوع قصيدة « الفتاة السلعة » :

الفتاة الجميلة كالسلعة ،
تباع وتشترى مع اسهم الشركات •
حينما ترتفع الاسعار في السوق
احسب اسهمك
فيما ترتدي من ملابس
لان هذا هو مصدر الربح •
الفتاة الجميلة في هذا المجتمع
يحكم عليها حسب المظهر وحسب ،
ان ما ترى على وجهها
يكون في الغالب بقايا
المواد الكيماوية التي يستخدمونها في الحروب

ان البيت الاخير يدل على احساس الشاعرة بانه ثمة تكامل

في بنية المجتمع الامبريالي الامريكي المسؤول عن انتاج النابالم ومسحوقات التجميل • ففي كلتا الحالتين نجد ان الهدف من عملية الانتاج هو الانتاج ذاته بحيث يدخل المجتمع دائرة الانتاج الآخذة في الاتساع اللانهائي ، ولضمان هذا تدخل الرأسمالية حروبا محددة مع الشعب الفيتنامي تستهلك فيها الآف الدبابات والطائرات والغازات السامة والامريكان ، وتدخل ايضا حروبا غير محدودة مع الشعب الامريكي والمرأة الامريكية بالذات • وتستهلك في هذه الاخيرة ملايين السيارات والمسحوقات والثلاجات والاستقرار والهدوء النفسيين • بل انني ارى ان هذه « الامبريالية النفسية » يمكنها ان تحقق ارباحا للرأسمال الامريكي دون معارك حربية في الخارج ، ويمكن توسيع رقعة السوق الرأسمالي لا عن طريق الانتشار الافقي في الخارج بل عن طريق الانتشار الرأسي الداخلي وتصعيد السعار الاستهلاكي • ولكن كما فشلت الامبريالية العسكرية في فيتنام لان العسكريين الامريكيين لم يكن عندهم تصور كاف عن مدى صلابة الشعب الفيتنامي ومقدرته على الكفاح والنضال، نجد ان الامبريالية النفسية هي الاخرى آخذة في الفشل لان الانسان الامريكي والمرأة الامريكية في نهاية الامر انسان مكون من جسد طبيعي ووعي تاريخي وليس شيئا « طبيعيا كهذا » بعد واحد ، ولذلك اذا عومل على انه شيء جميل «يثير اللذة الجنسية» فانه يثور ويحتج ويلقي بالرموش الصناعية والنهود البلاستيك في وجه مستغليه ! وهذا الجانب من حركة تحرير المرأة جانب ايجابي ولا شك لا بد وان نستفيد منه وان ندرسه ونحاول تطبيقه على مجتمعنا ، فهذه الحركة تنبهنا الى انه لا بد من اعادة تعريف دور المرأة ووظيفتها في المجتمع الصناعي (ونحن على عتبات المجتمع الصناعي الحديث ان لم نكن قد وصلنا له بالفعل) • فدور المرأة كما نعرفه الان ليس نتاج واقعنا وانما هو استمرار لواقع قديم متناه في القدم حين كانت القوة العضلية عنصرا اساسي في عملية الانتاج ، اما في المجتمع الصناعي فالقوة العضلية ليست مطلوبة على الاطلاق وانما الامر اللازم توافره هو مقدرات عقلية معينة يكتسبها الانسان عن طريق التعلم ، وهذه

المقدرات والخبرات يمكن توافرها للمرأة قدر توافرها للرجل . ولا بد وان يتيح المجتمع الانساني الفرصة للمرأة الموهوبة ان تخرج لتحقيق كل اماكنياتها ، كما انه لا بد وان نعيد تقويم موقفنا من تصورنا للعمل فيجب على الرجل والدولة والمجتمع ان يعترفوا بان العمل في المنزل هو عمل منتج وانه ان لم تقم به الزوجة سيقوم به شخص آخر في ساعات عمل محددة ونظير اجر محدود . هذا لا يعني انه على الزوج او الدولة ان تقدر للزوجة اجرا نظير عملها في المنزل ، لان تحديد مثل هذا الاجر صعبا وغير مستحب (كيف ستحدد فعلا اجر زوجة المدير وزوجة العامل ؟) وانما يعني تغييرا في موقفنا النفسي من المرأة ووظيفتها، وبالتالي حينما يعود الرجل الى منزله انه لا يسخط باعتبار انه كان « يعمل » بينما كانت زوجته في المنزل وانما سيخفض من صوته قليلا لانه بينما كان يعمل كانت زوجته هي الاخرى تشقى وتكد ، ترضع الاطفال وتغسل الصحون وتتسلق السلالم وتشتري الخضار وتطبخه وتحكي القصص للاطفال وتعطي من ذاتها وكيانها له ولاولادهما . ولعل فكرة اعادة تحديد تعريفنا للعمل قد يهدىء من بال كثير من السيدات اللائي يجدن انفسهن مضطرات للخروج من المنزل للعمل في وظيفة ما كي يكسبن احترام ازواجهن ، على الرغم من ان هذه الوظيفة قد لا تكون خلاقة او ممتعة ، كأن تعمل المرأة في الارشيف او في مصنع او اي عمل روتيني آخر لا يعادل باي حال عملها كأم وربة منزل وزوجة ، ولكنها تجد نفسها مضطرة لذلك لان عملها في المنزل لا يحسب كعمل .

وتطالب حركة تحرير المرأة الحكومة الامريكية باعتماد ميزانية كبيرة لانشاء دور حضانة جيدة للامهات العاملات (وهو طلب رفضته الحكومة التي تنفق البلايين في فيتنام وعلى اسرائيل ، رفضته بحجة الحفاظ على بناء الاسرة !) كما تطالب الحركة ايضا باعطاء اجازات حمل وولادة ورضاعة وتربية للام ، وان تتاح الفرصة للام الموظفة ان تاخذ اجازة طويلة حتى تنتهي واجباتها

الانسانية تعود بعدها للوظيفة طول الوقت او بعضه ان شاءت ، والا تعاني من التفرقة بينها وبين نظرائها وزملائها من الرجال لانها تقوم بواجباتها الانسانية • ولا تزال بعض هذه الاقتراحات شعارات ومطالب ثورية ، وهي شعارات ومطالب اعتقد انه قد يكون من المفيد تنفيذها او تعميمها في بلادنا حتى لا ندع الامور تصل الى درجة الازمة ، وحتى نحافظ على كيان الاسرة المصرية دون ان نقمع انسانية المرأة \الزوجة\ الام • ولعل برنامج جماعة ناو (الآن ـ اختصار « المنظمة القومية للنساء » « ناشيونال اورجانيزا فورويمن ») مثل طيب على هذا النوع من المطالب النسائية المحددة التي يمكن ان تخضع للنقاش وللتقويم وللاخذ والرد والتنفيذ • وتطالب الجماعة بالتالي : ـ

١ ـ تعديل الدستور لكي ينص على المساواة في الحقوق •

٢ ـ تنفيذ القوانين الخاصة بالغاء التفرقة بين الجنسين في العمل •

٣ ـ اجازات للولادة •

٤ ـ استقطاعات من الضرائب نظير تكاليف العناية بالمنزل والاطفال •

٥ ـ انشاء حضانات للاطفال •

٦ ـ نظام تعليمي يتسم بالمساواة وعدم التفرقة •

٧ ـ اتاحة الفرصة للسيدات الفقيرات ان يتدربن مهنيا وعلى ان يمنحن اعانات •

٨ ـ حق المرأة في التحكم في الانجاب •

ولكن لا بد وان اضيف انه حتى لو نفذت هذه الاقتراحات في الولايات المتحدة فالمشكلة لن تحل اذ ان الخلل في المجتمع الامريكي خلل جوهري ، خلل في ايقاع المجتمع ذاته ، وفي نمطه الانتاجي وفي طريقة استغلاله للمصادر وطريقة توزيعه للثروة • ولن يحل هذا الخلل الا نمط جديد من العلاقات الانتاجية الانسانية التي ستحاول ترشيد الانتاج وتوجيهه بما يتناسب مع الحاجات الانسانية الفعلية للشعب الامريكي •

٣ ـ تحرير المرأة الامريكية والفردوس

رغم ان الناس سواسية كاسنان المشط ، ورغم انه امام الله لا فضل لعربي على عجمي الا بالتقوى ، الا انه يوجد العربي والعجمي ، والابيض والاسود ، والطويل والقصير ، والصبور والطموح ، ومن يحب دراسة العلم ومن يفضل التأمل الفلسفي ، ومن يعشق البحر ومن لا يطيق رؤيته ، ومن يحب السكنى في دمنهور ومن لا يرضى بمصر الجديدة بديلا ٠

خلقنا الله جميعا كما خلق الذكور والاناث ، وهذه ليست تفرقة ذات مضمون اجتماعي واقتصادي وانما هو مجرد تمييز بين سمات الواقعة المختلفة المتساوية ، واعتراف بأن مكونات الواقع ليست متشابهة وانما متعددة ومتنوعة ٠ والحمد لله اننا لا نعشق البحر كلنا وان بعضنا يرضى بديلا عن مصر الجديدة ، والا لاكتظ البحر واضحى مثل الارض ولازدحمت مصر الجديدة بسكانها واصبحت مثل وسط البلد والعياذ بالله ٠ ان التنوع هو سمة الوجود الانساني التاريخي ، واي محاولة لالغاء التنوع او تجاهله هي محاولة فردوسية تدور في اطار الاساطير او البدائل المستحيلة! ومما لا شك فيه ان بعض المجتمعات تحاول اعطاء مضمون طبقي اقتصادي لهذه التمييزات ، كان يصبح البياض هو علامة انتماء لطبقة ما والسواد علامة على الانتماء لطبقة اخرى (كما هو الحال في روديسيا وجنوب افريقيا واسرائيل والولايات المتحدة) الا اننا جميعا نرفض مثل هذه التفرقة وان كنا لا ننكر وجود الاختلافات بين الجنسين ٠ وحركة تحرير الزنوج في الولايات المتحدة تطالب بالمساواة الاقتصادية والسياسية والدينية ولكنها تناضل في الوقت ذاته من اجل استقلال الزنوج الحضاري والنفسي

عن الولايات المتحدة ، وهذا علامة نضوج الزنوج في الولايات المتحدة ، لان الالغاء الكامل لكل الفروق بين البشر امر لن يتحقق الا في الفردوس باذن الله خارج التاريخ ، وعلى من ينشد الخلاص داخل التاريخ ان يتقبل جدلية الواقع الانساني كحقيقة قائمة وكامكانية كامنة ، وان يتخلى عن احلامه الرومانتيكية بالفردوس الارضي الذي لا تحده حدود ولا سدود · ومع الاسف نجد ان التفكير الفردوسي يسيطر سيطرة كاملة على بعض القطاعات في حركة تحرير المرأة في الولايات المتحدة ، فرغم ان جذور المشكلة واضحة ورغم انه يمكن الوصول لبعض الحلول الا اننا نجد تيارا فردوسيا يتخطى كل حدود التاريخ وامكانياته الحقيقية ويؤدي بحركة تحرير المرأة الى الانحدار الى المهاترات والشذوذ والتجريب اللاعقلاني ·

وكما بينتمن قبل ان عدم وجود وعيبالتاريخ فيالولايات المتحدة هو الذي يؤدي بكل حركات السخط الى ان تتجه هذا الاتجاه الفردوسي (والامريكيون بالفعل يتسمون بقدر غير انساني من البرءاة وكانهم لم يسقطوا من الفردوس ولم يذوقوا من شجرة المعرفة بالخير والشر) ولذلك فهم حينما يتصورون الخير فهم يتصورونه خيرا خالصا ويحلمون بالفردوس الارضي ، وحينما يتصورون الشر فهم يتصورونه هو الاخر شرا خالصا ·

هذه البرءاة الامريكية هي التي تؤدي بالامريكيين الى التطرف ، وهي برءاة يشجعها النظام الاقتصادي لانها تبقي الانسان بمعزل عن التفكير الجماعي السياسي الايديولوجي وتفتت الواقع السياسي الى قضايا معزولة بعضها عن البعض · فهذه قضية جماعات المقامرة في بلدة كذا ، وتلك قضية ووترغيت · ..

وهذه قضية رشوة البوليس في نيويورك وهذه مشكلة عصابات المافيا وتلك مشكلة الزنوج وهكذا ، بدلا من رؤية كل المشاكل على انها تعبير متنوع عن ظاهرة واحدة وهي الرأسمالية الامبريالية الاستهلاكية ·

وهذه البراءة وعدم التحدد التاريخي هو الذي يخلق مشكلة

هوية بالنسبة لكل الامريكيين ، فالامريكي يقضي حياته يسأل نفسه دائما من انا لان المجتمع لم يضع له تعريفا ولم يلصق بـه بطاقـة تخبره عن اسمه وهويته وانتمائـه الطبقي وجذوره التاريخيـة وتوقعات الناس منه ، بل تتركه حرا غير منتم في مجتمـع مفتـوح يتحرك بسرعة خرافية (هذا على عكس المصري الذي يقضي حياته محاولا ان يثبت للجميع ان له هوية فرديـة مستقلـة ، وان البطاقة التي لصقها عليه المجتمع ليست مطابقة تماما لواقعه النفسي الفردي ولطموحه وآماله) . والمـرأة الامريكيـة عندها ازمة هوية لنفس السبب ، ولذلك فهي الاخرى تسأل نفسها هذا السؤال الميتافيزيقي: من انا ؟ وهو ميتافيزيقي لانه سؤال مجرد لا اجابة له ، لان الانسان، اي انسان ، ليس شخصا واحدا وانما هو عدة اشخاص فهو مواطن وفـرد وزوج واب ومدرس ، ودوره كمواطـن قد يتنـاقض مع احتياجاته كفرد، وسعادته كزوج تتناقض مع وظيفته كمدرس وهكذا . ان طريقـة طرح السؤال تضع المرأة الامريكيـة في طريق مسدود لانها تجرد المرأة مـن اي سياق تاريخي ، ولذلك نجد ان الكثير من مفكري تحرير المرأة ينزلقون الى تعميمات مضحكة في تجريدها .

ونلاحظ ان موضوع الطلاق يتكرر في كتابات مفكري حركـة تحرير المرأة ، فجلوريـا ستانيم ترفض الـزواج ، وتشير الى ان ابويها اليهوديين قد طلقـا وهي بعد في سـن العـاشرة ، أمـا آنفريدمان ، التي نشأت في عائلة يهودية ، والتي شبهت كتاباتهـا بكتابات انبياء العهد القديم، فهي الاخرى قد طلقت منزوجها، وروبي مورجان تقرر ان تصبح انسانا كاملا وتطلق زوجها وهكذا وهكذا . وهذه ليست مجرد اشارات لاحداث خاصة لا يصح الخوض فيها ، وانما هي اشارات ذات طابع ايديولوجي تشير الى رفض جـذري لفكرة الزواج ـ لان هذه المؤسسة ، حسب تصورهن ، خلقت لنصف انسان وحسب ، وحينما يتحول الانسان النصف الى الانسان الكامل تبدأ المؤسسة في التحلـل . بـل ان جلورياستانيم ترفض انجاب الاطفال ، كمـا نفاجأ بمقالات عديدة على الاجهاض كمـا لو كـان الاجهاض امرا طبيعيا والولادة هي الامر الشاذ ـ والا بماذا نفسـر

تلك المقالـة التي تذكر ان الاجهاض الشرعي في المجر لا يسبب الا نسبة ضئيلة من الوفيات (واحد في الالف) ثم تقـارن هذه النسبة بنسبة الوفيات الناجمة عن الولادة في الولايات المتحدة ؟ ثم تضيف المقالة احصائية اخـرى مفادهـا ان الولادة في احسن الظـــروف تزيد اربع مرات في خطورتها عن عملية اجهاض تتم بشكـل علمي ! في هذا المستنقع الانساني نجد مقالا واحدا في مجلـة مز (وكلمـة مز هي كلمة محايدة حلت محل كلمتي « مس » و « مسز » ولا تـدل عما اذا كانت الانثى متزوجة ام لا وفي هذا مساواة بالرجال) عن ضرورة اطعام الرضيع بالثدي · ولكن المدهش في الموضوع ان كاتبة هذا المقال تدافع عن الارضاع الطبيعي لا لانه تحقيق لانسانية المرأة كأم وانما تدافع عنه لانه يعطي المرأة لذة عابرة ! اي انها تعود مرة اخرى لمبدأ اللذة النفعي · بل ان رفض الزواج هو في نهاية الامـر رفض لانجاب الاطفال ورفض للدخول في اي علاقة انسانيـة ذات عمق والاكتفاء باللحظات العاطفية العابرة ، او كما سمتـه احدى الزعيمات « تغراميـــات او زيجات قصيرة » ، وفي هذا فشل لفهم طبيعة الزواج ، هذه التجربة المستمرة وليست العابرة ذات العمق المعين · وربما هذا ما عنته جلورياستانيم حين صـرحت بانهـا لا تؤمن بالحب ، فنحن لا نؤمن بالحب الا اذا امنا بالانسان وبامكانية الثقة في الاخرين والاحتماء بهم والاعتماد عليهم · امـــا اذا كنا بورجوازيين ، افراد مستغلين منفصلين ، فنحن نعيش في حالة قلق من الاغيار نفترسهم او يفترسوننـــا ، واذا ما دخلنا علاقـــة حب فستكون علاقـــة افتراس ونهم ايضا ، تعطينا اكبر قدر ممكن من اللذة دون اي الم ·

ولعل هذا البحث عن اللذة الجنسيـــة الخالصة الفردوسية (وهي فردوسية لانها لا تبحث عـــن الاستمرار وترفض الارتباط الدائم كمـــا تحاول تحاشي اي نتائج اجتماعيـــة مثل الزواج او الاطفال) هـــو الذي يفسر انتشار الشذوذ الجنسي في المجتمعات الرأسمالية الغربية ، وهذه ظاهرة لا يمكن تفسيرها الا على اساس ايديولوجي · فكل مجتمع فيه شواذه ، ولكن الشذوذ في المجتمعات

الغربية قد زاد الى درجـــة اصبح معها يشكل ظاهرة (يوجد في الولايات المتحدة الان ما يزيد عن اربعة ملايين من الشواذ بل يوجد لهم بعض الكنائس التي يديرها وعـــاظ شاذون جنسيا مثل كنيسة لوس انجلوس ، وقد انشىء مؤخرا معبد يهودي للشواذ !) ٠

واعتقد ان الشذوذ هو النتيجة المنطقيــة والترجمة الوحيدة الامينة لمبدأ اللذة النفعي ، فالانسان الشاذ يمكنه ان ينشىء علاقة مع شخص اخر من جنسه فيتغلب على اغترابــه بشكل مؤقت ثم يعود مرة اخرى لحياته الاستهلاكية البسيطة ٠ وهو يتغلب على اغترابه دون ان يدخل في علاقات ذات اثار اجتماعيــة تضطره للدخول في علاقة حقيقية مع الاخرين ومع الواقع ، ان العلاقـــة مع شخص من نفس الجنس هي اقل العلاقات الانسانية جدلية ٠ وحينما كنت في نيويورك لاحظت ان الشواذ من النساء اصبح لهن وجود ملحـوظ ، وهذا تطور جديد لانه قبل ذلك كان الشواذ من الرجال وحدهم هـم المصرح لهم بالظهور ٠ وسبب هذا « التطور » او « التقدم » ولا شك يعود لحركة تحرير المرأة التي ينادي بعض زعمائها بأن المرأة الشاذة جنسيا هي المرأة التي استغنت كلية عن الرجال ، ولــذا فهي اكثـر النساء تحررا وهي المـرأة التي حققت داخـل التـاريخ المســاواة البيولوجية الكاملـــة مع الرجال ، وحققت بذلك الاكتفاء الذاتي ٠ لقد قالت احدى مفكرات الحركة حركـة تحرير المرأة هي النظرية : والساحقة هي التطبيق ٠

ومـــا نفتقده هنا في كل هذه المناقشات هو مفهوم للطبيعـة البشرية كما ظهرت بشكل معين عبر التاريخ وكما اوجدتها الممارسة الانسانية ٠ فالمرأة المساحقة من وجهـة النظر المنطقية المجردة هي بالفعل امرأة مستقلة استغنت عن الرجال ، ولكن هل هذا هو نموذج المرأة الذي توصلنا اليه من خلال ممارستنا التاريخية ؟ ام ان هذا نموذج مصنوغ ميكانيكي ملفق منطقيا (نموذج بلاستيك) تم تجريده والوصول اليه مـن واقع رأسمالي متعفن يرى الانسان شيئا وحيدا غير قادر على الحب او على التسامي ؟ ان المرأة كما نعرفها تتزوج من رجل ، والرجل كما نعرفــه هو الانسان الذي يتزوج مـن امرأة

وينجبا اطفالا · فلنقرأ كل الاساطير وكل الكتب المقدسة ولننظر الى كل عادات وممارسات مجتمعات العالم نجد مصداقا لرؤيتنا البسيطة · ولكن مفكري حركة تحرير المرأة ، شأنهم شأن المهيمنين على النظام الرأسمالي ، يبتعدون عن اي مفهوم للطبيعة البشرية التاريخية حتى يمكنهم فرض اي تلفيقات فلسفية منطقية ، وحتى يمكنهم القضاء على اي امكانية للتسامي ·

ولعل هذه التلفيقية المعادية للتاريخ تظهر في استخدام حركة تحرير المرأة للحقائق العلمية ، فكثير من مفكري الحركة يرفضون عبارة فرويد «ان صفاتنا التشريحية هي قدرنا»· وهم محقون في هذا فهذه مقولة غيبية ولا شك تجعل الانسان حبيس جسده ، وتقضي بالتالي على امكانيات الجدل ، اذ انها تنفي تقاليد البيئة والتاريخ والارادة الانسانية وتجعل الانسان عنصرا واحدا وهو جسده الطبيعي · ان عبارة فرويد فيها ضرب من الغيبية والحتمية العلمية التي تنبع غيبيتها من تجاهلها لمكونات الواقع الانساني الذي لا يمكن للعلم حصرها والتعامل معها بشكل متكامل ·

ولكننا مع هذا نفاجأ بأن ادب ثورة تحرير المرأة مليء « بالحقائق العلمية » والاحصائيات (مثل الاحصائيات عن الاجهاض) التي يخلصون منها الى نتائج عديدة متجاهلين الواقع الانساني التاريخي الذي هو من اهم العوامل ، كما كان يفعل مفكرو البنتاجون وهم يلقون بقنابلهم فوق فيتنام متناسين العنصر الانساني التاريخي الذي كان يزيد من صلابة الفيتكونج كما كانت تزداد ضحاياهم · واكبر دلالة على هذا التفكير العلمي المعادي للتاريخ هو المحاولات اليائسة التي يبذلها بعض مفكري الحركة للتدليل على المساواة البيولوجية بين الرجل والمرأة (ولنلاحظ ان البحث هنا ليس عن المساواة الاجتماعية والاقتصادية او حتى النفسية وانما هي المساواة البيولوجية، اي اننا تخطينا كل حدود التاريخ تماما)· وقد قرأت مقالا « علميا » كتبته عالمة اكتشفت ان للرجال « عادة شهرية » تماما مثل النساء فقد اثبتت مع اخرين ان نسبة الهرمونات تزيد في البول عند الرجال كل شهر ، كما لاحظت ان الزيادة

يصاحبها تقلبات في المزاج · ثم تضيف الكاتبة قائلة ان هناك تقلبات يومية عند الرجال (هل هي العادة اليومية ؟) · وتدليلا على صدق مقولتها تشير الى ان احدى شركات السكك الحديدية في اليابان تقبلت هذه « الحقيقة العلمية » ولذا كان يوضع جدول العمل حسب تقلبات المزاج مما نتج عنه تقليل الحوادث والحمدلله · وقد تكون حكاية الهرمونات هذه صحيحة ، وقد يكون فعلا اننا معشر الرجال ينقلب مزاجنا يوميا ، ولكن اذا كانت الظاهرة تتكرر يوميا اصبحت جزءا من ايقاع حياتنا اليومي ، ويبدو اننا بنينا حضارتنا الانسانية على هذا الاساس، وعلى العلماء ان يكتشفوا علاقة ايقاع الحضارة الانسانية بهذا الايقاع البيولوجي · اما بخصوص « العادة الشهرية » فمما له دلالته ان كاتبة المقال كان عليها ان تشير الى شركة في اليابان ، وان تقاس عن طرق جداول خاصة نسبة الهرمونات وان تكتب المقال وان تقصه لي صديقة في امريكا وترسله لي حتى اتعظ واسكت · ولكن السؤال الذي يجب ان نسأله دائما هو مدى علاقة «الحقيقة العلمية» المجردة بسلوكنا اليومي كبشر نشقى ونسعد ، فان لم يكن لها علاقة فانها تموت من وجهة نظر الانسانية اليومية وتصبح مسألة يهتم بها المتخصصون وحدهم · فمثلا اذا اكتشف عالم ما ان طول امعاء الانسان تزيد عن ٥ سم او خمسة امتار او حتى خمسة كيلومترات كما هو معروف فهذا لن يزيد من سعادتي ولا من شقائي بل ستظل هذه الحقيقة شيئا طريفا خاليا من اي مضمون انساني تقرأ عنه في « صدق اولا تصدق » ــ تماما كأن نعرف ان القنفذ لا يعاشر زوجته القنفذة الا ساعة الغروب (وهذه حقيقة علمية طريفة الفتها لتوي من اجل المناقشة ولا اعرف ان كانت صادقة ام لا ، كما لا يهمني ان اعرف ، لان حياة القنفذ الجنسية هي شيء يهتم به هو وحده وبعض علماء الحيوان المختصون في حياته الجنسية) ·

ولكن اذا جاء احد العلماء وبناء على هذه الحقيقة المصمتة اكتشف دواء معينا او ترجمها الى حقائق تمس حياتي اليومية ،

تصبح هذه الحقائق حقائق انسانية ذات بعد اجتماعي· ان اكتشاف زيادة الهرمونات في بول الرجل مسألة ذات اهمية حيوية للعلماء وحدهم لانها لا تؤثر في سلوكنا اليومي ، وحتى اذا اثرت فهي لا تشبه من قريب او بعيد التحولات البيولوجية التي تطرأ على الاناث · فالعادة الشهرية عندهن ينجم عنها تغيير في الايقاع اليومي وفي المزاج · ان اليمين حتمي في رؤيته حينما يقرر ان صفات الانسان التشريحية ، وبالذات صفات المرأة ، هي قدره · ولكن حركة تحرير المرأة باعتمادها غير التاريخي على الحقائق العلمية المجردة تقع في نفس الحتمية العلمية (وهي حتمية يقع فيها كثير من اليساريين الطفوليين العلميين الذين ينظرون للانسان على انه ظاهرة علمية ، كما لو كان الانسان جزءا من الطبيعة وحسب وليس له وجود تاريخي مستقل عنهما ، وهم في تصورهم الساذج هذا يشاركون الفكر الفاشي في اهم مقولاته دون ان يدروا) ·

كل ما تفعله هذه السيدات الثوريات هو توزيع الحتمية التشريحية على كل الناس ذكورا كانوا ام اناثا · ان صفاتنا التشريحية هي مجرد امكانية بيولوجية محايدة تشكل الاساس المادي للحياه بكل تنوعاتها ، ولكن حياتنا ليست مشروطة بهذا الاساس · فهذه الصفات الفسيولوجية يمكن تطويعها وتوجيهها باية طريقة للخير والشر ، فقوتنا الجسدية يمكن ان تصبح أداة للخير ويمكن كذلك ان تصبح اداة للشر ، وصفات المرأة التشريحية يمكن ان تكون مبررا لاستغلالها (كما يحدث الان) ولكنها تصلح ان تكون اساسا لتقسيم عادل وعقلاني للعمل يأخذ في الاعتبار امكانيات الرجل والمرأة الحقيقية ، فهي وحدها قادرة على الحمل وهي وحدها قادرة على الولادة وهي وحدها قادرة على ارضاع الطفل ، وهذه وظائف بيولوجية لا يمكن نقلها للرجل وليس المطلوب نقلها ، الا اذا تطور العلم بشكل مجنون وقرر التلاعب بكل شيء بما في ذلك وظائفنا البيولوجية (وهذا هو قمة الفردوسية وقمة انعتاق الانسان من كل حدود اخلاقية كانت ام تاريخية ام انسانية) · ولكن ما قد يبدو انه مجرد احتمال مجنون اصبح برنامجا سياسيا ·

ولننظر على سبيل المثال لا الحصر لمنشور صادر عن جماعة « سكم » اختصار لعبارة انجليزية والترجمة الحرفية للكلمة هي ، « جماعة التخلص من الرجال » · يبدأ المنشور بتأكيد ان الحياة في هذا المجتمع اصبحت شيئا « يبعث على الملل الشديد على اكثر تقدير ولذلك يكون على السيدات المسؤولات الباحثات عن المتعة ان يقلبن نظام الحكم ويلغين النظام النقدي ويدخلن نظام الصناعة الالية ويقضين على جنس الذكور » !

ثم يستطرد المنشور العتيد قائلا : « لقد اصبح من الممكن الان للسيدات ان ينجبن دون اي مساعدة من الذكور (ودون مساعدة من الاناث ايضا) وان ينجبن اناثا فقط · وينبغي البدء في هذا على الفور » ، ويذكر المنشور حقيقة بيولوجية هامة مفادها ان جينة الذكر ان هي الا جينة انثى غير كاملة ، اي ان جينة الذكور تحتوي على مجموعة غير كاملة من الكرموسومات ، بمعنى اخر ان الذكر ليس سوى انثى غير كاملة ، انه شيء مجهض يسير على قدمين ، شيء اجهض وهو لا يزال في حالة الجينية (وهي مرحلة سابقة للمرحلة الجنينية) · ولانه انثى غير كاملة يقضي الذكور تحتوي على مجموعة غير كاملة من الكروموسومات ، بمعنى ان يفعل هذا عن طريق البحث عن الانثى ومصادقتها والعيش معها والامتزاج بها وادعاء بان كل الصفات الانثوية هي صفاته مثل القوة العاطفية والاستقلال والقوة والدينامية والقدرة على اتخاذ القرارات وبرود الاعصاب والموضوعية وتأكيد الذات والشجاعة والتكامل والحويية والجدة وعمق الشخصية الخ · كما انه يسقط كل سمات الذكورة على المرأة مثل الغرور والسطحية والتفاهة والضعف الخ ·

الصراع اذن حسبما جاء في المنشور ليس بين الاناث والذكور ولكن بين « السكم » (الزبالة) الاناث المسيطرات الامنات الواثقات بالنفس الخبيثات العنيفات الانانيات المستقلات المتكبرات الباحثات عن المتعة المغرورات ، اللائي يعتقدن ان عندهن المقدرة على حكم العالم ، واللائي انطلقن الى حدود هذا المجتمع ، واللائي على

استعداد للانطلاق حتى يصلن الى ابعد ما يمكن ان يقدم لهن ـ نقول انه صراع بين السكم وبين الاناث اللطيفات السلبيات المستقلات المتحضرات المؤدبات صاحبات الكرامة الخاضعات ، والخائفات اللائي لا يثقن البتة في انفسهن ، بنات ابائهن اللائي لا يمكنهن مواجهة المجهول ، واللائي يردن الاستمرار في الترنح في الحضيض لانه على الاقل مألوف لديهن ، واللائي يردن المكوث مع القرود ، اللائي لا يشعرن بالاطمئنان الا وبابا الكبير يقف الى جوارهن او باعتماد على رجل كبير قوي يشد من ازرهم ٠

ثم يستطرد البيان في الحديث عن طريقة الاستيلاء على الحكم عن طريق الامتناع عن العمل وبعد ذلك يتخلص الاناث من النظام النقدي ويقتلن الذكور ، ثم يصلن على الفور الى المدينة الفاضلة ٠ وبعد ذلك قد يبقى بعض الرجال ولكن هؤلاء امرهم سهل يسير اذ انهم « سيقضون بقية ايامهم في رعب يشربون المخدرات او يراقبون في سلبية وسكينة الانثى الجديدة المسيطرة ٠ وحيث ان الاناث رحيمات فسيزيدون الرجال باجهزة الكترونية فاذا وقع احد الذكور صريع هوى احدى الاناث فيمكنه مراقبة كل حركاتها وسكناتها بطريقة تشبع غرائزه ودون ان تشعر هي بذلك » ٠ !

ان رؤية سيدات سكم المهووسات للمدينة الفاضلة لا تستند الى اي تصور للطبيعة الانسانية ان من وجهة النظر الطبيعية ام التاريخية ٠ فنحن اذا سألنا هذه السيدات لم يفضلن الاناث على الرجال لن يجدن اي مقياس سوى مسألة « المزاج » او النشوة او البحث عن المتعة او اي تصور فردوسي اخر ، فالطبيعة الانسانية من الناحية البيولوجية تنقسم الى سالب وموجب ، ذكر وانثى ، او انثى وذكر (سواء كانت الانثى **افضل** من الذكر ، فسؤال لا يمكن للعلم ان يحسمه ، والسؤال لغو لا طائل من ورائه لانه لا تفضيل من وجهة نظر بيولوجية ، لان التفضيل يعني الاستناد الى قيمة ، وفكرة القيمة لا توجد في الطبيعة لانها فكرة انسانية محض) ٠ وقد جعلت الطبيعة الجماع بين الذكر والانثى طريقتها التي تتوسل بها الى التكاثر ٠ اما من الناحية التاريخية فالرجل كائن موجود وأي

محاولة لالغائه تتناقض مع الطبيعـــة البشريـــة كما ظهرت عبر التاريخ ، فالرجال لعبوا دورا اساسيا في تشكيـل تاريخ الانسان ولا وجود لهذا التاريخ كما نعرفه دونهم • واعتقد ان التكاثر عـن طريق الجنس امر طبيعي وممتع اكثر من التكاثر عن طريق انابيب الاختبار المعقمة ! وانا الان لا اعرف هل انــا جــاد ام امـــزح في محاولتي للعثور على مبرر للابقــاء على الـرجال امثالي ، ولكنني انزلقت الى هذا لانني احس ان هذا الاتجاه الفردوسي رغم عبثيته وعدميته الا انــه اتجــاه حقيقي مستشـر في الولايـــات المتحـدة والمجتمعات الصناعية المتقدمـــة ، ولا يعلم احد الا اللـه الى ماذا سيؤدي •

وحتى لا يقال ان منشور سكم كتبته سيدة واحدة وانه لايعبر عن اتجاه حقيقي وانه مجرد عبث ومزاح فقد قررت ان اقدم للقارىء مقتطفات من منشور «سيدات نيويورك الراديكاليات» وهي جماعـة جادة تعمل جاهدة لتحرير المرأة • ولقد لخصت هذه الجماعة مبادئها في هذه الكلمات : « نحن نقف الى جوار المرأة في كل شي • نحـن لا نسأل عما اذا كان شيء ما اصلاحيا ام راديكاليا ام ثوريا وانما نسأل عما اذا كان هذا الشيء في مصلحـة المرأة ام لا • نحن ضد كل الايديولوجيات السابقة والاداب والفلسفة نتاج حضارة الذكور الخ الخ • اي اننا عدنا مرة اخرى لنفس التصورات الفردوسيـــة التي ليس لها اي سند طبيعي او تاريخي اي ان الامـر بلاستيك في بلاستيك •

هذا التجريد يعود ولا شك للتصور البـورجوازي لـلانسان على انه شيء مستقل ومنفصل عن الاخرين ولذلك نجد ان التعريفات البورجوازية للحرية لا مضمون اجتماعي او تاريخي لها ، فـــانت حر طالما انك تفعل كل شيء بشرط الا تضر احدا ، كما لو كان في مقدورك ان تفعل اي شيء دون ان تدخل في علاقة مع الاغيار ! على عكس من هذا نجد ان ماركس عرف الحريـة بانها معرفة قـــانون الضرورة ، اي ان الحرية هي معرفة الحدود اذ انه لا حرية انسانية متعينة دون حدود ، لان الانسان يكتسب هويته الانسانية من خلال

الاخرين • اذا حاولت تعريف نفسك فستجد ان هذا التعريف عبارة عن سلسلة من الحدود • فانا رجـل (ولست انثى) عربي (ولست عجمي) مصري (ولست مراكشي) من دمنهور (ولست من القاهرة) من عائلة المسيري (ولست من عائلة حلبي) متزوج واب واعمل في مركز الدراسات السياسية والاستراتيجية ، اي ان هويتي تـزداد بازدياد حدودي • « فالرجــــل » شيء مجرد بينما نجد ان الـرجل المتزوج من دمنهور شيء محدد متعيـــن • والاسرة هي احد هذه الحدود ولا شك ، وهي حد لانها تحد من حريتنا ، ولكنها هي ايضا الطريقة الانسانية الوحيدة التي نكتسب بها هويتنا لاننـا لا نكتسب هويتنا في الفردوس اللامحدود وانمـا نكتسبهـــا خلال ممارستنا اليومية الاجتماعية التاريخية • حتى الان لم نكتشف بديلا حقيقيـا للزواج والاسرة رغم قصورهما كمؤسسات اجتماعيـة ، وان كنت اعتقد ان الاحساس « بقصور » الزواج وانه قيد هو احساس ناجم عن انتشار الحساسية الفرديـــة التي تزيد مـن حساسية الانسان بنفسه بشكل مرضي وتجعله يبحث عن المتعة في كل شيء وتزيد من توقعاته بشكل فج يسبب لـــه الاحباط الدائم • ولذلك فاحساسنا بقصور الزواج والاسرة ناجم عن وجودنا في فترة تاريخية معينة تسيطر عليها فلسفة لا تؤمن بالانسان ولا بالجماعة • وانا شخصيا اعيش حياتي مفترضا ان الحضارة البورجوازيـة هي انحراف عن تـــاريخ البشريـــة •

وقد صدر فلاديمير اليتش لينين عـــن مفهوم جماعي تاريخي للانسان حينما كتب خطابيه الشهيرين الى انسا ارمان التي كانت في سبيلها الى كتابة دراسة ثوريـــة عن الحب والجنس ، وارادت ان تسترشد برأي لينين في هذا المضمار • وعلى عكس ما هو شائع عن البلاشفة نجد ان لينين اخذ موقفا يمكن تسميتـــه « محافظا » من وجهة نظر رأسمالية • فقد اكد لينين في خطابيه ان الحرية في الحب لا تعني انتهاء المشاكل ولا تعني تحاشي انجاب الاطفـال ولا تعني الاباحية الجنسية (اي انني اذا اردت استخدام مصطلحي لقلت ان الحريـــة في الحب لا تعني الـــوصول الى الفردوس الارضي) •

ولنلاحظ ان لينين لم يساو بين الحب والجنس كما يفعل بعض المفكرين النفعيين ، كما انه لا يساوي بين الحب واللذة كما يفعل بعض الثوريين (فالمشاكل موجودة والاطفال ـ وهم الامتداد التاريخي للفعل الفردي ـ موجودون) • اي ان الحب عند لينين ليس جدلا مغلقا لانه ظاهرة اجتماعية ، وكل ظاهرة اجتماعية انسانية هي في صميمها جدل مفتوح لا نهاية له • ويستمر لينين في تعريف الحرية في الحب بانها التحرر من التعصب ومن الضرورات المادية الملحة ، ومن البيئة القميئة التافهة ، ومن متاعب البوليس والقانون ، اي انه يعني توسيع رقعة الحرية الشخصية دون تخطي الحدود الاجتماعية والتاريخية • وحينما كتبت له السيدة انسا ارمان قائلة ان العاطفة العابرة والارتباط المؤقت (الفردوسيين) اكثر شاعرية واكثر صفاء من القبل الخالية من العاطفة التي يتبادلها الزوج وزوجته : رفض لينين هذا الطرح الذي يفترض التعارض الفج بين شيئين مختلفين ، واقترح ان التعارض بين « زواج بورجوازي صغير خالٍ من الحب ولا نقاء فيه » من جهة و « زواج بروليتاري مفعم بالحب » من جهة اخرى ، اي ان لينين جعل من الزواج والاسرة مدخلا « لمفهوم الحب • واعتقد انه بهذا قد بين الطريق لكثير من الثوريين ، فالنظر للفرد من خلال علاقته الاجتماعية (لا كوحدة انتاجية او انسان مستقل) هو جوهر اي نظرة انسانية ثورية تضع الانسان في سياقه • لم ينكر لينين اهمية الحب كنشاط فردي ولكنه وضعه في مكانه الحقيقي كجزء من نشاط اجتماعي انساني اوسع • ففي نهاية احد الخطابين المشار اليهما يضيف لينين ان الارتباط والعاطفة العابرين قد يكونان مدنسين او طاهرين فالحب العابر ليس طاهرا بالضرورة (تماما مثل الزواج)، وتصبح القضية بذلك ليس تفضيل الحب على الزواج او الزواج على الحب ، وهما بنيتان مترابطتان ، بل كيف نحول علاقة الذكر بالانثى الى علاقة بين فردين سويين يتعاونان في حرية على الوصول الى السعادة عن طريق ترجمة امكانياتهما الحقيقية الى واقع حي •

٤ ـ النهاية المأساوية الملهاوية

من كل ما تقدم يمكننا ان نخلص الى انه ثمة تيار بورجوازي قوي يسري في كتابات حركة تحرير المرأة رغم ثوريتها المعلنة ، بل انني اعتقد ان حجر الزاوية في معظم هذه الكتابات هو المفهوم البورجوازي للطبيعة البشرية · فالنظام الرأسمالي قد حول كل الاشياء الى سلع بما في ذلك الانسان ، فالانسان هو الاخر سلعة تباع وتشترى في الاسواق حسب قوانين العرض والطلب المطلقة · ومن هنا ظهر مفهوم روسو عن « الانسان الطبيعي » الذي يسير في الغابة يصفر بسعادة شديدة وواضحة ولكنه يقرر فجأة انه قد يكون من المستحسن ان يكون هناك عقدا مبرما بينه وبين الاخرين لتكوين ما يسمى بالدولة ·

ان مفهوم الانسان الطبيعي « الحـر » على حد قول روسو والذي لا يربطه بالارض سوى عقد اجتماعي ممهور بتوقيعه (تماما مثل العامل في المجتمع الرأسمالي الذي لا يربطه اي علاقة بعملية الانتاج سوى عقد عمله) ، هو النموذج الانساني الكامن وراء فكر كثير من السيدات المتحررات الامريكيات ، ووراء تفكيرهن بخصوص الزواج على وجه التحديد · **الزواج في جوهره علاقة انسانيه** بحت ، فيها الجانب الاقتصادي وفيها الجانب العاطفي وهي علاقة بين ذات واعية بذات اخرى واعية وليست علاقة بين ذات وموضوع ، او ما هو اسوأ ليست علاقة بين موضوع وموضوع ، او بين شيء وشيء · **ولذلك ان نتصور ان الزواج مجرد عقد مبرم بين شخصين هو عملية تبسيط سوقية تدل على احتقار شديد للنفس** الانسانية او عدم فهم لها ، نعم لا بد وان يوجد عقد ما ، كما هو الحال الان ، **حيث ان الصراع طبيعة الحياة ، وحيث ان المأساة ، تماما مثل الملهاة ، امكانية حقيقية في اي موقف انساني متكامل** · ولكن العقد الذي يبرم الان سواء كان عقدا دينيا ام عرفيا يغطي

البداية السعيدة والنهاية التي هي ابغض حلال عند الله ، اما العلاقة بين الزوجين فهي متروكــة لهما ينظمانها كيفما شاءا . قد يتدخل المجتمع من اونة لاخـرى في هذه العلاقـــة ، وهو حتما يؤثر فيها ويشكلها ولكنها تظل في النهاية علاقة مركبـــة بين فردين . ولكن يحاول بعض محرري المرأة الغاء مؤسسة الزواج كلية لان السعادة العابرة التي تربط المحبين هي اقوى من عقد الزواج . وهذا الحديث منطقي من بعض الوجوه فالعلاقـــة بين اي رجل وامرأة لا بد وان تستند الى رغبة ما ، فاذا ماتت الرغبـة او ضمرت فعقد الزواج لا يبقيها باية حال (الا في القليــل النادر) . ولكني اعتقد ان معظم الناس لا يعتبرون ان عقد الزواج هو الصلة بين الزوجين وانما هو مجرد الشكل القانوني المجرد لعلاقة موجودة بالفعل ، ولذلك فـــان ورقة الزواج لا تدعي لنفسها اكثر ما تستحق .

ولكن الطريف ان حركة تحرير المرأة تنــادي بشيء ثم تنتهي بنقيضه (الرغبة في الفردوس الارضي تـــؤدي عادة للجحيم !) فزعماء الحركـــة ينادون بالغاء عقد الـــزواج التقليدي لتحقيق اكبـــر قسط من الحريـــة ، وفي الوقت ذاتـــه يدافعون عما يمكننا تسميته « بعقد الزواج الشامل » ، وهو يشبه من بعض الوجوه عقد استئجار شقة او شراء ارض ، فمثل هذه العقود تحاول ان تصل الى الشمول وتحاول تغطية جميع الجوانب القانونيـــة وكل الاحتمالات المنطقية والرياضية . وقد وصف العقد بانه ليس مجرد وثيقة قانونية ، بل هي بالفعل طريقة جديدة للحياة ، او كما تقول احدى محررات حركة تحرير المرأة « ان العقد هو وسيلتنا لمواجهة الفي سنة من التقاليد » (الفي سنة من التاريخ ايضا) . وهم محقون ، ففكرة العقد الشامل فيه رؤية كاملة للطبيعة البشرية تغطي لا البداية والنهاية وحسب بل جميع جوانب الحياة الزوجيـــة مـــن غسيل صحون الى الاعتنـــاء بالاطفال (ولنلاحظ كيف ان الثورية الفوضويـــة التي تحاول الغاء كل الحدود بدعوى اعطاء الحرية المطلقة ، هي ثورية شمولية تسقط في الجماعية وتنكر الحرية الفردية الانسانيـــة . فالعقد هو عملية برمجه كاملـــة لحياة الانسان ، اما الشكـــل التقليدي للزواج فهو

يحترم خصوصية العلاقة بين الزوج وزوجته ويتركها لهما لانها مجال حريتهما الفردية) .

وفكرة العقد الشامل ترجع جذورها الى القرن التاسع عشر والمفكر الانجليزي الثوري بول‌جودوين الذي تزوج من المفكرة الثورية المطالبة بتحرر المرأة ماري ولستونكرافت ، فلننظر الان الى هذا الزواج الذي يحرر الانسان من كل القيود والاعباء . استأجر جودوين شقة على بعد عشرين منزل من منزل زوجته ولكنه كان يذهب ليزورها كل صباح . وقد وصف جودوين علاقته هذه في خطاب له قال فيه « وحتى لا تبدو هذه العلاقة على انها مثل تلك العلاقة البذيئة الوضعية المسماة بالزواج اقام الزوجان منزلين منفصلين ، على الا يزور الزوج زوجته الا كما يزور الرجل عشيقته ، فيكون كل منهما مرتديا ابهى ملابسه وحجرات المنزل معدة لاستقباله . وقد وافق الزوجان على انه من الخطأ بمكان للزوج والزوجة ان يكونا سويا اينما ذهبا الى مجتمعات مختلطة من الذكور والاناث ، ولذلك فهما كان يبحثان عن اي فرصة لا لاتباع هذه القاعدة بل لخرقها » . الافتراض هو ان علاقة الزوج بزوجته علاقة بسيطة للغاية يمكن التحكم فيها عن طريق العقد . لنتخيل هذا الزوج الذي عليه ان يذهب لزوجته كل صباح وقد استيقظ واكتشف انه قد الم به زكام خفيف والدنيا تبرق وترعد في الخارج ، هل سيعود الى فراشه الدافيء ام انه سيصارع العناصر الطبيعية حتى يصل لزوجته لانه اذا لم يذهب لماتت قلقا عليه من فرط قلقها او لفسخت العقد حتى لا تموت ؟ هنا سيتوكأ بطلنا الثوري المزكوم على عصاه ويذهب وسيطلب من زوجته تغيير العقد حتى يزورها وتزوره هي الاسبوع الاخر . ولكن هذا لن يغير من الموقف شيء لانها قد تصاب بآلام روماتزمية خفيفة او حادة في اوقات اعمالها الزوجية الرسمية !

ولكن المسألة اعمق من زيارة تتم في الشتاء ، فنحن لا نرتدي ابهى ملابسنا الا حينما نذهب الى طبيب الاسنان الكريه او الى مدير

المستخدمين المقيت ، ولكن حينما نذهب لزيارة صديق حميم ، فنحن نذهب بذاتنا الحقيقية ، بكل الامها وافراحها ، فعلاقتنا بـاصدقائنا هي علاقة في السراء والضراء ، لا يحكمها عقد ابله وانما تحكمها احتياجاتنا الانسانية واعتبارات نفسيـة عديدة · ولذلك فزوجتي تحتمل رذالتي ومطالبي العديدة في يـوم وترفضها في يوم آخر · تتحملني يوم احتياجي لها وترد الصاع صاعين في ايام قوتي · وانا اتقبل لا عقلانياتها في يوم وارفضها في يوم اخر ، وبذا تكون الحياة الزوجية امرا خلاقا وليس علاقة عمل روتينية · ان جودوين رغم كل ثوريته ، ورغم كل راديكاليته ومناصرته للضعفاء والفقراء هو في النهاية ضحية تبسيطاته البورجوازية السوقية الفردوسية ، فهو لا يمكنه ان يتصور الا الانسان الطبيعي « الوحيـد » والذي يعيش في الفردوس الدائم (ولذا فهو لا يزور زوجته بل يزور عشيقته) · انه الانسان المنفصل الذي يقف وحيدا في مجابهة الاخرين من الاغيـار يرجو من الله ان يكفيه شرهم ·

ولان الفكرة غريبة علينا تماما لا بسبب تراثنا العربي وحسب وانما لانها منافية لكل ما نعرفه عن الزواج مـن كـل الحضارات ، رأيت انه قد يكون من المفيد ان اترجم مقتطفات مطولة عن عقد المستر شولمان وزوجته ، وهو عقد نموذجي قلده الكثيـرون · يبدأ العقد مثل اعلان حقوق الانسان بتأكيد بعض المبادىء النظرية :

١ ـ نرفض الفكرة القائلة بان العمل الذي ياتي بالربح الاكثر هو العمل الاكثر قيمة ·

٢ ـ نحن نؤمن بان عضو كل اسرة له (او لهما) حق كامل في وقته وعمله وقيمه واختياراته ، وان ارادت هي (أو هـو) أن ينفق هذا الوقت في كسب المال فهذا من حقه وان لم يرد هذا فهذا ايضا من حقه ·

٣ ـ نؤمـن كآباء باننا يجب ان نقتسم مسؤوليـة الاعتنـاء بالاطفال والمنزل ـ ليس العمل وحسب بل المسؤولية ·

٤ ـ من ناحيــة المبدأ يجب ان نقسم الاعمال المنزليـــة الى **نصفين ٥٠ ـ ٥٠ ، ولكن يمكن عقد صفقات بالاتفـــاق الثنائي واي** انحراف عن التقسيم النصفي يجب ان يكون متلائما مع الطرفين ، **ويجب ان يكون جدول العمل مرنا ٠ ولكن في الوقت الحاضر يجب** ان يوافق على كل التغييرات بشكــل رسمي ٠ ان شروط هذا العقد حقوق وواجبات وليس امتيازات وهبات ٠

الاعمال المنزلية : الطبخ : كل من يدعو ضيوفا يقوم هو بنفسه بشراء الطعام وبالطبخ وغسل الاطباق (ماذا لو كان لهم اصدقاء مشتركين ؟ هل نسقط العقد ونتعايش ام نكتب عقدا جديدا) ٠

الغسيل : الزوجة تغسل الغسيل الزوج يجمع الملابس المتسخة ٠ هي تضع الملايات على السرير وهو ينظم السرير (الصورة المجاورة للعقد فيها مستر ومسزشولمان ينظمان السرير **سويا** ، فكيف حدث هذا ؟ التفسير يسير ، لم يتمكن المستر شولمان بمفرده من القيام بهذه العملية واضطر ان يلف حول السرير عدة مرات حتى انقطع نفسه لانها عملية تستلزم التضامن الانساني ، فنــادى على المسزشولمان **وطلب منها المساعدة ففعلت ولم تستشر العقد المبرم بينهما ، لانهــا** بشر وليست محاميا ٠

٢ ـ ب) تقسيم الاعمال ٠ في الصباح ايقاظ الاطفال ٠ اخراج الملابس والكتب والواجبات والنقود وابونيهات الاتوبيس ٠ تسريح **شعرهم ٠ اطعامهم ٠ (عمل القهوة لنا) ٠ يتناوب الابوان القيام بكل** هذه الواجبات كل اسبوع ٠ الشراء : تقوم الزوجة بوجه عام بشراء الطعام اما الزوج فيقوم بشراء الاشياء الخاصة (ماذا قرر الزوج ان يأكل كافيارا ٠ هل هذا طعام ، ام شيء خاص فلنستشر المحامي على الفور ! الزوج معفى من العمل يوم السبت ، والزوجة يوم الاحد (ومن ساقابل يوم السبت ان كنت هذا الــزوج ؟ عشيقتي ام مدير اعمالي ؟) ٠

وحتى يعم السلام بين الجميع رأى مسترشولمان وزوجته ان يعقد طفليهما عقداً تكميليا ٠

عقد تكميلي مبرم بين الاطفال :

تعد بولي (اسم ابنتهما) المائدة اما تدي (اسم ابنهما) فيقوم بحمل الاطباق بعد الطعام ، ويمكن للاطفال تبادل الاعمال الموكلة لهم (كما يفعل الابوان) (وذاك الوحدة الانتاجية من تلك الوحدة الانتاجية فهم ليسوا بالاشبال ولا بالاسود !) ٠

بالنسبة للاطفال : في العطلة الاسبوعية تقسم بالتساوي كل الاعمال الخاصة (بالبلاج وبالحديقة العامة وبحديقة الحيوان) ٠ والان بعد ان ابرم العقد فلترفرف السعادة الزوجية على الجميع ولتفض على الوحدة المذكرة التي يسميها العوام بالزوج والمتعاونة مع الوحدة المؤنثة المسماة بالمزوجة ٠ هل فعلا قام العقد بتنظيم كل العلاقات ؟ ماذا يمكن ان يحدث لو ان الرجل حدث له تضخم شديد في ذاته ؟ هل يفض العقد فورا ام تنتظر الزوجة حتى تزول الكربة؟ وماذا يحدث لو ان الرجل بعد ان تزوج على هذه الطريقة الليبرالية اصبح ماركسيا او رجعيا بعد الزواج ورفض المبادىء النظرية ؟ ماذا عن المواقف الزوجية المركبة اليومية مثلا ؟ ماذا لو القيت بطبق الفول العتيد ، او حتى كوب اللبن الرقيق ، في وجه زوجتي التي تعاقدت معها ؟ وماذا ــ وهذا هو الطامة الكبرى من وجهة نظري ــ ماذا لو فعلت هي ذلك امام الرأي العام العالمي من اصدقاء او طالبات او اقارب او حساد ؟ هل اذهب ساعتها واستشير العقد والاساس النظري بكل هدوء ، ام اقرر على الفور الثأر لكرامتي ولشرفي الضائع واقتل زوجتي امام الملأ حتى يرتدع الاخرون ؟ ام ربما يتدخل اولاد الحلال ويصلحون ما بيننا ٠ او ربما اهدأ من نفسي واتذكر ان زوجتي لم تتمكن من النوم ليلة امس بسبب الرطوبة والحر والكلب روي اللعين الذي لا يكف عن النباح ، واتذكر ايضا الانباء الحزينة التي سمعتها زوجتي في الصباح واتذكر انني جرحت شعورها امام طانط فلانة التي لا تطيقها زوجتي ، عند هذا قد اعدل

عن تنفيذ حكم الاعدام وازيل الفــول واللبن واتمتم على الطريقــة المصرية او العالمية « حصل خير » او ما شابه ٠

ان العقد لا يسمح بمثــل هذا التكيف وبمثـل هذا الارتفاع والانخفاض (او التذبذب التــاريخي الجدلي) فهو انتاج عقليــة بورجوازية فردوسية دائرية لا تقبل الجدل كحقيقة اساسية ، كل ما تملــك في الاطار الثــوري المقتــرح هو ان تفض العقد في عقلانيــة شديدة ــ اي ان الفــردوس يقودك في خط مستقيم الى الجحيم ٠ وتوجد الان في كاليفوريـنـا محاكم تسهل الامــور لك اذ انــه على الزوجين الــراغبين في فض العقد ــ اي في الطــلاق سابقا ــ ان يكتبوا اتفاقهما ويرسلانه بالبريد وسيستلمون ورقة الطلاق بالبريد ايضا (ولا شك انه توجد الان مكاتب مختلفــة تيسر لك هذا الامر ، حتى يمكنك ان تهدم حياتك الزوجيــة في اقل وقت ممكن وبارخص التكاليف) ــ اي ان واقعنا الارضي يمكنه ان يتحول الى ما يشبه المعمل (او الدائرة) في بساطــة علاقاته وفي ميكانيكيتها ٠ ولكن المعمل الانساني هو جهنم وليس الفردوس ، وهذه هي طبيعة وجودنا الارضي اذ انه يبدو ان كل من يحاول تشييــد الفــردوس الارضي وتحطم الحدود التاريخية ، يحطم هويتنا وفرديتنا ٠ وهذا ما حدث لحركة تحرير المرأة (ولحركات فردوسية بورجوازية اخــرى) في تأرجحها من رفض كامل لفكرة التعاقد بين الرجل والمرأة الى عقد شامل يكبلهما ويحرمهما من استخدام عقلهما ووجدانهما ٠

العقد مثل الكومبيوتر يعطيــك اجابات مبتسرة ولا يمكنها ان تغطي جميع جوانب الحياة المركبــة ، واذا كان العقــل الالكتروني قدم للامريكان الاجابات الخاطئــة بالنسبــة لحرب فيتنام فان العقد الميكانيكي سيضللهم لان المطلوب هو اصلاح نوعية الحياة نفسها ، والبحث عن الخلاص والحياة الجديدة من خلال الحدود المتعينة ٠

كلمة ختاميــــة

التاريخ والفردوس في القلب

في المــرة الأولى ذهبت الى الولايـــات المتحدة مع زوجتي ، وحينما عدنا عام ١٩٦٩ مع ابنتنا ، كانت أمي تنتظرني في الميـنــاء وكان معها اخوتي واخوات زوجتي وأبناء عمومتي · أما ابي فكان غائبا لان الله كان قد توفــــاه ، فزرت قبره في دمنهور وقرأت على روحه الفاتحة ، عل الله يسكنه فسيح جناته ·

وفي المرة الثانية ذهبت بمفردي وعند عودتي كـــانت زوجتي وطفلينا واخواتها ينتظرونني في المطار ، وليلتها عدنا للمنزل وشربنا الشاي ولم انم ، وكانت هذه احدى المرات النادرة في حياتي التـــي سمعت فيه صوت المؤذن عند الفجر ·

فهرست

رسم الغلاف . حلمي التوني

الفردوس الأرضي

ان الانسان ككائن طبيعي – تاريخي ، يحلم دائماً بالفردوس ولكنه يعيش في التاريخ . وقد لاحظت ان الانسان في الولايات المتحدة يهرب من التاريخ ليعيش في الفردوس ، ولكن – وهذا هو ما خبرته – إن من يهرب من التاريخ ليعيش في الفردوس ينتهي به الأمر الى الجحيم ، فالانسان الذي يهرب من معرفة قانون الضرورة والذي يرفض فكرة الحدود التاريخية ليمرح في فردوس اللاحدود سينتهي به الأمر إلى عالم الصدفة العبثي الذي لا يحكمه قانون – والجحيم هو الصدفة والعبث ، وأرجو الا يفهم من دراستي انني انكر القيمة الانسانية والايجابية للحضارة الغربية ، فأنا اول من يعترف بفضل هذه الحضارة على العالم ككل وعلي أنا كفرد . ولكنني اجتزأت خاصة سلبية اساسية في الحضارة الامريكية (والحضارة الاستهلاكية عامة) وهي معاداتها للتاريخ .

المؤسسة العربية للدراسات والنشر
بناية برج الكارلتون – ساقية الجنزير
ت : ٣١٢١٥٦ – برقياً « موكيالي » بيروت
ص . ب . ١١/٥٤٦٠ بيروت

الثمن : ٦ ل.ل.

